رواية

بلغنامي عبد الرحيم

أسطورة أقمد

جواب بين نظرتين

الطبعة 2

جميع الحقوق محفوظة

العنوان: 07 شارع كعولة مختار_ حي الفرسان _ جيجل _ الجزائر.

الهاتف: 00213.34.47.08.05 / 00213.6.57.30.04.15

الواتساب: +213.6.57.30.04.15

أنستغرام: *wamda édition*

فيسبوك: *wamda édition*

الإيميل: *wamdaedition@gmail.com*

صدر عام **1440هـ/2019م** عن دار **ومضة** للنشر والتوزيع والترجمة

لا يجوز نسخ أو استعمال أيَّ جزء من هذا الكتاب، في أيِّ شكلٍ من الأشكال، أو بأيَّة وسيلة من الوسائل. سواءً التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النَّسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها. من دون الحصول على إذن خطِّي مسبق من الناشر.

أسطورة أقمد

عبدالرحيم بلغنامي

الطبعة الأولى

المدير العام: سميرة قنون

تصفيف الصفحات: محمَّد خمفوسي

تدقيق لغوي: محمَّد خمفوسي

تحرير ومتابعة نشر: محمَّد خمفوسي، أميرة محمد

تصميم الغلاف: سمير محرز

الإيداع القانوني: **سبتمبر 2019**

ISBN : 978 _ 9931 _ 719 _ 29 _ 8

أسطورة أقمد

-جواب

قد لا يكونُ هذا الجزء كافيا لنعرفها جيّدا، لا أدري لماذا ظهرت باحتشامٍ في بعض العبارات، لكن دعنا نحاول معا... قبل أن تبدأ رحلتك في الأسطورة، سأخبرك سرّا عنّي وعنها لا يعرفه سوانا، كان مجرّد موقف، مجرّد هي وأنا! كتبتهُ لها في رسالة لم تصلها، في لحظة قوّة حين ضعفتُ أخيرا واستسلمتُ للاعتراف، لا أريد أن تموت الحروف تحت صقيع دواخلي الّتي تجمّدت، أظنّه يعزّيني أن تقرأهُ بدلا عنها لشخصٍ تحبُّه بشدّة، امنحنا بعض الدّفء... من فضلك:

"كنت متكاملا سائرا بين الظّلال؛ واكتشفتِني في رواقٍ مزدحم بالفارغين، نظرنا إلى بعضنا وبدوتِ شبيهة بالنّقص الّذي ينقصني".

بلغنامي عبدالرحيم

– لماذا لا نشبه أنفسنا حين ننظر إلى المرآة كثيرا يا أبي؟

– لأنّنا لا ننظر كثيرا![1]

[1] حوار بين وهمين وُلدا قبل موتهما بلحظة

في أولى ساعات اللّيل جلستُ أنتظر الفجر، أزهار التّوليب الورديّة لا تزال مغلقة، أنا وهي ننتظر الدّفء والنّور معا، أتأمّل تمثال "إمري ناجي" وهو يشير إلى قبّة البرلمان...

"أنظرُ إليك ولا أذكر أنّي لا أعرفك، لا أدري أينَ لم أرك من قبل، هل لستَ تتعمّد ألا تتبعني في كلّ مكان؟ في كلّ وجه؟ تشبه الأشياءَ الّتي لا تشبه أحدا، بماذا تراني أشبّهك كي أتذكّرك وأستطيع أخيرا تذكّر نسيانك؟ أخشى أنّي إن نسيتك سأنسى ما تريده نفسي حقّا..."

مضتْ سنتان منذ اغترابي ولا أفكّر سوى في تركِ كلّ شيء والعودة، وقفتُ مثل وقفة التّمثال وأشرتُ إلى مكانٍ بعيد في السّماء مبتسما، كانَ يشبه السّماء الّتي اعتدتُ أن أراها هناك بعيدا من سطح منزلي.

عدتُ إلى البيتِ أينَ ينتظرني صديقي الذي حلّ ضيفا عندي، سيأتي الفجرُ حتّى وإن لم أنتظره، غير أنّ انتظارَه جميلٌ فحسب، ستتفتّح الزّهرة الورديّة حتما عندما أثقُ أنّها ستفعل وأكفّ عن انتظارها.

كانَ أحمدُ جالسا يتصفّح الأنترنت، يستمع إلى أحدث النظريّات الفيزيائية التي توصّل إليها العلم.

-سرعة الأنترنيت عندكم ممتازة.

-نعم...

ما بدا له أمرا جميلا أضحى بالنّسبة لي أمرا عاديّا لا يستدعي أن أشعر بالامتنان لوجوده، هذا يفضحُ مدى جحودي لكلّ الأمور الجميلة في حياتي.

حينَ تأكّد من وجودي واستعدادي له، سألني:

-هل أحضرتَ لي الزهرة؟

-نعم... هي خلفَك فوق الكنبة.

-هل فعلتَ ما طلبتُهُ منك؟

-نعم... قطعا.

كانَ قد طلبَ منّي سابقًا إحضار الزهرة، لكنّه اشترطَ أن تكونَ متوارية خلف الأعشاب، غير ظاهرة للمارّة والناظرين، ربّما لم يُردْ أن يُفسدَ المنظر، لطالما كان غامضا. نظرَ إليها بعينيه الضيقتين، خفض نظّاراته وتفحّصها ثم وضعها داخل الكأس المملوءة بالمياه، أشعلَ سيجارة ووضعها بين شفتيه وتلذّذ بأول "جبدة" منها، ارتسمتْ حينَها ملامحُ جديدة على وجهه، إنّها لذّة اللقاء بعد الفراق قدْ نحبُّ أحيانا الأشخاص الذين يدمّروننا، تنظر لعلبة

سجائرك وتعلم أنها ستقتلك، بضع مئات منها على مدى سنين، أو ربّما لن يُسعفها الحظّ لتكونَ هي السّبب، مع ذلك تفضّل النّشوة الّتي تعتريك حينَ تمرّغ بعضَها بينَ شفتيك وتحترق رئتاك شوقا لدخان محرقتها، كأنَّ دورَها لا يتعدّى قربانا لم يستحقّ الاحتفاظ برمادِه حتّى! يسقط بعضُه على الأرض وتأخذ بعضَه الرّياح في مهبّها بينما ما زلتَ تستحضر نشوة الموت وتتعاطى جرعاته الملفوفة في ورقة صغيرة تحتقرها... تنبّئكَ بالطّمأنينة، تخاطبك: "كيف لحقير مثلي أن يقتلك؟"

تنظر من جديد إلى العلبة، ألوانهُا مغريةٌ حقّا، لكنّ الشّيء الحقيقيّ الوحيد في الأمر هو عبارةٌ كُتبتْ بتحفّظ شديد "التدخين مُضرّ بالصّحّة"، غريبٌ أمرُهمْ! يُخبرونك أنّهم يريدون قتلَك لتهرب، أمركَ أغرب! تُصرّ على المخاطرة وتعرِفُ أنّك لو خسرتَ رهانَك ستخسرُ كلّ شيء، حينَها تُدركُ أمرا واحدا... أنَّ الحياةَ ليستْ كلَّ ما يسعى إليه البشر، إنّهم يسعونَ إلى اللذّة التي فيها، إلى ما يجعلهم سعداء.

-هذا "دخّان البلاد".

قاطعَ تفكيري كأنّه يعلمُ أنّي أفكّر في السّجائر، كثيرا ما دعاني إلى تجرِبتِها، يكفي إضافة كلمة "البلاد" أو الوطن إلى أمرٍ ما حتّى يغدوَ مقدّسا، "سجائر الوطن" لقد اشتقتُ إلى الوطن، قد أجرّب سيجارةً لاحقا. قبلَ خروجي حدّثته عن أحوالي هنا، عن استقراري وعن تفكيري في العودة وتركِ كلّ شيء أحيانا، لمْ يبدُ عليه الاكتراث حقّا، هو من النّوع الذي لا يجيدُ إعطاء ردودِ أفعاله التعبيرَ المناسب، لذلك غالبا ما كان منبوذا من طرف الآخرين رغمَ أنّه على الأرجح لا يكترثُ لهذا أيضا، فهو يراهمْ مجرّد كائناتٍ مدلّلة على حدّ تعبيره، أتذكّر يوم قال لي:

_ رغمَ ما تكونُ عليه في أعينِ النّاس فخياراتُك محدودة.

_ سألته: إلى أيّ مدى هي محدودة؟

_ أجابني: جِدّا... إمّا أن تعيش كما يريدون وإمّا ألّا تخسر نفسَك.

لم يَكُنْ يرَاه الآخرون سوى متعجرِف فصيح، نادرونَ همْ من يعلمون أنّه صريح وواقعيّ فحسبْ، أولئك القليلون هُمْ من لا يزالون يحتفظون به اليوم. خلالَ رحلةِ الحياة، امتلاكُ إطار متهالك في صندوق سيّارتك أفضل من امتلاك أربعةٍ بعيدة عنك في المنزل أو المرآب.

-كيف حال العائلة؟

- على أحسنِ ما يرام، لكن أظنّ أنّك أحوج منّي إلى واحدة.

-يتعلّق الأمر دائما بإيجاد الشّخصِ المناسب في ظرفٍ مناسب.

-همم... تقصد المرأة الجميلة والذكيّة والوفيّة...

-الحبّ يا صديقي، أحتاج إلى كثير من الحبّ هذا كلُّ ما في الأمر.

أولاني مزيدا من الاهتمام بنظراتِه، أتذكّر كيف كانَ يحبّ أسلوبَ التّأثيرِ النّفسيّ لسَبْرِ نفوس الآخرين، لقد اعتدتُ على ألاعيبه سلفا.

- وهل لهذا الحبّ ثمنٌ معقول أم أنّك تغالي في طلبك؟

-توقّفْ عن فعل هذا، أعرفُ ما تحاوِل عملَه!

- وهل ينجح الأمر؟

-طبعا! كما في كلّ مرّة.

انفجرنا ضاحكين كما في الأيّامي الخوالي، أينَ كان يُضحكنا أيّ شيء كعطسة الأستاذ بينما يشرح الدّرسَ مثلا!

-رغمَ أنّ مثاليّتي تنكِرُ الأمر، إلّا أنّه لا مجال لنفيِ أنّ للحبِّ ثمَنا، يعتَمِدُ الأمر على المقاييس الّتي تعتمِدها لاختيار رفيقتِك، فالجمال والذكاء

وخفّة الرّوح... هي ثمَنٌ يجبُ دفْعُه مقابلَ نيلِ إعجاب شخْصٍ ما... أمّا الّذين يختارون أشخاصا دونَ مقاييسِهم هم في الحقيقة متنازلونَ عن رغباتِهم وراضخونَ لواقعٍ لمْ يقدّم لهمْ أكثر من ذلك.

-بالحديث عن الثّمن، ما هي مقاييسك؟

-يؤسفني أن أعترفَ أنّ "إيمان" هي المقياس الذي لا ينفكّ يسيطر على خياراتي، كأنّها أنثى والبقيّة هنَّ مجرّد إناث.

-مجرّد إناث... أعجبتني العبارة.

قالها أحمد ضاحكا ضِحكتهُ الخفيفة ثم استطردَ قائلا:

-مجرّد أنثى ها؟! يا لها من عبارة وقِحة! ربّما عليكَ العمَل على نظرتِك للإناث ولربّما سترى منهنّ بالمقابل ما ينسيكَ إيمان، أَعْطِ الأنثى الاهتمام اللّازم فحسب.

-دعنا منّي، كيفَ حالُ زواجك؟

-مرّ بفترة عصيبة، لكنّه بخير الآن.

-جيّد، لا يجِدُ المرءُ سفينة تصمُد أمام العواصفِ كلّ يومٍ، حافظ عليها.

ردّ ضاحكا:

-ألا تظنّ أنّك آخر شخص يقدّم النصائح؟

-فاقِدُ الشّيء لا يعطِيه، لكنْ بإمكانِه إعطاء النّصائح دائما.

الأجوبة الطّريفة هي الأجوبة الأعمق، الحقيقة بشعَةٌ لكنّها حينَ تتبرّج وتضع الماكياج تصبِحُ طُرفة.

-تمكّنتُ من قراءة كتابكَ كاملا.

-تقصد كتابَ (كيدِ الرّجال).

-نعم... استطَعتُ استرجاعَ عباراتٍ منهُ في أحيانَ عديدة، أظنّه تجربة فلسفيّة رائعة، على المرءِ أن يقرأ كتابا كهذا مرّة في حياتِه. نظرةُ الغيرِ إلى حياتِه تصوّب حياتنا كذلك... "ميلين" أيضا كانتْ رائعة بالقدر الذي جعلني أرى الصّواب بوضوح.

-ميلين ها؟!

ضحكنا كثيرا هذه المرّة.

-لكلٍّ منّا إيمان خاصّة به، أمّا بالنّسبة لي فهي ميلين.

كانَ يتكلّم عنها بحماس، لمْ أرَه متحمّسا من قبل لغير الفيزياء والنّظريات الغريبة في فيزياء الكمّ، لذلك كانَ طلبي القادمُ بديهيّا.

-حدّثني عنكُما كيف عرفتما بعضكما؟ وكيف تعيشان حياتكما؟

بدا مسرورا من هذا السّؤال، اعتدلَ في جلوسِه وخرجَ من تحتِ الغطاء الخفيف، الجوُّ دافئٌ هُنا، لا يزال أحمد نحيفا كما كان... استلقيتُ ووضعتُ يدي على الوسادة في حنين كبير إلى لحظات كهذه. بدأ بسردِ قصّته المتأرجحة بين أحداثٍ تأخذ الأنفاس رفقة زوجتِه ميلين وبينَ الخيالِ الآسر الّذي جعَلَه عمّي يغموراسن يعيشُه.

مــيلــين

كانَ الجوّ مظلما والسّماءُ عليها سفعة طافحة، الغيوم متشبّعة بحمرة كونيّة، توقدُ في قلبي الحنين، لطالما سمعتُ أنّ هذا اللّون مثيرٌ للغرائز الحيوانية لدى البشر، أظنّ أنهم لو بحثوا بما يكفي لخلصوا إلى أنّها تثير العواطِفَ الإنسانية كذلك. السيّارة تمضي بنا على مهلٍ بين الأشجار العالية، الطريق مظلمة وملتوية بتواتر عالٍ، بدا لي أنّنا نهوي في أمعاءِ شيء ما... الغابة مثلا!

النّسيم يدعوك لإخراج رأسك من النافذة لاستقباله، زخّاتٌ خفيفة بدأت ترتسم على الزجاج الأمامي للسيّارة، هل هي الجنّة؟ أنظرُ إلى زوجتي، هل أنتِ حورٌ عيناءُ يا ميلين؟ شعرتُ بانكسار كبيرٍ، كانَ انكسارا جميلا، كأننا فجأة وجدنا نفسينا داخل قصّة خيالية، داخِل خرافة تذوبُ جمالا. خيّم الصّمتُ علينا ونحنُ نستمعُ إلى ما تردّده الريحُ في مسامعنا، لم نعُدْ نرى بعضنا، لم نعدْ نرى هيكل السيّارة، جلسنا عاريين من كلّ ما هو دنيوي، نحنُ في الجنّة الآن!

في الأيّام الأخيرة شعرتُ بالتّعب بعد جُملةٍ من الأسفار، كما أنّ علاقتي بميلين ليستْ بخير، أظنّها افتقدتني كثيرا في الأيّام السابقة، تخاصمني دوما حين تشتاق إليّ، لكنْ أظنّها بالغتْ هذه المرّة، أو أنّي أنا الذي بالغ، تقولُ أنّي تغيّرتُ كثيرا... هكذا هنّ النساء يطلبنَ منكَ التغيّر ثم يَلُمنكَ على ذلك. بعدَ عاصفة صبّتْ فيها عليّ كلّ ما بداخلها من غضب، حاولتُ إخبارها أنّي لم أتغيّر حقّا، أنا لازلتُ ذاك الشّخص الذّي أحبّته والذي طلبتْ منهُ أن يعِدها أنّه سيبقى كما هو مهما حدث في المستقبل، هي غاضبة جدّا وطلبتْ منّي أن آخذها إلى بيتِ أبيها في قرية "آث سعيد" في أعلى جبال تيزي وزو، لو رفضتُ لاضطررتُ إلى غسل الصّحون وطهو الطعام بمفردي والمبيت وحيدا ربّما... لم تكن باليدِ حيلة.

في الأفق بدتْ حبيبات مضيئة، يبدو أنّنا كدنا نصل، كانتِ الطّريق أقصر من طولها الفعلي في بعض الأحيان، لكنّ ملامح زوجتي ميلين المنزعجة، جعلت الدّربَ موحشا وبالكاد استطعنا قطع المسافة الماضية. انزعاجها زادها جاذبية، لم أعهد رؤيتها بهذا الشّكل، لعلّ الثّانية ليست متساوية في كلّ

الأماكن، تذكّرتُ رأي أينشتاين القائل أنّ الجاذبية تشوّه الزّمن، لقد كانَ مُحقّا، ملامحُ حبيبتي ميلين جعلت الزّمن أبطأ أضعافا!

-تعبت!

-وأين الجديد في الأمر؟ أنت متعبٌ طول الوقت.

-ميلين! من فضلك!

صمَتتْ متجهمّة، نزلنا من السيّارة، توجّهنا إلى منزل طفولتها، بدأ حاجباها المقطّبان بالارتخاء، استراحتْ قليلا من عبوسها، طرقتْ الباب...

-من هناك؟

-هذه أنا يا أمّي.

فتحت الحاجّة "ماتيا" الباب، أشرق وجهُها لدى رؤيتِنا ولمعتْ عينا ميلين وضِعتُ أنا بينَهما. كانَ ظهرُها منحنِيا بزاوية صغيرة ووجهُها مُشرقا مع وجود حُمرة خفيفة على خدَّيها وأرنبة أنفِها، ليست بالنّحيفة ولا المكتنزة، قليلة التّجاعيد ومنتعشة الرّوح.

-كيف حالك خالتي؟

-بخير وأنت بنيّ؟ تفضّلوا... ادخلوا!

كنتُ في غاية الخجل، ماذا ستقول لهم عنّي؟ هل ستشكو إلى أمّها تصرّفاتي؟ سأضطرّ للعودة إلى المنزل بعدَ غد، سأتركها هنا لبضعة أيّام، أخشى أن يعتبروا ذلك خصاما، أيّ ورطة وضعتُ نفسي فيها، كانَ عليّ الاعتناء بها أكثر.

-اجلسا، سأحضر لكما شيئا تأكلانه.

-لقد تناولنا العشاء في الطريق لا داعي يا أمّي، هل أبي نائم؟

-نعم... أظنّ أنّ الطريق كانتْ متعِبة لكما وتريدان النّوم.

من الجيّدِ أنّ عمّي "يغموراسن" نائم، لا طاقة لي بالدردشة الآن. أعدّت خالتي "ماتيّا" لنا فراشين على الأرض لننام، كلّ شيء هنا متواضع لكن... رائع، لم أشعر بمثل هذه الرّاحة في فراشي الذي اشتريتُهُ بثمنٍ محترم، هذا من الأشياء التي يجهلها المال وأصحابه، معَ أنّي أصرّ أن المالَ من الأمور التي لا بدّ من تحصيل أكبر قدرٍ منها في هذا الزمن، يُمكنك تعلّم الكثير بمراقبة الأشياء، يعلّمك المال أنّك إن أردتَ امتلاكَ الآخرين، يمكنُكَ جعلُهم يشعرون أنّهم يمتلكونك أوّلا، عندها سيصبح الاستغناء عنكَ مؤلما أو مزعجا على الأقل. وضعتُ رأسي على الوسادة منتشيا رائحة الطّين، الهواء هنا في غاية

النّقاوة، كانَ ذلك آخر شيء أذكره قبلَ نومي. استيقظتُ فجرا على صوت مِنخاريّ عمي "يغموراسن" وهو يتوضّأ، إنّها ساعة مقدّسة للاستيقاظ كما هيَ ساعةٌ أقدسُ عند النّائمين، مقاومَة النّعاس فيها يتطلّب شجاعة كبيرة، ذكّرتني بأيّام كنتُ صبيّا، حين كان يوقظني صوتُ المنبّه، كنتُ أتمنّى التوقّف عن الدّراسة ومواصلة النّوم... من المؤسفِ كيفَ يمكِنُ للإنسان مقايضةُ حياتِهِ مقابل أشياءَ ذاتِ قيمة متدنّية بسبب جهله لقيمة حياته، النّضج والوعي مُهمّان في تعاملاتنا مع الأشخاص الذين نعتبرهم أولويّة في حياتنا إن شئنا الحفاظَ عليهم.

حبيبتي ميلين ليست في فراشها، يبدو أنّي آخرُ من استيقظ، من الصّعب مجاراة هؤلاء، سيكون عذابا العيشُ معهم لأسبوع إضافيّ. قمتُ متثاقلا من فراشي، النسيمُ باردٌ في هذه الأثناء وهو مشبّع برائحة الورود الجبليّة، إنّها هي... رائحة الجنّة من جديد! غيّرتُ رأيي سأنهض كلّ يومٍ باكرا فالأمر يستحقّ ذلك.

لا أدري ما الّذي يحدثُ لي، لا أفكّر إلا في ميلين، أشعر أنّي أحبّها أكثر من اللّيلة الماضية قبل أن أغلق عينيّ، ليس السّبب خسارتَها، فالتخلّي عنها أمرٌ

غير مطروح للنّقاش أصلا، لكنّي كنتُ وأنا أنظر إليها في بيتِ أهلها، أتوسّم السعادة اللّامتناهية التي تعيشها هنا ويتبيّن لي جليّا ما تَركتْهُ من أجلي، في هذه اللّحظة فهمتُ أنّ الميزان الذي أشار إلى أنّ وزني هو سبعونَ كيلوغراما كان مخطئا، لقدْ وضعتني في كفّة ووضعتْ بقيّة الأمور التي تُسعدها في كفّة ثانية. هذا هو وزني الحقيقي، كمْ كنتُ زوجا سيّئا...

ها هي ذي أقبلت وبيدها ماءٌ دافئ.

-قمْ توضّأ لكيْ تصلّي مع أبي.

-شكرا حبيبي.

ناديتُها باللّفظ الذي تحبّه، لكنّها لم تَرُدّ ولم تلقِ إليّ ابتسامتَها الكونيّة، لم تصفحْ عنّي بعدْ... بشكل غريب يبدو الأمر جيّدا، إنّها تهتمّ لأمري كثيرا وإلّا ما عاتبتني بهذا الشّكل.

-كيفَ حالك عمّي؟

-بخير... لم تزرنا منذ الزّفاف!

-أعتذر عمّي، كنتُ مشغولا كثيرا.

-لا تنسَ إحضارها لزيارتنا بين الحينِ والآخر.

قالها عمّي "يغموراسن" مبتسما وممازحا، لكنّ المزاحَ يحمل الكثير من الحقيقة فهمتُ كلامه كما يجبُ، فهي كالشّمس الربيعيّة، تضفي الحياة إلى أيّ مكانٍ تحلّ فيه، لقد سرقتُ منهمْ شمسهم!

ضحكتُ بدوري وقلتُ:

-صلِّ بنا عمّي...

بعدَ الصّلاة، جلستُ معَهُ في الغرفة وعينايَ لم تكادا تفارقان الجدرانَ الطينيّة العتيقة، لم أشعرْ بهكذا راحة في حياتي، لم أستوعبْ أنّي على الأرض بعدْ.

-كيفَ عملك وكيف حال العائلة؟

إنّه السّؤال التقليدي لفتحِ كلّ المواضيع على اختلافها...

-بخير ولله الحمد وأنتم؟

-الحمد لله...

كنّا نتحدّث عن أيّ أمرٍ كي لا يسودَ الصّمت، تحدّثتُ عن الجوّ وعن السياسة وعن حال الطرقات وعن الطّبخ وعن... تحدّثت عن كلّ شيء ريثما أجدُ شيئا ما يُخرجني من هذا المأزق. كانَ يرتدي "جلّابته" التقليدية

و"شاشيّة" على رأسه كحال جميع الكهول هنا، عيناهُ العسليّتان الفاتحتان، تُوحيان بقُدرتهما على سبر أعماقِك بدهاء، إنَّهما شبيهتان بعينيّ ميلين، غيرَ أنّ عينيها أشدّ براءة، يتحدّث برزانة كبيرة وبابتسامة دائمة، لا يزال شابّا من الدّاخل.

-سيكون عليك الاستحمام قبل انقطاع المياه.

-يبدو أنّكم تعانون معاناتنا نفسها خلال السّنة الماضية.

-إذا هكذا...

-نعم، نفدت المياه من السدّ واضطرّت السّلطات إلى حفر الآبار لتوفيرها.

-لدينا وعودٌ بأنّهم سيجدون حلّا عاجلا لهذه المشكلة، لكن... لم يعد أحد يثق بهذه الوعود بعدَ أن طال الأمر.

-فرّج الله أحوالكم يا عمي.

-ستُعرّفك ميلين على القرية جيّدا، استمتع بوقتك وعودا باكرا للغذاء.

أف... أخيرا جاء الفرج، كما أنّي في شوق لرؤية الطبيعة التي سحرني عبقُها، أريد رؤية كلّ منعطف في القرية، أريد لقاءَ الوردةِ المسؤولة عن هذا

العطر الفردوسيّ! خرجنا من البيتِ وقابلنا الشّعاع الصباحيّ بكثير من الأمل، أنا إلى الآن لم أستوعبْ هذا الكمّ من الجمال وما زال لدى القرية المزيد لتفاجئني به.

-كانَ بوسعِكَ شربُ الماء في المنزل بدلَ شراء الماء من هذا المتجر!

-لم أشأ إزعاج أمّك، كما أنّي لست عطشانا.

-ولِمَ أحضرتَه؟

-فكّرتُ أنّي حينَ أجدُ وردةً جميلة، سأقوم بسقيها بهذا الماء!

في الحقيقة كنتُ أعدّ لحيلة جهنّميّة تجعَلُها تعيدُ النّظر في غضبِها منّي رغما عنها.

استغربتْ منّي قليلا وابتسمت كأنها تقول لي: أنت مجنون!

أحسستُ أنّها أصبحتْ أفضلَ حالا، لعلّها تشعر أنّها بالغتْ في عتابها لي. ميلين هي أحنّ فتاة عرفتها يوما، هي الجمال بعينه، لا أفترُ من النّظرِ إليها ومن الاستماع إليها ومن ترديد اسمها... ميلين هي المنعكسُ الفِطريّ للسّعادة وهرمونُ السيروتونين في دمائي.

-أين كنتِ تخفين كلّ هذ المواهب؟

قلتُها لأنّي لم أكنْ مدركا لقدرتها الفائقة على المشي والتحمّل...

-أيّة مواهب؟

نزعتُ أحد جواربي البيضاء ورفعتُه ملوّحا وقلتُ:

-لم أستطع تحدّيك في سباق المشي، لقدْ فزتِ... أستسلم!

أخيرا... ضحكتْ بعدَ طول صيامٍ عن ذلك. كنّا في نهاية جولتنا، فتحتُ غطاء القنّينة التي ابتعتُها وصببتُ قليلا على رأسِها، صرختْ:

-أيها الغبيّ لمَ فعلتَ هذا؟!

نظرتُ إليها مستحضرا كلّ مشاعري:

-لم أجدْ وردةً أجملَ منكِ، حقّا أنا غبيّ.

هدأتْ على الفور، وخمدَتْ كبُركَان ثائرٍ في الثّانية الأخيرة، كانتْ سعيدة جدّا لأنّها استطاعتْ رؤية الشخص الذي تحبّه من جديد، الأيّام الجميلة تعود، كانتْ متأثّرة أيضا. أحيانا تتصنّع البرودَ والقسوة حينَ تغضبُ منّي بشدّة، لكن كما يقال "العينان نافذتا الرّوح"، لا أظنّها نسيتْ أوّل مرّة تخاصمنا فيها بعدَ زواجنا، لم أكن معتادا بعدُ على تقلّب مزاجِها، اضطررتُ

لكتابة شيء لها حتّى تعودَ لإشراقتها المعتادة، كانَ نصّا مليئا بالأحاسيس الدّافقة:

"في عينيك أرى ما أحتاجُه وفي تصرّفاتكَ أفتقدُه، أنتَ الشّخصُ المنشود وأنتَ الحبيبُ الرّائع، أنتَ حُلمِيَ المحدود وأنتَ مِلكيَ الضّائع، هل هي عبارات لا تعرفُ نطقها؟ أم فلسفةٌ تفوقُ عقليَ القاصر؟ أعذركَ إن لمْ تتقبّلني، فعدمُ تحمّلي لنفسي ما جعَلني أبحث عنك! ورفضي لها ما جعلني أرتمي عندك، أملا في أن تكونَ أحنّ عليّ من ذاتي، يدُكَ عصا تنتشلني من الوحلِ الّذي يحيط بي ومجدافٌ يخرجني من الرّكودِ الّذي أعيشُه ومرساة تبقيني ثابتا في وجهِ التيّارات الرّامية نحوَ الهلاك!

-حبيبي!

-نعم، تكلّمي.

-لقدْ أخبرتُ أمّي عن خصامنا.

-ماذا؟

-وربّما أخبرتْ أبي بكلّ شيء...

-يا إلهي ما الذي فعلتِه؟!

ضحِكتْ وهي تراني مذهولا ومحرَجا، ضحكتُ أنا بدوري.

-أفف، كنتُ أعرف أنّك تمزحين، تبا لك أفزعتني!

أجابت بعيونِها البريئة وصوتِها الحَنون كطفلٍ ارتكبَ حماقة ما:

-لا على الإطلاق لم أكن أمزح.

قضتْ عليّ هذه الغبيّة والأدهى أنّ الأمر يبدو كمزحة بالنّسبة لها، بينما لا أستطيع تخيّل موقفي أمام عائلتها عند عودتنا.

-لا تقلق حبيبي، أبي طيّب ولا يعاتب.

قالتها وهي تضحك... تضحك ببراءَتها الطّفولية... للحظة نسيتُ مصيبتي ورحتُ أضحكُ مثلَها، ربّما عليّ التّوقّف عن القلق قليلا، بعضُ الأمور لا يمكِنُ تفاديها، لذلك سيكونُ من الجيّد عدمُ التّفكير فيها، كي لا تفسدَ حاضرنا كذلك. لمعتْ عيناي وأنا أنظر إليها وهي تضحك... ما أجمل ضحكتها، سأحبّها إلى الأبدْ!

اشتريتُ خلالَ عودتنا بعضَ الفواكه، كلانا يحبّ البرتقال، دائما ما يقسمُ كلّ منّا حبّة البرتقال خاصّته ويعطي نصفها للآخر. في أوّل مرة اكتسبنا فيها هذه العادة، سألتني:

-لِمَ لا يأكل كل واحدٍ حبّته فحسب؟

-ماذا إن كانتْ إحداهما حلوة والأخرى حامضة؟

ابتسمتْ مستغربة من تفكيري الدّائم في كلّ التفاصيل التّافهة وقالت:

-لا بـأس سآكل أنا الحبّة الحامضة حبيبي.

-تذكرين حين كدنا نفترق؟ ذاكَ اليومَ عندَ باب الإقامة الجامعيّة، أخبرتُكِ أنّي أريد أن نتألّمَ ونسعَد سويّا، أريد أن نتشاركَ مشاعِرَنا قدرَ الإمكان!

ميلين سبب استمراري في كلّ الأمور التي دعاني الآخرون إلى التّوقّف عن فعلها لأنها سخافة أو فشل محتّم، بإمكانها ملاحظة الأمور المميّزة الصغيرة لـديّ كحركة القلم بين أصابعي الرّشيقة مثلا، حتّى أنّها أعجبَتْ بطريقتي البسيطة في تقشير البرتقال. يحتاج المرء إلى مجتمَعٍ يخذلُهُ ليصبحَ فاشلا، بينَما يكفي المرءَ شخصٌ واحدٌ يؤمنُ بِهِ ليثبّتَ خطواتِه على سكّة النّجاح.

-ستقشّر لنا البرتقال جميعا حبيبي، سيعجب أبي وأمّي بطريقتك.

هذا ما كنتُ أتحدّثُ عنه للتوّ! هي ترسُمُ حولي سماءً ورديّة قبلَ أن أفتحَ عينيّ حتّى، تحاول إقناعي أنّ الكلّ يراني مميّزا، أسمَحُ لنفسي بالاقتناع بذلك من أجلي ومن أجلها رغمَ أنَّ إدراكي يشمل حقيقة أنّها أكثر شيء يميّزني، كلّ

ما يمكنني فعلُه من أجلها هو أنْ أحبّها وأعتنيَ بها كما تستحقّ، سأقشّر البرتقالة من أجلها دوما!

-أبي أرادكَ أن تحضر.

-ظننتُ أنّنا أتينا لأنك أردتِ ذلك!

- نعم، ذلك أحد الأسباب.

-لماذا أراد ذلك؟

-يريدُ أن يحكي لك قصّة.

ستفقَعُ الحمقاء مرارتي ذاتَ يوم، هل هي جادّة حقّا؟ سألتُ باستغرابٍ كبير:

-قصة؟ لمجرّد قصّة؟

فُتِحَ الباب، سنؤجّل الحديث إلى وقتٍ لاحق، عندَ خروجنا مساءً... ربّما.

كانَ الإفطار شهيّا، حاولتُ أن أداريَ الإحراجَ الّذي يتملّكني، لا بدّ مِنْ أنّهم يفكّرون أنّي لم أعتنِ بابنتهم المدلّلة.

-أمّي، أبِي، سيُريكما طريقة جديدة في تقشير البرتقال.

نظرتُ إليها محرجا

-ميلين!

-هيّا! أرجوك!

نطقَ عمّي يغموراسن:

-نعمْ نودّ رؤية ذلك.

حينها تشجّعتُ وأمسكتُ البرتقالة.

-حسنا نمسك ملعقة ونمرّرها دون أن نضغط... من هنا ثمّ من هنا... ثم نشكّل صفائح صغيرة دونَ أن نؤذي فصوص البرتقال...

سيكونُ محرِجا أن أفشل تحتَ أنظار نسيبي، لذلك قبلَ أن أفصِل القشرة قلتُ لهم: "جرّبوها الآن!"، سأغافلهم الآن وأنزعُ القشرة حين يستغرقون في العمل "أفف نجوت!"، كانوا معجبين بطريقتي فعلا. في أماكنَ أخرى من هذا العالم لا مكانَ للتفاصيل الصّغيرة، لكنّ هذه القرية هيَ المكانُ الأنسبُ لتكونَ أخيرا مُبدعا في أمرٍ ما ولتكونَ بخيرٍ معظمَ الوقت.

- لدينا عرسٌ لحضوره، هل تودّ المجيء؟

- نعم عمّي، أودّ ذلك.

لم أكنْ أعرفُ شيئا عن الأعراس هنا، لم أحضرْ عرسَ ميلين، لأني في تلك الأثناء كنتُ مشغولا بعرسي الذي حضرَهُ معظمُ من أعرِفُهم. كنتُ أتمنّى رؤية أمر كهذا والآن جاءت الفرصة المناسبة.

تلكَ اللّيلة، حلمتُ أنّي وسطَ جمعٍ غفير وكانتِ الجوقةُ تعزف وكنتُ أهزّ رأسي مع الإيقاع المنتظم وبدأت أسمع "انهض... هيّا انهض... "، لم يكنْ ذلك صوتَ الإيقاع، بل كانت ميلين على الباب تطرق وتناديني لأنهض للصّلاة، كم هذا متعِب!

-دعيني أنام قليلا.

-هيّا أيّها الكسول!

-خمس دقائقَ فقط وسأنهض...

لمْ تزلْ بي حتّى رأتني أقوم من فراشي وجفناي بالكاد يقويان على الانفتاح.

-كم أنتِ شرّيرة!

كانَ الأمرُ روتينيّا والاختلاف طالَ التّفاصيل فحسب، ما يجعلُ الرّوتين يبدو أقلّ حدّة ويبعِدُ الملل وإلّا كيفَ لشخصٍ أن يعيش في المكانِ والأسلوب

والظّروف نفسها لسنواتٍ عديدة؟ فطور الصّباح هذه المرّة كانَ بنوعٍ مختلف من "الكسرة" التقليديّة، حتّى أنّنا أكلنا الفطور في غرفة مختلفة، خلقُ عدّة متغيّرات عشوائيّة تقترن فيما بينَها بالتناوب على امتداد فترة معيّنة، يمكّنك من الاستمرار مدّة طويلة غير مدركٍ لتكرار الأمور، فأكل كسرة اليوم ليس كأكل كسرة البارحة وأكل كسرة البارحة في غرفة اليوم ليس كأكلها في غرفة الأمس، يبدو أنّي لا أفكّر إلّا في الأكل!

لم أشعر بالتّعب بعدَ العُرس، كانَ من الجميلِ أن أحضُرَه، عُدنا مشيا على الأقدام فموقِعُهُ كان بالقرب من البيت.

-أظنّ أن ميلين أخبرتك عن القصّة.

القصّة؟ أيّ قصّة يقصد؟ نعم أتذكّر الآن أنّها قالتْ أمرا ما عن القصّة التي سيرويها أبوها، لكنّنا لم نكمِل حديثنا. أجبتُ بكلّ حيرة:

-نعم لكنّها لم تذكر أيّة تفاصيل.

-ستأتي معي مساء إلى "أخام تخبتين" وستفهم كلّ شيء.

-ما معنى هذا الاسم؟

– معناه دار الخابية يا بنيّ.

رائع! الأمر يغدو مشوّقا أكثر فأكثر. في المنزل، أعدّتْ لي خالتي "ماتيّا" الشّاي إنّه مختلف عن ذاك الذي اعتدتُ على شربِه، تركيزه منخفض جدّا ولا رغوة تعلو الكأس.

-أعلمُ أنّنا لا نجيد طبخ الشّاي يا بني، أعتذر.

لاحظتْ خالتي "ماتيّا" تثاقلي عن الارتشاف وطول المدّة بين الرّشفة والأخرى.

-لا بأس هو جيد بالنّسبة لي.

كانتْ كذبة بيضاء لكنّها مفضوحة...

-حدِّثني عن طريقتكم في تحضير الشّاي.

سؤالٌ جيّدٌ أخيرا! يمكنني استعراض معرفتي المتواضعة في الأمور التّقليدية، لعلّه الموضوع المشترك الوحيد بيني وبينَها!

-من عاداتنا ألّا نشربَ الشّاي إلّا إذا طُبِخَ أمامنا وسط "اللّمّة" وهي مجموعة من الحضور الذين يريدون ارتشاف الشّاي.

اعتدلتُ في جلستي ومددتُ أعلى جسمي إلى الأمام، محرّكا يديّ متجاوبة بتناسق مع الأفعال التي أبني عليها شرحي ومبتسما كعادتي حينَ أكلّم الآخرين بصفة غير رسميّة...

-قد يُطبخ على أيّ شيء، موقدٍ صغير أو جمر، يوضَع الماء والشّاي في الإبريق معا على أهدئ نارٍ ممكنة ولا يهمّ كمْ من الوقت يأخذ ذلك، حينَ تصعدُ الرّغوة ننقصُ من كمّيّة الماء الموجودة في الإبريق وندعُه يطبخ أكثر إلى أن نحصل على الدّرجة التي نريدها من تركيز الشّاي.

كانت تتابعُ توجيهاتي بحرصٍ شديد، لم تكنْ الطّريقة بحاجة إلى تدوين، لا أظنّها تجيد الكتابة أساسا.

- نُفضّل ارتشافَه بعدَ الأكل غالبا وما عدا ذلك نفضّل وجودَ بعض "الكوكاو" برفقته...

-شكرا يا بنيّ.

لطالما أحببتُ الأشخاص الذين يشكرون الآخرين على أيّ معروف ولو كانَ بسيطا، المرء السويّ يقدّر كلّ شيء بدءا بما يبدو تافها. كلمة الشّكر تجعل الآخر يشعر بامتنانك، بتقديرك وبأهمّيته، سيواصل تقديمَ ما كانَ يُقدّمه لك.

القاعدة تفوق كونَها ميزة متداولة عندَ العبادِ، يُقال -وبغضّ النّظر عن طريقة وكيفيّة الشّكر-أنّ (النّعمة إذا شُكرتْ قرّت وإذا جُحدَت فرّتْ) ... كيف نسيتُ أن أشكر اللهّ على إهدائي حبيبتي ميلين؟ سأحاول ألّا أنسَ ذلك بعد الآن. تحادثنا طويلا عن الأكلات التقليديّة، هذا النّوع من الحديث يجعلني أشعر بالجوع، لحسن الحظّ لم يبقَ الكثير على موعد العشاء... ماذا تعدّ لنا تلكَ الغبيّة يا ترى؟ قالتْ أنّها ستكونُ مفاجأة... أحب المفاجآت.

جلسنا جميعا إلى المائدة كأيّ عائلة سعيدة، وضعتْ طبّاختي الجميلة الماء وبعض الأطباق الطّينيّة، تحاول أن تزيد المشهدَ الذي أترقّبه تشويقا، كانَ القِدرُ آخرَ شيء تُحضِرُه وعبقُهُ العتيق يسبِقُه بأمتار، لن أستطيع معرفة مدى لذّته، أنا جائع وسيعجبني في كلّ الأحوال، ألذّ أكلة هي تلك التي تأكلها وأنت جائع.

-أقدّم لك فطير "أقسول"، على بركة اللهّ تفضّلوا.

-باركَ اللهّ فيك يا بنيّتي.

قرّبتُ اللّقمة إلى فمي، يبدو أنّها متشوّقة حتّى أكثرَ منّي، يذكّرني هذا بحال حامل الهديّة الذي يفوق شوقُه لرؤية ملاح المهداة إليهِ، شوقَ المهداة إليه لهديّته، كانتْ تختلِسُ النّظرات إليّ.

-لذيذ جدّا، لم تخيّبيني كعادتك، كانَ عليك طهو هذا منذ زمنْ!

لم يكنْ ثنائي عليها مجرّد مديح، بل كنتُ متلذّذا بطعم العجينة الغارقة في المَرَقْ وطعمِ الفلفل الأسود والثومِ ولحمِ الخروف الغضّ المتشبّع برائحة المراعي، تلذّذتُ بكلِّ قضمة واستنشقتُ كلّ نسمة من بخارِهِ المتبّل.

-الحمد لله، سنذهب الآن.

نهضنا من أماكننا، سبقني عمّي يغموراسن إلى الباب، بينما كانتْ ميلين تجمعُ الصّحون وتأخذها إلى المطبخ. قبلَ خروجي من الباب، طلبتُ منهُ انتظاري لحظة وتسلّلتُ سريعا إلى المطبخ، كانتْ قد بدأت في تنظيف الصّحون، همستُ في أذنها.

-شكرا لك، كان شهيّا حبيبتي.

انصرفتُ بسرعة، حينَ استدارتْ أدركتْني عندَ الباب، تصافحتْ نظراتنا الهائمة وانتهى مشهدٌ آخر من هذا الحلمِ الّذي أعيشه، كنتُ سعيدا، لكنّ رؤيتها بهذه الفرحة يجعلني أسعدَ بمراحل.

أحبّ المشيَ بعدَ العشاء، الطريقُ الذي نسلُكُه يزيدُ ارتفاعا، لا بدّ أنّ "بيت الخابية" يقع أعلى التلّة. بعدَ بضع خطوات بدا لنا البيت، إنّه شبيه

باسمِه، مصنوعٌ من الحجارة القديمة المتراصّة، بعضُه متهالك وبعضُه يصارع الهلاك، رأيتُ بيوتا بهذا الشّكل على شاشة التلفاز سابقا، لكنّ رؤيتَها في الواقع مختلفة، لعلّ الأمور لا تبدو حقيقيّة فعلا، إلى أن يتسنّى لمجمل حواسنا أن تلاقيها، من الواضح أنّ هنالك شعلة ناريّة بالداخل. مع اقترابنا بدأنا نسمعُ أصواتِ ضحكات آتيّة من الدّاخل، حينَها رحتُ أجمّع أشكال المشهدِ داخل البيت...

-السلام عليكم.

قامَ الشّباب إلى عمّي مقبّلين رأسه ومصافحين إيّاه.

-وعليكم السلام عمّي يغموراسن، كيف حالك؟

-بخير أبنائي، شكرا لكم، حفظكم الله...

كنتُ محرجا من هؤلاء الذين لا أعرفهم ولا أجيد لهجتهم.

-هذا نسيبي، هو ضيف عندي.

رحّبوا بي بحرارة... شيئا فشيئا بدأتُ أفهم ما يعنيه عمّي بالنّسبة لهذه البلدة وهؤلاء الشّباب، ليس مجرّد عجوز، ليس عجوزا على الإطلاق.

-هل تستمتعون بالوقت يا شباب؟

أجابَ أحد الشّباب الملتفّين حول الشّعلة النّارية:

-نعم، لا ينقصنا سواك، كنّا في انتظارك.

-دعونا إذا نستمتع سويّا.

تكلّم آخر من هناك:

-ماذا ستروي لنا اليوم يا عمّو؟

- آاه... اليوم مناسبة خاصّة وهي حضور زوج ابنتي، لذلك سأروي لكمْ قصّة بديعة من الخيال.

رحَّبوا بي من جديد بينما تعالتْ الهتافات من كلّ مكان:

-رائع...رائع...

-قصّة اليوم عنوانها "جواب بين نظرتين" وبطلها يُدعى "أڤمَد..." واصل عمي يغموراسن بعدَ أنْ هدأت الأصوات وأرْخَى الجميع سمعَه...

الفصلُ الأوّل

كانَ يا ما كان، بعيدا عن الأرض وعميقا في الأكوان، شخص يُدعى "أقمَد". عاش أقمَد في قرية "الدّفق البارد"، امتلكَ كلّ شيء يحلُم به سكّان القرية لكنّه باقترابه من الكمال العقلي، بدأ يشعُرُ بكلّ ما ينقُصه، أصبَحَ عميقا كالبحر وبليغا كالسّهم وعاقلًا كمسنٍّ مليءٍ بالتّجارب. بدأ كلّ شيء يومَ طرقتْ مسامعَه تلك العبارة: الوقتُ أكثر شيء لا نملكُه من بين كلّ الأمور التي نملكُها.

استمعَ أقمَد، إلى حكيم القرية وسط "اللّمّة"، جلسةٌ يجتمع فيها أهل القرية في أوقات محدّدة من السّنة، يحضرون فيها ما لذّ من المأكولات ويعزِفُ "سُمّان" خلالَها ألحانَهُ الآسرة النّافذة في أعماق الرّوح والتي تراقِصُ الكلماتِ التي يرويها حكيم القرية، إنّه قطعا الأفضل فيما يفعله. سُمّان مختلف عن بقيّة السكّان، لا يشبِهُ أيّا منهم، له شاربٌ غريب وبِنية رشيقة، عادة ما يخفي الحرقَ على ذراعِه لا لشيء سوى لأنّه لا يملِكُ ردّا على الفضوليّين الذينَ يسألونَه عن سبب الحرق ومتى حدث ذلك. زيادة على براعته في العزف، كانَ سريعا ويجيد التسلّق وهذه المهارة الأخيرة أمرٌ يبرعُ فيه الجميع هنا لكنْ ليسَ بسرعتِه ورشاقتِه نفسها، ربّما هذا هو سبب شعوره الدّائم بالغربة وسبب عزفِه الذي

ينفذُ إلى الرّوح، يبدو وكأنّ كلّ شيء يتراقَص حينَ ينفخُ في آلته، النّجوم وأوراق الشجر والعيون في محاجرها... كأنّه ينفثُ كلّ أحاسيسه فيما يخرِجُ الهواء من رئتيه، يبثّها في النسيم وينتشيها كلّ من في الجوار... مادام يتنفّس. لسمّان صديق وحيد وهو آلته، هي عائلتهُ وأقربُ شيء إلى قلبِه، بإمكانِه أن يطلب أيّ شيء مقابل ثوانٍ من العزف، لكنّ أدبَه كان شبيها بأدبِ الملوك وعزّةُ نفسه كتلك التي يملكُها المحاربون. عاش على الصّيد والتّجارة، حتّى أنّه صارَ أغنى تاجرٍ هنا. نقطة ضُعفِه الوحيدة هي أن يَطلبَ منهُ أحدُهم العزفَ له، العزفُ طريقتُه الوحيدة في التعبير عمّا يخالجُه، الكلّ يحتاجُ إلى شخصٍ يستمِعُ إليه.

كانَ أقمَد مغرمًا بأفخاذ الفئران المدهونة بالسّمن الأحمر الشهيّ والمثير لغرائز الأكل.

-لماذا لا تأكل؟

فاجأه صوتُ أبيه، لكنّه سرعان ما تدارك نفسه وأخفى شروده وألقى طرَف الحبل الذي يؤدّي إلى الأمر الذي يشغل دواخله:

- نحن لا نملك أنفسنا، صحيح؟

كان جليّا من نبرتِه، أنّ السؤالَ أكبرُ من مجرّد خاطر يعبُر صدرَ مراهق وأنّه تمهيدٌ لسؤال جدير بأنْ يحرِمَ شخصا من لذّة طعامه المفضّل.

-يعتمد الأمر على تعريف النّفس! هل هي مزيج من مشاعرنا، أم هي الأرواح التي تسكننا أم شيء آخر...

كانَ ردّ أبيه أشبه بألغاز أو متاهة تزيد حبكتها كلّما تعمّق فيها، ذلك لم يعطِه الفرصة للولوج إلى الأسئلة الأهمّ التي تشغله، أدركَ أنّ التفكير في كلّ شيء سيفقده جوهر السؤال وهو الوصول إلى الجواب، من الأفضل للمرء أن يفهم جوابا خلال عشرة أيام، بدلا من أن يسمع عشرة أجوبة لا يفهمها في يوم واحد. التقمَ فخذا مكتنزا وشاهد قطرات الدّهن تنساب، كلّ شيء يدعوه لطرح مزيد من الأسئلة، حتّى قطرات الدّهن بدت مغرية في تلك اللحظة، لو تأمّلها للحظة إضافية لوجدَ سؤالا ما بطريقة ما... تمالكَ نفسَه وتذكّر سبب تناوله اللّقمة، كانت مجرّد إلهاء عن الأسئلة الغزيرة التي تتوارد من لا مكان ومن لا شيء، يحتاج التّركيزُ أحيانا إلى بعض التشويش ليعود.

تلمّظ ثمّ غرسَ ناظريه في بؤبؤ أبيه وقال:

-كيفَ يُمكنُ لشخص ما أن يمنَحَ نفسه لشخصٍ آخر؟

بدا الأب محتارا، لم يكنِ السّبب اندهاشه من طريقة تفكير ابنه فحسب، بل كانَ قلِقا من عواقبها، تمنّى أن يتوقّف الأمر عندَ جوابه القادم، يجبُ أن يكونَ مقنعا أو ربّما مُعجزا!

-يجبُ أن تعرفَ نفسَك أوّلا!

هناكَ عندَ أبيه، لا شيء سوى مزيدٍ من الألغاز فحسب، يوجد الكثير من الأسئلة ولا جواب.

عادَ إلى البيت، استلقى محاولا الاسترخاء، مضجعُه أضيقُ من أن يتشاركه مع النّوم والسّقف أعتمُ من أنْ تضيئَه النّجوم والخيال أضيق من أن يعُدّ الخراف ريثما يزوره النّعاس.

"نار الخطيئة تأكلني وداخلها وجدت معبود الشهوات، أكلت منها ولم أستطع الرّفض وطلب منّي روحي ثمنا للمزيد، هربتُ إلى بحر الظلام وغصتُ لأجد نفسي من جديد..."

قرأ أقمَد سطورا من التعاويذ المقدّسة التي يحتفظ بها في درج بعيد في صدره ويردّدها كلّ يوم، إنّه الكتاب المقدّس لدى القبيلة وتراثها... طلاسم

تافهة، لكنّها مصفوفة بترتيب يبثّ الغموض. ذلك لم يساعده كثيرا فقد زاد من حدّة تساؤلاته:كيف أعرف نفسي؟

كانت أطول ليلةٍ يعيشها أقْمَد، ليلة أخرى مثلها وسيفقد عقلَه، لكنّها لم تذهب سُدى فقدْ قرّر أثناء عرَسَاتِها الالتجاء إلى حكيم القومِ لعلّه يشفي غليله بالجوابِ الشافي.

-هنا ستجدُ كثيرا من الأسئلة ولا جواب!

قبل أن يتجاوز العتبة خاطبه الحكيم مُطرقا رأسه متلذّذا بكلمات الصّمت العذبة. ردّ أقْمَد مخفيا دهشته:

-لا بأس بالأسئلة أيضا.

تقدّم بخطواتٍ وَجِلة وجلسَ في أدبٍ بالغ، بينَما لم يتحرّك حكيم القرية ولمْ يُبدِ أيّ ردّة فعل.

-لكن قبل ذلك، يجب أن تدفع مقابل أسئلتك.

اعتدل أقْمَد وسأل في حماس:

-وما هو ثمن الأسئلة؟

أشار الحكيم إلى جحر متهالك، سدّ مدخَله الغبار المتراكم، يبدو أنّه أوّل من يزوره منذ سنوات! تحسّسه أقمَد في حذر كأنه عذراء يكادُ يفسدُ عفّتها بيديه المتلهّفتين.

-خذ سؤالا واترك جوابا للشّخص الذي بعدك ثمّ انصرِف!

-كيفَ تعلمُ أنّي سأجد السؤال المناسبَ لأضعه؟

-أنتَ لا تجدُ السؤال بل إنّه من سيجدك!

كان أقمَد ذكيّا بحيث فهمَ أنّ عليه أن يفعل ما يُؤمر ويلزم الصّمتَ، وضعَ سؤالا في الجُحر: هل نحن حقّا نحنُ؟ أمْ أنّنا من أخبرَنَا الآخرونَ أنّنا عليه؟

على بُعد خطوات من عتبة الحكيم وضعَ الصّدفة على مسمعِهِ واستمع للسّؤال في لهفة وحماس: هل الواحد منّا يتغيّر؟

شعر بالوهنِ يدبّ في أطرافه... بعدَ كلّ هذا، كلّ ما حصل عليه هو لغزٌ جديد كانَت تلكَ لحظة اتّخاذه أهمّ قرار في حياته، سيسافر للبحث عن جواب. ألقى نظرة على أهله لتوديعهم، ثم ألقى نظرة على نفسه في ماء البحيرة الهادئة وسألها:

_ هل الواحد منّا يتغيّر؟

لمْ يُدرك حينَها أنّ البحيرة حملتْ سؤاله وأنّ كلماته وحروفه انحلّت في أجزائها. كانتْ بدورِها سخيّة حينَ ألقتْ عليه تعويذة المياه الّتي تأخذ شكلَ الوعاء الّذي يحتويها، إنّها البحيرة السّحريّة، هُنا تُخلقُ الأسئلة وإلى هنا تعود. سألها أقمَد ثم انطلق في رحلته التي قلبت حياته رأسا على عقب وجعلته يدفعُ الكثير مقابل مجرّد جواب!

....

في قرية "الشّارب المقدّس"، كانت الكلماتُ أثقلَ منْ أنْ تتردّد على الألسنة، لم يكن يحقّ لأيّ كان التكلّم إلّا بإذنٍ ملكيّ وقدْ يُعطى أحدُهمْ الحقَّ في قول بضع كلمات إن كان محظوظا، لذلك لم يعدْ للكلام معنى ونسي أهلها لغة الحديث. بدلا من ذلك كان الواحد منهم يضع كفّه على الآخر فيتمكّن من سماع صوتِ خاطره وإسماعه ما يشاء، هكذا كان السّكّان يتحدّثونَ إلى بعضِهم. جلسَ سمّاش مكتئبا ككلّ يوم... يجلس بينما تصيبه سهامُ الثّواني وتُفنيه رويدا، هو هكذا منذ مدّة طويلة، منذ سرقَ "مغتوب" شعرةً من

شاربه، السّرقة في القرية أمر مشروع ومستحبّ، تساوي الشعرة المسروقة الواحدة مبالغ طائلة.

الشّارب في هذه القرية أهمّ من السلاح بالنسبة للجنديّ، امتلاك شاربٍ كامل مدعاة للفخر والاحترام ودلالة على الجاه، نادرون هم من يملكونه، أغلب الذكور هنا يحرقونه مبكّرا كي لا يكون وزرا عليهم، أمّا أولئك الذين يتركونه ينمو، فعليْهم حراسته والاعتناء به والاستعداد للمتربّصين بهم في كلّ حين، من يفقد شعرة منه يصبحُ منبوذا، لا يحقّ له التعامل ولا الحديث مع بقية المستوطنين.

مغتوب شخص بنى ثراءَه على كبواتِ غيره كبقيّة الأثرياء هنا، حتّى أنّ البعض يزعم أنّه يملك خمس شعرات مسروقة!

هو مقرّب من الملك وقلعتُه منيعة، يخرج أحيانا في موكب من الحرّاس ويستحيل الوصول إليه. على سمّاش تقبّل الواقع، لقد انتهى الأمر، لا يمكن لأحد مساعدته لأن المساعدة مصطلح دخيل في مكان كهذا.

بينما هو كذلك أقبل إليه أحدهم:

-هل يمكنني أن أسألك؟

سمع سمّاش كلاما، لكنّ شفقته على نفسه وتقبّله لمصيره المحتوم خيّل إليه أنّه يتوهّم.

-أحتاج مساعدتك من فضلك!

من الوقاحة أن تُطلبَ من شخصٍ يغرقُ جرعةٌ من الماء، تلك الوقاحة الفادحة أيقظت سمّاش من غيبوبته وعلى عجل وضعَ كفّه على فم هذا الغبيّ الذي يتكلّم بدون إذن، فسمع الغريبُ داخلَه صوتا يقول:

-أنت! أ جننت؟!

....

في قرية أخرى من الأكوان العميقة، كانَ هنالك من يضاهي "أقمَد" في فكره وتفكيره وتأمله.

"أين تذهب الكلمات التي لا نفهمها؟ لا يعقل أنّها تموت في صدورنا، لعلّها تغادر إلى أشخاص يقدّرونها أكثر منّا، لا نحتاج دائما لفهم لغتها لكنّنا نحتاج إلى فهم المشاعر التي تحملها. قوّة الكلمة في كونها شعورا يسكن الحروف أو الأفعال أو النظرات، لذلك قد يبكيك صوتٌ شجيّ يتفوّه بكلمات غريبة عنك."

فكّر "زور" متأمّلا حالة كهفه المزرية، لا يملِك من يساعده على صقل الجدران المليئة بالثقوب، رغمَ ذلك كانَ ينظر إليها بتفاؤل مُقنِعا نفسَه أنّ جدران كهفه غير المصقولة بمثابة تميّز عن الآخرين، لطالما شعرَ أنّه مختلف، هنالك شيء يميّزه لا يدري ما هو.

كان زور على عكس أبناء مجتمعه رقيقا، مفكّرا وقويّ الإحساس، لكنّه لم يكنْ قادرا على الكلام، يعيش الجميع في جماعات حيث أنّ الجماعة التي بها أكثر عدد من الأفراد تتوّج حاكمة ويظلّ الأمر كذلك إلى أن تزيحها أخرى أكبر منها.

عاش زور وسط هذا المجتمع البدائي، كان أفصح من أيّ منهم، أعمق وأنضج. في بلدٍ تعتبر فيه الكلمةُ بقوّة العملة النّقدية، يُصنّف البكمُ على أنّه لعنة وأسوء مصيبة قد تحلّ بأحد ساكنيها. كثيرا ما كانَ زور يلعنُ حظّه ثمّ يتمالك نفسه ويحاول النّظر إلى الجانب المشرق ويخدّر يأسه كالعادة:

" ستأتي الفرصة المناسبة يوما ما."

من الصعب مواجهة الوحدة الناتجة عن تكرار الأمور نفسها، فهي تتحول إلى سلبيّة تجعل المرءَ يدقّق في عيوبه ويستنقص ما ينقصه وتمنحه وقتا

كافيا لتذكّر ماضٍ يفتَرض أنّه منسيّ، لذلك كان زور يخلق لنفسه مشاريعَ صغيرة على المدى القصير، كانتظاره وجبة غذاء أو لقاء ما مثلا، هذا يجعله مترقّبا باستمرار، فالرّتابة هي عدم انتظار أيّ شيء ولو قمنا بتأمّل بنيان حياتنا، لوجدْنا لبِنًا متناثرا في كلّ مكان، كافيا لملأ المواضع الشاغرة.

"الكائنات لا تحتمل الفراغ، فكلّ شيء لا يملأ بما نريد، ستستوطنه أمور لا نريدها."

ردّد ذلك بضع مرّات، ثمّ قرّر الخروج إلى المجموعة ليجد شيئا ما يفرغ به الفراغَ الذي يملؤُه.

....

في "قرية المثقاب"، كانَ أحدهم يعاني ارتجاعا للماضي، بعضُ الأمور لا تُنسى فحسب ولا يداويها تداوُل الأيّام، فمرور الزّمن مثلا لن ينبتَ الإصبعَ الذي بُتِرَ خطأ قبل سنوات! نحنُ نُحاول التكيّف وذلك يعتَمِدُ على مدى تقبّلنا لوضعنا الرّاهن وفقداننا الأمل في استرجاع الوضع السّابق.

-أمّي!

-نعم يا بنيّ!

-هل تظنّين حقّا أن جدّي استطاع مغادرة الأرض؟

-جدّك لا يكذب يا بنيّ!

-إلى أين وصل؟

-إلى أرض جديدة سكانها من العمالقة.

-عمالقة؟ وماذا حدث بعدها؟

-تعرّض لحادث مؤسف، بعدَ أن استهدفه أحدهم وعاد في حالة مزريّة لم يلبث بعدها طويلا.

كثيرا ما يتذكّر "توشوشت" هذا الحوار وصورة جدّه المحتضر، الجميع في البلدة يهزأ منه ومن عائلته، يلقبونهم بالمجانين.

"النّفوس لا تتقبّل الأمور الجديدة التي تحتمل البطلان والفشل إلى أن تثبت نجاحها، المجدُ لا يعرف طريقَه إلى أولئك الذين لا يأخذون بزمام المبادرة."

هكذا كان يقنع توشوشت نفسه بأنّ عليه ردّ الاعتبار لجدّه وعائلته وتخليد اسمه انتصارا لهم ولكل الأسماء المظلومة التي اختفت بين سطور

التّاريخ، قد لا يعيد ذلك ذِكرَهم لكنْ من الممكن أن يشعرهم بالسّعادة أينما كانوا.

حاول توشوشت التحليق عدّة مرّات، لكنّه لا يملك العدّة المناسبة، يحتاج إلى السرّ الذي دُفنَ مع جدّه، اليأس شعورٌ لا بدّ منه لكنّه ظرفيّ، يمكن تجاوزه بالتّأجيل والتأنّي، ليس علينا إتمام كلّ شيء خلال يومٍ أو يومين، فلنعطِ أنفسنا مهلةً مفتوحة ولنرَ ما سيحدث.

كان توشوشت يتمدّد على أرض غرفة جدّه الغبراء، يسترجع بعض الحنين ويستلهم الأمل، يبكي أحيانا فالدّموع دليل قلبٍ حيّ، كما هو الغُبار قرينٌ للنسيان. فكّر أنّه عليه فعل شيء ما من أجل جدّه، هو لا يريده أن يُنسى، لذلك سيزيل الغبار وينظّف غرفَته كما لو أنّه موجود بينهم. استغرقَ الأمرُ منه اليومَ كاملا وبقي القليل فقط لتنظيفه، غلبَه النّعاس قبل ذلك ونامَ طويلا...

استيقظ صباحا بابتسامة عفويّة، هو لا يدري لماذا يبتسم، لكنّه لم يشأ تركها تزول بهذه السّهولة، يحتاج المرء للابتسام قدر المستطاع قبلَ أن تحلّ الأيام التي يحاول فيها الابتسام ويعجز عن ذلك.

يُقال أنّ الأشياء التي نفعلها من أجلنا تندثر سريعا معنا، بينما تعيش الأشياء التي نفعلها من أجل غيرنا بقدر بقائهم بعدنا، هذا يعلّمنا أن نعيش لغيرنا، لكن ماذا عنّا؟ ماذا لو ابتسمنا أو غنّينا أنشودة من أجل شخص ميّت، هل تفنى ابتسامتنا وأنشودتنا هباء؟

كانت الأفكار تتوارد في عقله المشغول المحجوز سلفا بأفكار وُلدت قبله، أفكار ليست له لكنّها تنتمي إليه، أفكارُ جدّه الذي قضى نحبه من أجل إثبات شيء ما كلاهما يريد إثبات الأمر عينه، لكنْ بأهداف مختلفة، يريد توشوشت إصلاح ما أفسده جدّه بفعل مماثل... يُقال أنّ الغباء هو إعادة الفعل نفسه في ظروف مماثلة وانتظار نتيجة مختلفة.

فليكن! لم يُخلق الجميع ليكونوا أذكياء.

كان يصارع أفكاره ضدّ نفسه، ربّما لمجرّد التلذّذ بالمتاهات الفكريّة التي يولّدها تجاذب الأفكار بعشوائية. أمسك صحيفة من الصندوق المرميّ في الزّاوية، اتّسع بؤبؤ عينيه وصرخ:

-لا أصدّق!

...

داخلَ القصرِ الملكيّ، كان الملِكُ "حمّان" قدْ فقدَ روحَه في آخر معركة خاضها ضدّ الأعداء وتوالت المصائب بفقدانه ابنَه الوريث الشرعيّ الوحيد للعرش، من يومها أصبح أجوفا وصار الوزير يطمع في خلافته.

روح الملك هائمة ضائعة بعيدا عن جسدِه، لمْ يعُدْ يكترثُ لأمور المملكة، هو الآن كغصن نخرَ جوفه الزّمن، سهلُ الانكسار، سريعُ الاشتعال، يعتقد من يَراهُ أنّه حيّ، فقط لأنّه يطفو... رغمَ ذلك، قد يجرِفه التيّار يوما إلى تربةٍ خصبة تحتضنُ جذوره الجافّة وتنفخ فيها حياةً، ليُورق من جديد.

بينما يتخبّط الملك في شروده، كان الوزير في طغيانٍ متزايد وغلوّ فاحش، لا أحدَ سلِمَ من جبروتِه، سلبَ الأطفال من عائلاتهم وجنّدهم منذ طفولتهم في الجيوش وجعل الجنود يدخلون البيوت عنوة ليسلبوا ما طاب لهمْ.

الملك:اجلس بجانبي!

جلسَ الوزيرُ بجانب الملك مستغربا، ليسَ من عادة الملوك طلب أمور يختصّ بها الأصدقاء والمقرّبون. أمره حينها:

-كُلْ!

كانتْ أوامِرُه جامدة وفارغة من الإيحاءات، في هذه الأثناء تسرّبَ الشكُّ إلى دواخل الوزير... كيفَ للملِكِ أن يطلب منهُ أكلَ طبقِه؟ ما السبب؟ لعلّه بدأ يشكّ فيه وفي وفائه، في أنّ الطّبَقَ قدْ تمّ تسميمه ربّما... أسئلة كثيرة جابت ذهنَهُ ولم يكنْ بيدهِ سوى الانتظار في وجلٍ وترقّب، قد يكونُ عليهِ الإسراع في تنفيذ مخطّطاته والانقلاب عليه قبلَ أن يعزلَه أو يطرأ أمرٌ ليس في الحُسبان.

-هل ثمتَ ما يقلقُ سيّدي؟

-القلق؟

ضحك ضحكة جوفاء تعكس مدى تهكّمه من حاله.

-القلق في هذه الأثناء يبدو خيارا مغريا!

-وما الذي يشغل بالَ سيدي؟

-أريدُكَ أن تستمتع بالأكلِ فحسب!

طلبُ الملكِ كانَ سهلا وتافِها... هذا ما ظنّهُ الوزير، بدأ الأكلَ محاولا التلذّذ بالطّعام الملكيّ، لكنّ العين التي تراقبه والشكَّ الذي يتآكله حرماه من

الشعور باللذّة الكاملة للأكل. راقَبَه الملك متفرّسا وجهَه، حركةَ عينيه، أنفاسَه...

-يكفي، يمكنك الانصراف!

قالها الملك وعلى وجهه خيبة "ألم"، كان ينتظر شيئا ما...

التوقّعات الكبيرة تخلق خيباتٍ أعظم.

ما أرادَه الملكُ أمرٌ أعمق من أن يسبِرَهُ وزيرُه، سيفكّر اللّيلة كثيرا، أكثرَ قليلا من المعتاد.

-ماالحلّ؟

....

لم يعتدْ سمّاش زيارة الغرباء للبلاد، لذلك كانَ حديث الغريب الوافد من بعيد أمرا غير محتمل الحدوثِ بالنّسبة إليه، كانَ لا يزال يضع يدَهُ على فمِ الغريب ريثما يستوعبُ ما يحدثُ، لبِثَ بضع ثوانٍ على هذا الحال.

لم يكن الغريب في حالٍ مختلف عن حاله، حاولَ فهمَ ما يحدث، من أينَ أتى هذا الصّوتُ الذي سمِعه داخلَه؟ ربّما توهّم ذلك فحسب.

-من أينَ أتيت؟ ما الذي تفعلُهُ هنا؟

من جديد سمِع الصّوتَ داخلَه، لم يعُد ثمتَ مجال للشّكّ، الأمر يحدُثُ فعلا الصوت حقيقي!

- لا تتحدّثَ لا تقل شيئا!

سمِعها الغريب قبل أن ينوي الحديث حتّى، ثمّ سمع الصوتَ من جديد يطلبُ منهُ أن يضعَ يدَهُ على جسدِه ويخُاطِرَهُ بما يريد. قالَ الغريبُ دونَ أن يُصدِرَ صوتا من فمِه ولا محرّكا لسانَه:

-إنّه أنت إذا!

-أجل! يبدو أنّك حقا لا تعرف شيئا عن المكان.

-وما الذي يجبُ عليّ معرفتُه؟

-إذا تكلّمتَ هنا دون إذنٍ، ستُقتل!

-إذنٌ ممّن؟

سمّاش: تعال معي إلى البيت!

من السّهل أحيانا تصديق الأشخاص الذين لا نعرفهم، لأنّه لم يسبق لهم أن كذبوا علينا، هذا ما جعل الغريب يثق في سمّاش، إضافة إلى أنّه توسّم

من موقِفه الصّدق والطّيبة، خياراتُه محدودة في هذه اللّحظة، هو يسير بلا خطّة حتّى، سيكون من الحكمة الذّهاب معهُ، الأوضاع هنا لا تبشّر بخير.

سارَا معا وهو يذكّر نفسَه في كلّ لحظة بضرورة ألّا يتكلّم، كانَ المنزل بلا أبواب لذلك قفزَ سمّاش فوق السّور القصير، بينَما تسلّقه الغريب رويدا... نظرَ كلّ منهما إلى الآخر معجَبا بأسلوبه، بُنيتاهما الجسديتان متمايزة بوضوح.

"المعتاد هو المختلِف الذي نراه باستمرار، التوقّف عن فعل الأمور ذاتها قد يضخّ فيها بعض الاختلاف... بعض الحياة!"

حدّث سمّاش نفسَهُ بذلك، ثمّ وضع راحة يده على الغريب وخاطَرَه:

-يمكنكَ المبيتُ هنا والرّحيل صباحا!

....

لم يصدِّق توشوشت ما رآه في الصندوق المنسيّ، كانتْ صحفا مكتوبة بخطّ رديء مكتوبٌ عليها اسم جدّه، لم يكنْ مدركا لَمَا كُتب فيها، لكنّها كانت تعبق برائحة الحنين، بدا الغبار جميلا عليها، بدا وكأنه جزءٌ منها يحافظ على طبعها العتيق. بعدَ الثواني التي جمّدت فيها المفاجأة فِكرَه، أخذ وقتَهُ في تأمّل هذا المنظر النّادر، ينتشي لحظاته بحرص، مدّ يديه إلى الصحف بتأنٍّ... طهّر

روحهُ وفكره من شوائب الأفكار استعدادا لملامسة هذا الكتاب المقدّس، قرأ كلماتِه الأولى:

أنتَ تقرأ الآن الصّفحة الأولى ومن المفارقة أنّها آخر صفحة كتبتُها. وضعتُ في هذه السّطور أمورا غير الكلمات! وضعتُ أبحاثي لسنينَ عديدة، وضعتُ إيماني بما أصبو إليه، وضعتُ تجربتي وخلاصة أبحاثي.

كانَ قدَرَك أن تجدَ كلماتي، لكنَّ مواصلة القراءة إلى غاية هذا السطر كان اختيارك، لعلّ رسالتي وجدتْ أخيرا الشّخص المناسب لحملِها، الرّسل لا يجدون رسائلهم، بل الرسالة من تبحثُ عن أصحابها وتتجلّى أمامهم في الوقتِ الأنسب. لقدْ وجدتَ صحفي، ما يعني أنّي الآن في عداد الموتى، وحدَك تستطيع غرس هذه البذرة التي بقيتْ منّي وإحياءها من جديد!

قرأ توشوشت كلماتِ جدّه بخشوع، أحسَّ أنّه أمامَهُ يخاطِبهُ، كادَ يُقسِمُ أنّه سمِعَ صوتَه، انهمرت الدّموع من عيونِه كالسّيل وجرفتْ كلّ الرّكودَ الذي كانَ يعيشه، لديِه أمرٌ يعيش من أجلهِ الآن، حياته لم تعدْ تافهة بعدَ اليوم، لأن لديِه هدفا.

وضعَ الصُّحفَ جانبا رغمَ شوقِه لقراءتِها، نزلَ إلى الرّدهة لإخبارِ أمّهِ بقرارهِ المفاجئ:

-أمي سأنتقل للعيش في العليّة، في غرفة جدي.

-المكانُ في فوضى يا بنيّ!

شعرتْ الأمّ بالقلق وهي ترى في عينيه بريق الأمل الذي كانَ في عيني جدّه قبله تريدُ أن تتجاهل ما يحدث وأن تكذّب ما تعلمُ أنّه حقّ، لكنّ الأكيد أنّها لا تستطيع ثنيه عن إرادتِه، لقد اختبرتْ ذلك سابقا...

-أرجوك أمّي، سأنظِّم الغرفة وأعتني بها.

-حسنا لا بأس، لكن عدني أنّك لن تخفي عنّي شيئا.

-أعدك أمي...

أحيانا نقول كلماتٍ خفيفة لأنّنا نستهين بالحِمل الثقيل الذي تُصبِحُ عليه بمرور الوقت، لكنّنا قد لا نكون على قدرها...

....

في قرية اللّيل، لم تكنْ الأمور على ما يرامُ، هنالك كابوس يؤرق نومَ الجميعِ مستقبل السّكّان مجهول، يختفي العشرات كلّ سنة ولولا طبيعة إناثها الخصبة لانقرضت عن آخرها.

الحياةُ هنا بسيطة، يمرّ اليومُ دونما حركة تقريبا. مع تواري النّجم "أرتشنار" خلفَ الجبال، ترجع الحياةُ لتدبّ في الأرجاء، يجري الصّغار بين الحقول، ضحكاتهم تتعالى آذنة للسّعادة أن تورقَ وتتفتّح، سكان هذه القرية فهموا أن اللّحظة تستحقّ أن نعيشها قدر المستطاع، الخطر المحدق أعطى هنيهاتِ الأمن قدسيّتها، السّعادة حالة نفسيّة غالبا وليست دائما نتيجة لحصول الأمور كما نريدها. يقضي الكبار وقتهم في الزّراعة، تشتهر المنطقة بإنتاج زبدة الفول السّوداني ومقايضتها لتوفير ما تحتاجه من حاجيات مختلفة.

مع تجلّي كوكبة "أكمار" في السّماء يأذَنُ الخريفُ بقربِ حلوله، تُحصدُ كل المحاصيل وتخزّن في أماكنَ خاصّة داخل البيوت تحتَ الأرض، على المؤونة أن تكونَ كافية إلى غاية بداية حزيران، حينها سيخرج الجميع من تحتِ الأرض من جديد، الأراضي الذهبيّة تشتاق إليهم والحقول تضجّ بالسّكون... لا وقتَ للتّراخي، تبدأ زراعة الفول السّودانيّ في الحال، يحتاج المحصول إلى أقل من

ثلاثة شهور بقليل لكي ينضج. مع نهاية آب يخزّن منه ما يُخزّن ويحوَّل بعضه إلى زبدة ليُقايَض بفواكه جافّة وخضار عفنة مع قرى أخرى، التجّار وحدهم من يبقونَ بالخارج، في هذه القرية التّجارة ليست مهنة، بل هي أقرب للشّهادة، التّجارة شجاعة وشرف وتضحية... إنّه حزيران سيظهر صاحب المزمار من جديد في أي لحظة...

عمّي يغموراسن

- تكادُ تخبو الشعلة، سنكمل القصّة غدا.

صاح الجميع: لا... لا...

نهض عمّي "يغموراسن"، انتهتْ سهرة اليوم، لو كنّا في أيّ مكان آخر على المعمورة لأصررنا ليواصل، لكنْ لا يجوز الخروج عن العُرف، انطفاء الشعلة يعني نهاية اليوم.

كانَ الجوّ لطيفا، مشيتُ بجانبه، لمْ أعد بحاجة إلى البحثِ عن مواضيع تملؤ الفراغ الذي يندسُّ بين وقع الخطوات، تعلّمتُ منهُ أن أستمتع بعظمة السّكون، أن أستمعَ إلى همسِ الصّمت وهو سيخبرني بما يناسبه من كلام.

-لديّ سؤال...

-نعم يا بنيّ.

-ما قصّة الشعلة والسّهرة؟

نظرَ إليّ وقال:

- نحتاج إلى شعلةً جديدة لكي أقصّ عليك قصّتها.

شعلة جديدة تعني سهرة أخرى، يعني أنّ القصّة ستطول، استمتعَ برؤية ملامِحِ الخيبة تُنقَشُ على وجهي، ثمّ ضحك وقال:

-نحتاج إلى شعلة صغيرة جدًا.

-ما مدى صغرها؟

-حوالي غصنين صغيرين.

ضحكتُ بدوري، لمْ أكنْ أدري أنّه يمتلك هذه الطّاقة الشّبابية داخله، لا يزال يَستطيع إلقاء الدّعابات والاستمتاع بها في هذا السنّ... ما أجمل صوتَ الأوراق اليابسة وهي تندحر تحتَ أقدامنا، تواسيها الأوراق على الأغصان بحفيفها الصيفيّ، أجواءٌ خارقة تسحرُ كلّ الأحياء، حتّى الجندبُ المزعجُ لم يتمالك نفسه وأقام الدّنيا بنشاز عزفه، هو يشبهني حينَ أغنّي بصوتي الخشنْ لميلين رغمَ علمي برداءة صوتي.

كانتْ خالتي "ماتيّا" وابنتُها في انتظار عودتِنا، لم أنسَ إحضارَ غصنينِ صغيرينِ. جلسنا كلّنا في الغرفة، أخرجتُ الغصنين وسألتهُ:

-هل سيكونان كافيينِ؟

-قد تستغرق القصّة غصنينِ إلّا ربع إن أسرعتُ قليلا.

غلبتْ علينا الضّحكات العفوية، لطالما ظننتُ أنّه لمعرفة الإنسان الطيّب، يجبُ عليكَ رؤيته يضحكُ، لا يمكنُ للسيئين تصنّع ضحكات بهذا الإتقان وإنِ استطاعوا ذلك، سيستحقّون منّا تصديقهم بجدارة.

-يقولُ أجدادنا، أنّه في قديمِ الزّمان كانَ الأسلاف يعيشون في كهوف ويحكمون إغلاق منافذها في اللّيل، لأنّ الغيلان كانت تنتشر في ذلك الوقت. لم تخشَ الغيلان من أيّ شيء غير النّور، كانتْ شرّيرة لذلك لم يناسبها سوى العيش في الظلام فكانَ الأسلاف إذا لوّح اللّيل، جمعوا ما أمكن من الحطبِ ومع أوّل غروبٍ للشّمس يشعلونَه. كانت الغيلان تخشى الاقتراب إلى غاية انطفاء الشّعلة، حينها يكونُون قد رجعوا إلى كهوفهم وأوصدوا مداخلها جيدا. مع الوقتِ لم تعدْ تجدُ الغيلان آدميين لأكلهم فانقرضتْ جوعا ومن يومِها صارتْ عادة لدينا انتهاء السّهرة بانطفاء الشّعلة.

رغمَ ثقتي بأن القصّة مجرّد خرافة، إلّا أنّ أسلوب عمي "يغموراسن" يجعلك تعيشها، بإمكانه إقناعك بأيّ شيء خلال الدّقائق التي تصمتُ خلالَها وتستمِع إليه، هل هيَ قوّة الكلامِ أم جبروت الصّمت؟ وقتُ النّوم الآن.

– تصبحونَ على خير.

كنتُ أتقلّب في مضجعي، لمْ أستطِع النّوم، كنتُ أتأمّل حوضَ الأسماك المضيء الموضوعَ للزّينة، لعلّه الأمر الوحيد غير التقليديّ في هذه الغرفة، حتّى أنّه ليس لدينا تلفاز، لقدْ انقطعتُ عن أخبار المحيط، كلّ ما يرِدُني هو بعض الأخبار من الأنترنيت عن العائلة والموجات السياسية الكبرى التي يتناقلُها روّاد المواقع الاجتماعية.

-تتقلّب كالسّمكة فوق المقلاة، هل جفاك النّوم حبيبي؟

-نعمْ... سمكةٌ بدينة وترتدي نظّارات.

-أحبّ هذا النوعَ من السّمك.

ضحكنا بأصوات خافتة كتلاميذ يتهامسون في حصّة الاختبار.

-اشتقتُ إلى السّمك! ما رأيك في أن تشوي لي تلك السّمكة الصفراء ذات الخطوط السوداء لآكُلها.

-ليست للأكل بل للزّينة.

-ما فائدة السمك إن لم يَكُن للأكل؟

-إذا شويتَها ستشوينا أمّي.

تحدّثنا وضحكْنا كثيرا ليلَتها، صوتُها أشعرني بالنّعاس أخيرا، كنتُ بحاجة إلى بعض الضّجيج لأنام، سيزعِجُها بالتّأكيد أن أصفَ صوتها الحنونَ بالضّجيج. لابأس! فالأشياء التي لا نعلَمها لا تزعجُنا ما دامت كذلك، تحدّثْنا طويلا ولما أغمضنا أعيننا جاء الفجر.

حياتي هذه الأيّام أشبه بعيشي شهر عسل ثانٍ، كنتُ أتمنّى أن أحتفل بعرسي من جديد هنا، أردتُ عيشَ كلّ تلك الأمور التي رأيتُها وأنْ نكون "أنا" و"هي" المعنيّين بالأمر. تجُول في خلدي كلّ تلك الذّكريات التي عشتُها في العرس، غير أنّي استبدلتُ وجهَيْ العريسين بوجهَيْنا. كانتْ العروسُ ترتدي "أكرزي" الفستان القبائليّ الذي يضاهي الفستان الأبيض للعرس في بقيّة البقاع، قالت خالتي "ماتيّا" أنّه من إبداع الخياطة "نجيّة" التي تمارس هذه المهنة منذ ثلاثين سنة، أوّل فستان خاطتْهُ أكبَرُ منّي حتّى!

تتفنّن في اختيار الموديلات والألوان حسبَ المنطقة والحاجة، فلكلّ قرية طابع خاصّ بها كما أنّ لكلّ مكانٍ ثوبا خاصّا به، فهنالك ما يصلح للبيت وكذلك ما يصلح للتنزّه أو المناسبات...

كانتْ العروس تلبس "أكرزي" أبيض اللّون، وضعوا عليها حليّا فضّيّة. على رأسها وضعت قطعة مطروزة باليد تسمّى "أمندل"، عليها أشكال ورموز مختلفة، كانتْ ترتدي عدّة قطع منها "الحايك" و"ثمحرمت لحرير" لتغطّي به وجهها، وبين جبهتها وُضعتْ مرآة. تقول خالتي "ماتيّا" أنّ ذلك يعودُ إلى الزمنِ القديم، حيث لم تكنْ توجَدُ أبواق السيّارات، فكانتْ عائلة العريس تعلم بقدوم العروس حين رؤيتِها السطوع النّاتج عن انعكاس الشمس على المرآة.

هوسي بفكرة إعادَة عُرسنا صارَ أقوى وأنا أرى هذه العروس، غيرَ أنّي كنتُ مدركا لاستحالة الأمر، السبب الأول أنّي قد أسطو بذلك على تقاليد المنطقة، فمن المعتاد أن تقامَ الأعراسُ للعرسان الجدد فحسب. أمّا السّبب الثاني فلأنّه مع قرب موسِم الأعراس، يعقِدُ أهل القرية اجتماعا لبرمجة مواعيد الأعراس، حتّى لا تتزامنَ الأعراس ولكيْ يتسنّى للجميع الحصول على عربة.

ركبتِ العروس العربة المزيّنة وهي تبدو كأميرة فاتنة تخرج من قصر أبيها، سارت العربة تتبعُها النّساء بالزغاريد والرّجال بالبنادق والبارود،

يسمّون هذا باللّهجة المحلّيّة هناك "ثقفافث"، استمرّ الأمر كذلك إلى غاية وصول العروس إلى بيتِ زوجِها أينَ بدأت الحفلة الفعليّة إلى نسمات الفجر.

دخَلتِ العروسُ البيتَ بقدمِها اليُمنى وفورا، تمّ إعطاؤها بعض الماء والعسل لتناولهما. بعدَها رشّت الماء ثلاث مرّات خلفَ ظهرها وألقت كثيرا من الحلويات والمكسّرات ليتخاطَفها النّاس تفاؤلا بها. لطالما تساءلتُ عن جدوى التفاؤل عدا كونِه شعورا يمنَحُكَ السّعادة المؤقّتة بواقعك والأمل بقادمٍ أفضل، كنتُ أقرأ كلمات الحديث "تفاءلوا خيرا تجدوه". وأحاولُ كبتَ نفسي التي تتطلّع لمعرفة كيف.

كيف لظنوننا أن تحرِفَ سيرَ الأمور إلى الأفضل ولا أقصدُ الأمور التي تندرجُ في الإطار الذي يمكننا التحكّم فيه، بل الأمورَ التي لا يدَ لنا فيها، كأن نتفاءل بجوٍّ جميلٍ غدا، "كيفَ أجعلُ الشّمس تشرق؟"، هذا التّساؤل أساسا كانَ بداية نهمي لنظريّات فيزياء الكمّ الّتي وجدتُ فيها جوابا قد يردّ على تساؤلي السّابق، حيثُ تدّعي في مرحلة ما أنّ الإنسانَ يغيّر النّتائج بإدراكه، أيْ أنّ ما أراه قد لا يكونُ حقيقة بالنّسبة للجميع وهو ربّما من صُنعِ إدراكي، أنتَ تفعَلُ ما يقُولُ إدراكي أنّك تفعلُه، بينَما قد تكونُ أنتَ غير موجودٍ في إدراك

أشخاص آخرين، أو قد تكونُ عالِمًا أو متشرّدا أو مواطنا من بلدٍ آخر... هذا يعني أنّ الشّمس قد تشرِقُ كما أريد إن استطعتُ أن أكون على وفاق مع القوانين الفيزيائية التي تحكم ذلك...

في اللّيل، اجتمعَ الجميع لحضور "ازنزي الحني"، كانَ الجميعُ في شوقٍ ولهف إليها. قامَ الشّاعر الشعبيّ وراحَ يردّد قصيدَتَه الّتي لم أفهم معانيها، لكنْ من شرحِ عمّي "يغموراسن" فهمتُ أنّه يمدَحُ أحيانا ويذمّ في أخرى ويوصي العروسين ويعظهما ويذكّرهما بتجارب السّابقين ليأخذا منها. في الوسط كانَ هنالك صحنٌ مغطّى بقطعة قماش ووعاء من الفخّار فيه ماء، تُخلط الحنّاء والبيض في صحن الفخّار ومن حولِها الشّموع المعطّرة، قاموا بوضع الحنّاء للعروس بينما قرأ صاحب "ازنزي الحني" الأشعار، بعد الانتهاء من ذلك زغردت النّساء وقامَ بعدها جمعٌ من الحضور بجمع المال من الحاضرين في عادة تسمّى "الخير" وهي عادة حميدة يُساعدُ فيها أهل القرية العائلة التي تقيم العرس. استمرّت الحفلة التي رقص خلالها الكبير والصّغير إلى الفجر. ميلين تعلمُ مدى غيرتي عليها لذلك لم تتجرأ على اقتراح أن نرقص، أظنّني كنتُ سأقبلُ هذه المرّة لو فعلتْ!

لا بأس عاداتنا أيضا جميلة، لكنّي معتادٌ عليها فحسب، أذكر أنّها كانتْ منبهِرة أيضا بأعراسنا، أحبّتها وأحبّت بشكل خاصّ فرقة "القرقابو" و"التثلاث" الخاص بمنطقتي. لم يحدثْ أمرٌ مميّز اليوم، في الحقيقة كونُ كلِّ شيءٍ مميزا يجعلُ أيّ شيء يحدث أمرا عاديّا. حلّ اللّيل وبعدَ العشاء ذهبت مع عمّي يغموراسن إلى دار الخابية أينَ وجدنا الشّعلة والشّباب ينتظراننا مجدّدا بالفرحة والتحيّة والحوار ذاته. نظر عمّي إلى الشعلة متفحّصا إيّاها:

– هنالك كثير من الحطب.

ردّ أحد الشباب ممازحا:

– آه يا عمّي، يبدو أنّك كبرتَ وتحتاج إلى نظّارات.

ضحكَ ثمّ التقمَ عودا وجعلَ يبعِدُ بعض الأغصان عن الشعلة حتّى جعلها بالحجمِ المناسب له. ثمّ قال للشّاب:

– خذ هذا الحطبَ بِعْهُ واشترِ لعمّك نظّارات.

في الوقتِ الذي انشغلنا فيه بالضّحكات، كانَ الجميع قد التفّ حول الشّعلة. واصل عمّي يغموراسن القصّة الّتي أحضرني إلى أعالي قرية "آث-

سعيد" فقط لأسمَعهَا، كنتُ أستمِعُ إلى كلّ كلمة منها وأبحث عن الواقع الذي يرويه هذا الخيال.

۞۞۞

الفصل الثّاني

حملَ "زور" بذراعيه القويتين الصّخرة ووضعها في مجرى المياه.

– عملٌ جيّد لقد أنهينا بناء السدّ، يمكنكم الاستراحة الآن.

قائد المجموعة يُملي الأوامر كما يشاء وليس عليه العمل بقدر البقيّة، إلّا إن شاء ذلك عن طيب خاطر، يمكنُه الاحتفاظ بمنصِبه مادام الأفصحَ بينَهمْ. اتّكأ زور على العشب يتأمّل كلّ شيء بينَما كانتْ بقيّة المجموعة تثرثر في أيّ أمر طرأ على بالها. كانَ القائد يكنّ كثيرا من الاحترام له، رغمَ عدم قدرتِه على الحديث إلا أنّ نظراته الحادّة والثاقبة تترجم الكثير عمّا هو عليه وما بإمكانِه أن يكونَه لو سنحت له الفرصة وتحدّث. جلسَ قربه:

– أظنّ أنّنا لكثرة كلامنا لم نعدْ نعرف ما علينا أن نستمع له.

هو يعلمُ أنه ليسَ بوسع زور الردّ لكنّه لا يشك في قدرته على فهمِه، استطرد قائلا:

–لعلّك أكثر من يفهمُني، فوحدكَ باستطاعتك تقدير الهدرِ الذي تعانيه الحروف والكلمات، ترى لماذا نقول أشياء لا معنى لها؟

لأوّل مرّة يحادثُ أحدُهمْ زور بهذه الطريقة ويوليه مثل هذه الأهمّية، كانَ مستغربا لكن سعيدا، تمنّى أكثر من أيّ وقتٍ سابق لو كانَ بوسعه الردّ، على الأقلّ ليشكُرَه على مشاركتِه أفكاره ووقتَه اهتمامَه.

-أتعلم؟ لطالما تساءلتُ عن الأشياء التي تريدها وكيفَ أنّك عاجزٌ عن الحصول على أيّ منها، فقط لأنك لا تجيد طلب ذلك.

تجاوز القائد مرحلة الاهتمام إلى مرحلة متقدّمة، إنّها مرحلة الشعور بالغير، كانَ زور مستغربا من القدرة العجيبة لديه في استشعار بأنّ ثمة ما يريدُه، التقَمَ حصاة من الأرض وقال:

-مهما شعرتَ بأنّك صغير بالنّسبة للعالم، فتذكر أنّك لستَ صغيرا بالقدر الكافي... على كلٍّ، أتمنّى أن أسمَعك يوما ما.

نهضَ القائد ووضعَ الحصاة الصّغيرة المتبقّية في جدارِ السدّ، حينَها كفّت المياه عن التدفّق تماما. بدأ يفهَمُ زور سببَ كونِ القائدِ قائدًا.

....

استلقى الملك حمّان في فراشِه قربَ زوجتِه، حتّى الملكُ لا يكونُ ملكا أمام الأنثى التي يحبّها. مقارنةً به، هي بخير لأنّها أقامتِ الدّنيا بحزنِها يومَ

اختفاء ابنِها بينما كانَ أبوه محافظا على رباطة جأشه رغمَ ما يختفي في أعماقِه من حُزن وحسرة. وضَع رأسَهُ على الوسادة ومدّ يده تحتَ رأسِه برهة، ثم انقلَبَ على جنبِه غير المفضّل، أينَ بإمكانِه النّظر إلى زوجتِه طولَ الوقت ومبادلتِها النّظرات، كثيرا ما تبتسِمُ له فهي لا تلومُه على ما حدث، مصير جميع الذّكور هنا القتال فورَ بلوغِهم حتّى أولئك الذين تجري في عروقِهم الدّماء الملكيّة.

مرّر لسانَه على شفتيهِ ولعقَ شارِبَه قبلَ أن يقرّر كسرَ الصّمت:

-تظنّين أنّه سيعود ذاتَ يوم؟

-متأكّدة من ذلك عزيزي، سيعود... سنجِده.

-كيفَ تعرفين هذا؟

-إنّه إحساس قويّ داخلي، كما أنّه لو حدث له مكروه لكنّا علمنا بذلك أو وجدنا أثرا له.

كلِماتُها السّحريّة كانتْ تخدّر آلامَه وتنعشُ آماله، كانَ اختيَارُه موفّقا بالزواج من الرّفيقة المثلى له في دربِه. سألَها:

-ما رأيُكِ في إقامة وليمة كبيرة؟

-وما المناسبة؟ إن كنتَ تريدُ التّرفيه عن نفسك فإنّي أرى أنّه أمرٌ مناسب.

-في الحقيقة... تدركين أنّي فقدتُ روحي منذ ذلك اليوم المشؤوم...

كانتْ تنظُر إليه محتارة من هذا القرار المفاجئ، مُسابِقة بلهفةٍ كلماتِه إلى السبب الذي يدعوه إلى ذلك.

-كنتُ أفكّر لو أنّي استعدتُ شهيّتي فقد تدبّ الحياة داخلي من جديد.

ابتسمَت وكأنها تقول داخلها: حقّا أنّ الطريق الأقصر لقلوب الذكور هو بطونُهمْ. سألتْهُ على الفور:

- وكيفَ ستساعِدُ الوليمةُ في ذلك؟

-هل جرّبتِ أن يضحكَ أحدٌ ما فتشعرين بالسّعادة والرّغبة في الضّحك رغم أنّ الأمرَ لا يعنيك؟ أو جرّبتِ رؤية سيفٍ يخترقُ أحدَهم فتنقبضَ أوصالك؟ لوهلةٍ فكّرتُ أنّ المشاعِرَ معدية وأنّه قد يمكنني التلذّذ بالطعام إذا رأيتُ شخصا يأكُلُه بالتلذّذ الكافي...

كانتْ الملكة تستَمِعُ إليه باهتمام، يبدو أنّ طرحَهُ معقول إلى حدّ بعيد من حيثُ الهدف، لكنّها لم توافقْه من حيث المبدأ، بلْ فكّرتْ أنّ مشاركةَ الآخرينَ

مشاعرنا هي ما يجعلنا أحياء وسعداء، لأنّا حينَها سنشعُرُ أنّنا لسنا وحدنا وأنّ هنالِك من يشعر بِنا وبأننا قادرون على اكتشاف مشاعِر جديدة لم نعِشها إلّا عبرَ النّظر إلى عيونِهم والاستماع إلى خفقات قلوبِهم، لكنْ ما مدى سعادة من يملِكُ كلّ شيء ممكن، إنْ أعطيتَهُ شيئا يملِكُهُ سلفا؟ حينها قالتْ:

-ما رأيُكَ في دعوةِ الفقراء والضّعفاء؟

-مم... الفقراء والضعفاء...

-نعم سيكونونَ أكثر امتنانا وسعادة لحصولِهم على أمورٍ لم يتعوّدوا عليها.

-دائما ما تكونينَ مُحقّة، أشكرُ القديرَ على نعمة زوجةٍ مثلك.

-ستكونُ الأمور بخير عزيزي، أنتَ أشجَعُ شخصٍ رأيتُه ولن نستسلمَ حتّى تعودَ كلّ الأمور إلى نصابها.

...

أشعلَ "سمّاش" النّار تحتَ القِدر ثمّ ملأها بالماء ووضَعَ قرونَ الصراصير لتنضج ببطء. كانَ الغريبُ يُراقِبُه بصمْت ويعترِضُ داخِلَهُ على طريقة طهو القرون النّحيفة، لقدْ كانَ خبيرا في الطّهي وذوّاقا لذلك لم يرُقْهُ ما يراه، في حينِ أكمَل سمّاش ما كانَ يقُومُ به، وضعَ بعضَ التوابل المصنوعة من

أحشاء القوارض والتي حصل عليها من قريَةِ الأفاعي، لعلّها أقوى التّوابل على الإطلاق وأحسنُها. كانَ ينظُر إلى قرون الصّراصير بين الفينة والأخرى ويتأمّلُها بل ويبالغُ في ذلك إلى حدّ السّهو، شكلُها مألوف بشكلٍ مُحزنٍ جدّا، تُحيي فيه ذكرى سَرِقة شارِبه، قرون الصّراصير تُشبه شارب سمّاش إلى حدّ بعيد...

مشكِلتُنا مع الأحباب أنّهُمْ يستولون على تفاصيل لا تعنيهِم، فتؤول الملامِحُ القريبة منهُم إلى ملامِحِهم والأفعال الشبيهة بِهِمْ إلى أفعالِهِمْ، شيئا فشيئا ينتسِبُ كلّ شيء إليْهم فنتذكّرُهم في كل منعطَفٍ خلالَ مسارنِا إلى النّسيان... كلّ شيء يشبِهُهُم ولا يشبهونَ شيئا سوى أنفُسِهِم. بعدَ بُرهةٍ نهض متثاقِلا وجلَسَ قُربَ ضيفِه، لديه الآنَ الوقتُ ليتفحّصَ بِنيتَهُ الغريبة، لقدْ أنقَذَه في وقتٍ سابقٍ من اليوم ويُمْكِنُه الآن معاملَتُه كما يشاء هو مدينٌ له حتّى أنّه يمكِنُه اعتبارُه عبدا اقتنَاهُ لنفسه، عبدٌ لليلة واحدة على الأقل.

لم يكُن سمّاش بهذه الحقارة يوما، كلّ ما جال في خاطِرِه لم يكُن سوى تخاريف أوّل اللّيل الممتزِجة بوِحدتِه الّتي طالَ أمَدُها. كانَ مستغربا من لسانِ وذيل ضيفِه الطّويلين وعيونِه الدّقيقة.

- أنتَ حقّا لستَ من الجوار...

خاطَرَهُ واضِعا كفَّهُ عليه. أجاب الغريب مُخاطرا:

-تبدو أذكى من طرحِ سؤال كهذا، أظنّ أنّ سؤالك الحقيقي هو عن سبب مجيئي إلى هنا!

-وأنتَ ذكيّ بالقدرِ الذي تبدو عليه، ستكونُ وقاحة منّي أن أسألك.

-لِمَ تعيشُ وحدَك؟ ما سببُ نظراتِك الفارغة؟

ضَحِكَ سمّاش لأول مرّة من زمنٍ طويل وأجاب:

-ها نحنُ بدأنا في طرحِ الأسئلة...

-لا بأسُ إن كانتْ أسئلتي...

قاطَعَهُ سمّاش مُطَمْئِنا:

-لا... لا عليك، ما كنتُ أقصِدُه أنّ لا أحدَ طرحَ عليّ هذا السّؤال منذُ سنين وها أنتَ تطْرَحُه رغمَ أنّه لم يمضِ على لقائنا سوى بضع ساعات.

-وهل هذا أمرٌ مناسِب؟

-ليسَ بإمكاننا إنكار ذلك إلى أنْ يثبتَ العكس!

-فلنجَرّب إذن!

استجمَع سمّاش الهواءَ الّذي في صدْرِه ثم أطلقَ زفيرا ينمّ عن عمْقِ الألَمِ الذي يرتَعُ داخِلَه.

-مهنتي هي صناعة القلائد...

-أتقصِدُ القلائد مثل هذه التي على صدرِك؟

-نعم تماما.

-رأيتُ الجميعَ يرتدي مثلَها قبل لقائي بك، هل تعني شيئا محدّدا؟

-بواسطةِ هذه القلائد يمكن للجميعِ هنا التّواصل دونَما كلام.

-أها... هذا يفسّر كلّ شيء، لكنْ لماذا يُمنَعُ الكلامُ هنا؟

-لستُ واثقا، لكنْ يُقال أنّ جيشنا تعرّض لهزيمة نكراء سُمّيتْ يوم العار الأكبر وخوفا من حديثِ النّاسِ عن ذلك وانتشارِ أخباره خارج مملكتنا، مُنِعَ الكلام منذ ذلك اليوم.

كانَ الغريبُ يهزّ رأسَه وهو يستَمِعُ بتركيز وإصغاء كبيرين... واصلَ سمّاش كلامَه وقدْ تغيّرتْ ملامِحُه ومالت إلى الغَضبْ:

-كنتُ أضَعُ شاربي جانبا كي لا يتّسخَ أو يحترق مع كلّ الحرص على عدمِ تواجُدِ أحدٍ في معمَلي أثناء صناعة القلائد، لكنّي في ذلك اليوم الملعون

سمَحتُ لنفسي بخرق أوّل قاعدة في عملي: لا أصدقاء في العمل! سمَحتُ لـ "مغتوب" صديقي المقرّب بمرافقتي، كنّا من أغنياء المملكة يومَها وما كنتُ لأشكّ فيه، انتظَرَ انهماكي في صُنعِ القلادة وسرقَ شاربي ليزيدَ ثراءه!

-فليَكُنْ... لمَ عليكَ أن تمضي حياتَك حزينا على ذلك؟

-أنتَ لا تفهم الأمر، أليس كذلك؟ الشّارب في مملكتنا هو القيمة والفخر والهيبة، من يفقِدُه فلا حياة لَه بينَهم!

-ربّما لو طلبتَ المساعدة...

قاطعَهُ سمّاش وقدْ بدأ يفقِدُ صبرَه:

-إن استطاعَ أحدُهمْ أن يسرِقَ منك أملاكك، فهذا لأنّك استحققتَ ذلكَ!

صمَتَ الغريبُ حينَ رأى أنّ سمّاش بلغَ مرحلَة قد تكونُ فيها ردودُه ساخطة واكتفى بكلمةٍ واحدة:

– فهمت.

اعتدل سمّاش وتدارَك الأمر مهدّئا من روعه، سأَل ضيفَه من جديد:

– بالمناسبة... لم تُقل لي اسمك!

ابتسَمَ أڤمَد كمن ينتظِرُ السّؤال وقال:

-أنا من قرية الدفق البارد وأدعى "أڤمَد".

-أنت من قرية الأفاعي إذنْ! كلّ شيء يبدو منطقيّا الآن.

....

معَ اعتدال الجوّ يُصبِحُ كلّ شيء أكثرَ نشاطا، إنّه الموعِدُ الأنسبُ لكلّ شيء تقريبا. قّرر سمّان كعادتِه الخروجَ للصّيد، ليسَ بحاجة لأن يصبِح أغنى ممّا هو عليه، لكنّه بحاجة ماسّة إلى فِعلِ شيء ما. عادة ما يقيم بقيّة الشّباب في القرية أعراسَهُم في هذا الموسم، لكنّه لم يتناسب مع أيّ من إناث القرية، شكلُه بعيد كلّ البعد عن أشكالهنّ وعاداته كذلك، لذلك بدأ يبحثُ لنفسِه عن أمرٍ يشتغل به عن الشّعور بالشّفقة على نفسِه، لم يكُنْ عديمَ المشاعِر حقّا كما يبدو، فألحانُه كانتْ تُخبر الآخرين عنهُ كلّ شيء، هو شخصٌ يمتلك الكثير ليقدّمه للشّخص المناسب حين يعثر عليه، ثقَتُه كانت مفرطة في أنّهما سيعثران على بعضِهِما ذاتَ يوم، لذلك قرّر مسبقا مواجهة القدر ليتعلّم منْه كيف يتجاوزُه، لعلّ هذا الأمر بالضّبط ما يجعَلُ فرصتَه أمام القدَر غيرَ معدومة. تروي

الأساطير أنّه حينَ ركَعَ السيّاف "زورو" أمام السيّاف الأعظم "ميهاوك" ليكونَ معلّمَه، سأله:

_ ما الذي يدفعني إلى تعليمك؟

ردّ زورو:

_ أريدك أن تعلّمني لأهزمك!

التحدّي جعل شخصا أسطوريّا كميهاوك يقبل بتدريب سيّاف لا يزال في بدايتِه ليجعَلَ منهُ شخصا قادرا على مجاراته وربّما هزيمته.

حمَل سُمّان الجرّة فوقَ ظهرِه وعلّقَ الآلة على رقبتِه، كانَت خطواتُه المتساوية تحسِب المسافة الّتي قطعها بينما حركة آلته المتأرجحة بانتظام تدلّه على الزّمن الذي مضى وتمكّنه من التحكّم في سرعته بأريحيّة، هكذا كانَ يعرف المواعيدَ بدقّة. لم يكن ليَضيع في معظم الأحوال، فحاسّة الشمّ عندَه قويّة تمكّنه من التقاط الروائح على بعدِ أمتارٍ عديدة. في اللّيل كانَ يتسلّق الأشجار وينامُ على أحد أغصانها بينَما تبقى أُذناه تحرسانِه متجّهتين إلى كل النواحي طيلة مدّة نومِه.

نهضَ في الصّباح التّالي... أنفُهُ ينبئه بقرب الوصول، رائحة الفئرانِ قويّة وآثارهُمْ واضحة، لكنْ عليهِ الحذر وعدم إثارة انتباههم حتّى لا يختبؤوا مصعّبين الأمر عليه قليلا، وثبَ في الحين على جُندبٍ تائهٍ في الأرض... وجبةٌ صباحيّة دسمةٌ ليومٍ مليء بالغنائم الدّسمة. واصلَ سيرَه متخفّيا بخطواتٍ رشيقة لا يُسمَع لها وقع وعلى مشارِف القرية، قدّم رِجلا وأخّر أخرى، التقَم مزمارَه، أغمض عينيه ونفخَ فيه فخرَجت ألحانٌ كألحانِ الجنّة منه، بعدَ ثوانٍ أقبلتِ الفئرانُ طواعية وبدأت تدخل إلى الجرّة التي نصَبها سمّان قربه إلى أن امتلأت، كانَ الكلّ فاقدا للوعي، إلّا البعوضة التي راقَبتْ كلّ شيء من بعيد، عيونها ممتازة وصوتُها هادئ، كانتْ لديهِ رِفقة لم ينتَبِه لها هذه المرّة. التخلّي عن الحذر بسبب التعوّد عادة ما يجعَلنا ندفعُ ضريبة تهاوننا، حتّى يُقال أنّه غالبا لا يغرقُ في البحر إلّا الماهرون في السّباحة... شاهدتِ البعوضة كلّ شيء وتبِعتْ بهدوء سمّان طول الطّريق خلال عودَتِه.

...

انهمَك توشوشت لأيام طويلة في مطالعَةِ مؤلّفات جدّه، لم يَعُدْ ينزلُ من العلّيّة كثيرا وأصبَح نادرَ الظّهور في الخارج. لا يزالُ يحلُمُ بالخروج إلى الفضاء كما زعمَ جدُّه أنّهُ فعل، إلى هذهِ اللّحظة ظنّ جميعُ من صدّق القصّة أنّ السرّ

ماتَ معه، السرّ الّذي مكّنه من الوصول إلى هناك... بلاد العمالقة. الشّباب هنا لا يهتمّون بأمور مماثلة، أغلَبُهمْ يعمَلُ في تجارة دماء الثّديات الحارّة أو يعمَل كجاسوس مأجور لدى قرى أخرى، مهاراتهم في التسلّل عالية. على عكسِه، كانَ أخوهُ جاسوسا بارعا لا يُشقّ له غُبار، قلّما يفرغ جدولُ أعماله بسبب الطّلب الكبير على خدماتِه. هو الآنَ في مهمّة جوسسة جديدة، قد يعود بعدَ بضعة أيّام. قرأ توشوشت في كتابِ جدّه أسس الطيران وأنواعَه وأساليبه بالتّفصيل، تركَ له إرثا عظيما ومسؤولية أعظم.

-هيّا انزل للغذاء.

-حسنا يا أمّي.

جلسَ توشوشت إلى المائدة ولم يكنْ جائعا حقّا، لكن تفاديا لقلق أمّه قرّر المحاولة.

-إذاً، فيمَ تقضي وقتكَ يا بنيّ؟

-أواظب على قراءة مخطوطات جدّي، لقد كانَ جدّي عبقريّا!

-حقّا؟ وماذا وجدتَ؟

-يتكلّم جدّي في مخطوطاته عن أنّ الطيران يعتمِدُ على نوع الأجنحة المستعملة فبعضُها يعطي الثبات في الجوّ والآخر يعطي السّرعة ويتكلّم عن صعوبة الطّيران في ارتفاعات معيّنة والتّحدّيات التي نصارعُها إن حاولنا الارتفاع في الجوّ.

-مم جميل وماذا أيضا؟

كانَ بودّ توشوشت ألّا تسألَه أكثر من هذا، فقد وعدَها أنّه لن يخفي عنها شيئا ما دامتْ تودّ معرفته، تردّد قليلا ثمّ قرّر إخبارَها بأهمّ شيء وصَلَ إليه:

- أمّي... لقدْ اكتشفتُ السرّ!

شعَرتْ بالقلق وكانتْ تمنّي نفسَها بسماع إجابة غير التي تظنُّها

-أيّ سرّ؟

-سرّ تمكّن جدّي من الوصول إلى بلاد العمالقة!

نزل عليها الخبر كالصّاعقة، ارتجفت المائدة بين يديها للحظة ثمّ تماسكتْ وسألتْهُ من جديد:

- حقّا؟ وما هو؟

هذه المرّة كانتْ تمنّي نفسَها أن يكونَ السّرّ بعيد المنال، شيئا إعجازيا بالقدر الذي يستحيل عليه الوصول إليهِ.

- لقدْ عدتُ!

في هذه اللّحظة دخلَ أخوهُ عائدا من مهمّته.

-أهلا لقدْ حضرتَ في موعد الغذاء تماما.

-كم أنا جائع، لقدْ أحضرتُ معي خلال عودتي بعض الدّماء الطّازجة!

-جيد سنتناولها تحلية بعد الانتهاء... كيفَ كانَ العمل؟

-جيّدا بل ممتازا، قمتُ بتعقّب أحدِ القطط فحسب.

-أخوكَ لا يفعَلُ شيئا حاليّا، لمَ لا تأخذهُ معك، ليتعلّم منك على الأقل؟

-لا أظنّه مهتمّا بذلك، أليس كذلك يا توشوشت؟

في حقيقة الأمر مرمى الأمّ كانَ أبعدَ ممّا قالته، هي تعلَمُ مسبقا أنّ ابنَها غيرُ مهتمّ بهذه المهنة، حتّى أنّه لم يفكّر يوما بمزاولَتِها، غيرَ أنّها أرادتْ أنْ يبدأ شيئا جديدا يشغَلُه عن هوسِه بالسّفر إلى بلاد العمالقة.

-نعم، لا أريد ذلك.

-ألمْ أقل لك؟ على كلٍّ كانَ اليومُ حافلا وغريبا.

-ما سبب غرابتِه؟

-ذلك القطّ الذي تبعتُه كانَ موهوبا بشكلّ خياليّ في العزفِ، يبدو أنّه صيّادُ فئران والأغرب من ذلك أنّه يعيش بينَ الأفاعي!

وقعَت كلمة الأفاعي في أذنِ توشوشت الذي كانَ منهمكا في محاولة الأكل، وقعت فيها كالماء البارِد فوق شخصٍ نائم وردّ في الحين:

- هل قلتَ الأفاعي؟

....

عادَ سمّان إلى القرية محمّلا بالغنائم، لقد اعتاد على الأمر حتّى أنّه يقومُ بهِ بسهولة منقطعة النّظير، وضَعَ الجرّة جانِبا، دخَل إلى الحمّام وسخّن بعض الماء ليستحمّ. نزعَ ثيابَه وعلّقها، نظَر إلى نفسِه في المياه، بدأ اختلافُه يغدو أمرا مزعجا أكثر فأكثر لَمَحَ الحرق على ذراعِه، بالكادِ رآه رغمَ وضوحِه، خفيَ عنه لأنه أوضحُ ممّا ينبغي كانَ مستغربا من الصّدفة التي صنَعتْ حرْقا متقنا بهذا الشكل، هل يعقَل أنّه لم يُحرَق عشوائيّا؟ لا لا فذلك غيرُ ممكن! لمَ قد يتفنّنُ أحدُهم في رسمِ رقعة منتظّمة بالنّار على ذراعِ أحدِهم؟.. الحرق واضحٌ كوضوحِ اختلافِ سمّان عن بقيّة السّكّان، هل عليْه أن يعتبِر هذا الأمرَ عاديّا

ويسلّم بذلك فحسب؟ شعَرَ بضرورة ألّا يكونَ غبيّا، أحدهُمْ يحاوِلُ معاملته على أنّه كذلك أو ربّما مجتمعٌ كامل يتواطأ في هذا. أجوبةُ أبيهِ لمْ تكنْ متلائمة، كانتْ التواريخ متناقضة في كثير من الأحيان والأحداث تتغيّر باستمرار، لمْ يَعُد طفلا بعدَ الآن، هو يريدُ أجوبة تروي فضولَه الحياةُ كما هي عليه تبدو صغيرة... أصغَرَ ممَّا يرسُمُه خيالُه، أضعَف ممّا تتوقُ إليه روحه، أحسّ برغبة في الوثب وتقطيعِ شيء ما بمخالبِه الحادّة، الطّاقة داخلَه تريدُ التحرّر، هي لمْ تستَحدثْ من عدم لذلك لن تزول إلّا بانتقالِها من داخِله إلى مكانٍ آخر. بحلول الصّباح كانتْ معظَمُ الأفرشة ممزّقة، على الأقل شعَر أنّه أفضل من البارحة، عليهِ تجهيز الفئران لبيعِها إلى بقيّة التّجّار، سيبيعونَ لحومَها المفضّلة هنا على غرار كثير من القرى الأخرى ويصنعونَ من أحشائها صلصة الأحشاء الحارّة، كما أنّ دماءها الحارّة مطلوبة في قرى أخرى خاصّة "قرية المثقاب"، أمّا جلودُها فهي مثالية لصنعِ المعاطِف والأفرشة الدّافئة. يعيشُ سمّان ثراءً فاحشا يحتاجُ تحدّيا ما، يريد هدفا! تذكّرَ بعضَ الأبياتِ التي كانَ يردّدها أڤمَد في آخر سهرة جمعتهما، كانتْ حواسُّه حاضرة رغمَ انشغالهِ بالعزف:

وينــأى حــينَ يــدنو مــا نريــدُ   إلــــيهِ التّوقُ والشّــوقُ التّليــدُ
فـــكلّ الكـلِّ مــوتٌ لازديـــادٍ   وبـــــعضُ الكلِّ مقـدارٌ يَزيـدُ

بدأ يفهَمُ سببَ انشغال "أقْمَد" الدّائم أو هذا ما ظنّه! الملل أمرٌ قاتل! شعور المرء بالكمال يعني أنّه صارَ جسدا بلا روح... بلا طموح.

۞۞۞

إرهاصات

خبَتِ الشّعلة النّارية وبقيتْ الجمرات متمسّكة ببقاياها، تستجيب للنّسيم حينَ يهبّ فتتوهّج ويفتُر فتتّجه للاضمحلال، كنتُ أراقِبُها وأحاول أنْ أتعلّم شيئا ما منها، ألمْ يكُنْ "أقْمَد" في قصّة عمّي يغموراسن قادرا على خلقِ أسئلة وأفكارٍ في كلّ شيء يراه؟ فكّرتُ أنّ الجمراتِ أبلغُ معنى من قطراتِ الدّهن التي أثارت تفكيرَه... الجمرات! رغمَ أنّها من رحِمِ الشّعلة إلّا أنّ مصيرَها هو التّلاشي، لنْ تكونَ وفيّة لفترةٍ طويلة، تحتاجُ إلى شيء ما يذكّرها،

شيء يوقدُها، تحتاجُ إلى هبّة ريح أو نفخة من شخصٍ يكترثْ، صحيحٌ أنّها ستنطفئ في النّهاية، لكنها ستتوهّج أطولَ ما يمكن، لا أظنّنا -نحن البشر- نختلف عنها كثيرا، سنَنْسى في النّهاية جميعَ من نفارِقُهمْ، لكن دعنا لا نجعلُ ذلك يحدثُ بسرعة، علينا أن نحيي الشّوقَ ونكسِرَ المسافات بيننا بين الفينة والأخرى، باتّصال أو رسالة أو حتّى حديثٍ عرضيّ عن الأشخاص الّذين يستحقّون منّا تذكّرَهُم.

بدا أنّ الجميعَ حول الشعلة الخامدة يفكّر في شيء ما، كانتْ نظراتُهم أعمق بانعكاس لون الجمرات المُحتضَرة في أحداقِهم. يُفتَرَضُ بي العودةُ إلى الدّيار غدا، لديّ كثير من الأعمال لأنـجِزها في هذه الأثناء تذكّرتُ قول والدتي:المشاغل لا تنتهي أبدا!، هي على حقّ كعادتِها، حتّى أنّي لا أتذكّرُ آخرَ مرّة أخذتُ فيها إجازة، طموحي يدفَعني إلى الأمام، سمعتُ ذاتَ يومٍ مثلا يقول:أنّ الحياة هي ما ننسى عيشَه أثناء سعينا للحياة، من يدري؟ لعلّي عشتُ معظمَ عُمري أطمَحُ للأمور المهمّة في نـظري لكنّي لم أتساءل:ما هو الأهمّ بالنّسبة لي... بل بالنّسبة لنا؟ أنا وكلّ الأشخاص الذين يحيطون بي وأقدارنا عالقة ببعضِها؟ هنا وسطَ الطّبيعة العذراء، أشعُرُ أنّ ذهني صافٍ بالقدر الذي

يمكّنني من الرّؤية بوضوح، حتّى أنّي أسترجِعُ بشكلٍ رهيبٍ كلّ الكلماتِ والنّصائح التي قيلتْ لي، لعلّها "مرحلة العطاء" الّتي حدّثني عنها أستاذ الرّسم "شريّط" أيامَ الثّانوية، ادّعى يومَها أنّ الإنسانَ ينهَلُ من كلّ شيء خلالَ قطعِهِ مشوارَهُ الدّنيوي وفي مرحلةٍ ما يُصبِحُ ما يملِكُهُ أوفرَ من أنْ يحتفظَ بهِ لنفسِه، فيتدفّق كالماء من الدّلو المملوء فيروي ما حولَه وقدْ يرى أزهارا تتفتّحُ بفضْلِه. بدا حديثُه أيّامَها مجرّدَ ترهات رغمَ إدراكِنا -أنا وزميلي-بأنّه ذاتَ يومٍ سيبدو لنا كلامُه حكيما، أمّا الآن فيمكننا اللّهو والاحتفاظ بكلماتِه في مكانٍ ما، إلى أنْ نُصبِحَ فارغيْن بالقدرِ الكافي لنستمِعَ إليها من جديد. لمْ يَكُنْ مضطّرا لقولِ ما قالَه لكنّنا سألناه:

- لوحاتُكَ رائعة يا أستاذ، لمَ لا تبيعُها؟

قال فخورا ومداريا بسمتَهُ التّي بالكادِ تُلمح:

- بالنّسبة لي أعتقِدُ أنّ الفنّ ليس للبيع...

تساءلتُ داخلي يومها:هل حقّا هو يعارضُ بيعَ لوحاتِهِ أمْ أنّ الظروفَ المهيّئة لذلك لم تبتسمْ له فحسب؟

بعدها استفاضَ يحدّثنا عن جوهَرِ الفنّ وأنّه لا يتجلّى في الرسمِ والغناءِ فحسب بل أنّ الفنّ هو درجَة سامية من الإتقان، يستطيع الجميع أن يكونوا فنّانينَ كلّ في مجالِه. عدتُ أنا وعمّي يغموراسنْ إلى البيتِ كالعادة، سيكونُ عليّ البقاء في كلّ الأحوال، فالقصّة التي طلبَ حضوري من أجلِها لم تنتهِ فصولُها بعد. حالَ عودَتِنا كانتْ ميلين قدْ هيّأت المضجعَ لننام، استلقيتُ برفقٍ، لمْ أشعُرْ أنّي متعبٌ إلّا حينَ حصلتُ على الرّاحة!

-نمْ حبيبي، غدا لديكَ سفرٌ طويل.

-مم... في الواقع، لنْ أسافرَ غدا.

-حقّا؟

-سأبقى لبضعة أيامٍ إضافية.

-ما سببُ قرارك بالبقاء؟

-أريد أنْ أرتاحَ من العملِ قليلا وأنْ أكمِل القصّة، سيكون من العيب أن أغادر قبل ذلك.

-يسعدُني هذا.

-ليلة جميلة حبيبتي.

-تصبحُ على خير.

فتحتُ عينيّ من جديد بعدَما لامسَهما ضوء الصبّح ونفذتْ إليّ زقزقة العصافير من خلال النّافذة، وثبْتُ بسرعةٍ من فراشي وخرجتُ من الغرفة متسائلا: لمَ لمْ توقظني اليوم؟ وقبلَ أن أكمِل تساؤلي لمحتْني وقالت:

-لم أشأ إيقاظك لترتاح، كنتَ متعَبا جدّا.

لا أنكر أنّي استمتعتُ بالدقائق الإضافيّة الّتي قضيتُها في النّوم، مع ذلك كانَ عليّ التّظاهرُ بمعاتَبتِها، لم تنزعج كأنّها تدري ما أحاول فعلَه... تجعلني أبدو أحمقا لذلك غيّرت منحى الحديثِ فورا:

-أينَ هو عمّي يغموراسن وخالتي؟

-آه نعم... لقدْ ذهبا لزيارة العائلة في القرى المجاورة ولن يعودا قبل الغد.

حسنا أظنّ أنّ هذا أفضل، أقصدُ الحديث عن عمّي وعمّتي بدَل الاستمرار في تمثيليّة العتاب المفضوحة، هي تعلَمُ أصلا أنّي لستُ بذاكَ التديّن.

-ميلين...

-نعمْ حبيبي؟

-أتعلمين، من الرائع أن يحظى المرء بزوجة مثلِك، تستمعُ إليه بدل أن تسمَعه.

قالت وفي محيّاها مسحةٌ من الفضول والخجل:

-وما الفرقُ بينَهما؟

-من يسمَعك سيسمَعُ ما تقولينه ومن يستمِع إليك فهو يستمعُ إلى الأشياء الّتي لا تقولينها، سيفهمُ الأشياء الّتي تعنينَها.

-أريدُ أن أخبركَ بسرّ صغير، قد لا يكون سرّا حقّا، لكن... المهمّ... هل تعلم أنّ أمنية أيّ امرأة هي أن تحظى بزوجٍ يفهَمُها ويقدّر ما تفعَلُه ويلاحظ تفاصيلها؟

-حسنا فلنقل أنّي بتّ أعلمُ الآن، هل تجدينني كذلك؟

-أنت الأفضل في ذلك، لا تتغيّر!

-قطعا، لن أفعَل!

هذه اللّحظاتُ التي تفيض عاطفة، عادتْ بي إلى أيّام لقائنا، لم تكنْ تقلّ روعة عن هذه الأيّام كنّا لا نزال طالبينِ في الجامعة. بدأتُ تلكَ السّنة كأني وُلدتُ من جديد كانَ وقعُ خطواتي قويّا وملامِحُ وجهي صامدة مع ابتسامة

تفاخريّة خفيفة، أمشي إلى هدَفي ولا ألتفت، كنتُ أحاولُ أن أصنَع من نفسي الشّخصَ الّذي أريد أن أراني عليه. لم تمضِ سوى بضعةِ شهور منذ أن كنتُ مُلقى في المستشفى على شفير الموتِ، نازعتُ لعدّة شهور فوقَ السّرير ولمْ أجدْ دعمَ من كانوا أصدقائي حينَها والآنَ أعطتني الأقدار فرصة لتصحيح نفسي وانبعثتُ من رمادي كطائر الفينيق. من حقّي معاملة هؤلاء الأوغاد كما أشاء، كنتُ مقتنِعا بأنّ الحبّ خرافة بعدَ أن تخلّت عنّي تلكَ البغيضة قبلَ دخولي المستشفى بأيّام.

جلستُ ذاتَ يومٍ مع مجموعتي في المخبر، تجرّأت "كنزة" إحدى الأعضاء على مكالمتي، كانتْ لطيفة جدّا، استفزّت صفتيَ الغامضةُ الّتي انتحلتُها منذ أيّام دواخِلَها، كانتْ تسألُ أيّ سؤال يخطر ببالها وللأمانة كنتُ مستمتعا بذلك أيضا فأنا لم أفتحْ حوارا مع أيّ كانَ منذ شهور، بدا كأنّها تشتّتني بهذا الكمّ من الأسئلة إلى أن بلَغتْ السّؤال الذي تنشدُه.

-لمَ لا تعطي الإناث قيمة؟

كنتُ أنظر إليها صامتا بينَما بدأت بطرح فرضيّات لعلّ إحداها تصيب.

-هل هنّ يردنَك لكنّك لا ترغبُ فيهنّ؟ هل لديكَ حبيبة تخفيها؟

ما يجعَل شخصيّتي الغامضة ممتعة هو أمثَالُها من الفضوليّين، تسعِدني رؤية الحيرة على وجوهِهم ويُسعدني عجزُهم عن فهمي لكن داخلي... أعلَمُ أنّ هذا الغامضَ ليسَ أنا! انتهى ذلكَ اليومُ مع وجود بعض التطوّر، التقيتُ أخيرا إنسانا بوسعي الضّحك معه وملاطفتُه. بعدَ أيّامٍ عديدة كنّا قد انفتحْنا على بعضِنا، طلبتْ منّي كنزة القدومَ معَها إلى مجموعة أصدقائها كما اتّفقنا في وقتٍ سابق، كنّا نسير ونلقي الدّعابات السّامجة التي لا تضحِكُ سوانا، فجأة لمحَت صديقاتِها، كانَ عليّ حينَها العودةُ إلى نسخَتي المزيّفة، سلَّمت عليهِنّ ولأني كنتُ استحي من الجميلات لم أرفعْ رأسي إلّا بقدر إيفاء اللّباقة، ابتسمتُ كثيرا على غيرِ العادة، شعرتُ بالارتياح وأنّه يمكنني إرخاء دفاعاتي هذه المرّة. عرّفتني على أسمائهنّ إلى أن قالت:

-.. وهذه الجميلة اسمها ميلين.

-تشرّفتُ بمعرفتك... أحمد.

-لي الشّرف.

الحديثُ إلى الآخرين فنّ يظنّ الجميعُ أنّهم يتقنونَه، لكنْ قلّة هم من يفعلونَ ذلك حقّا ميلين بترديدِها اسمي من أوّل لقاء، أشعرتني أنّها توليني أهمّيّة كبيرة، بذلك استطاعتْ جذبَ اهتمامي وجعلي أسترقُ نظراتٍ إليها.

في هذه الأثناء حضر أخي وتعرّف على الجميع هو الآخر ثمّ افترقنا وجلستُ معه على الكرسيّ في ساحة الجامعةِ. كنتُ مفعَما بالأمل والثّقة أيّامَها، عاكستُ المارّة بنظراتي الّتي تدرّبتُ عليها خلال الفترةِ الّتي قضيتُها وحيدا وتكلّمتُ بالنّبرة التي راقت لي، كانتِ الفتياتُ يمررْنَ بتواتُرٍ عالٍ وبدأتُ فورا البحثَ بينَ عيونهنّ عن قلبٍ دافئ يأويني، عن ملامِحَ لطيفةٍ ألتقطها وأحتفظُ بها للمساء فأنام على إشراقة ابتسامَتِها، حاولتُ إيجاد عابرة سبيلٍ جميلة تشغل تفكيري وأعلمُ في الوقتِ نفسه أنّي لن أراها مجدّدا، ما كنتُ أحاولُ فعلَه هو نسيانُ صديقة صديقتي الغبيّة التي جعلتْ أنفاسي تتسارع. بعدَ مدّة لمحتُ ميلين من جديد مغادرة لكنْ قبلَ ذلك استدارت ناظرة إليّ... إليّ وحدي وقالت:

- إلى اللّقاء... أحماااد!

شعرتُ حينَها بالحبّ يطرقُ قلبي ويحتالُ ليدخل لكنْ هيهات، لقدْ حفظتُ الدّرسَ جيّدا... لن أسمَح له بذلك! تلعثمتُ ورددت إليها وداعها:

- إلى... إلى اللّ... لقاء!.. ميلين.

شعرتُ بالارتباك وردّدتُ داخلي: تبّا لي...

يومٌ لطيفٌ آخر، بدأتِ الدّنيا أخيرا تكشِف بعضَ أرديتِها المطرّزة بالورود الفاتنة... كم هي جميلة تلك "الميلين"!

عشتُ الأيّام الّتي تلي شفائي سعيدا باستعادة حياتي، ربّما لذلك كانتْ تتوالى الأمور المفرحة، أظنّ أنّ السعادة تحتاج إلى إذنٍ منّا كي تحلّ عندنا، هي لا تحبّ التعيسين الّذين لا يرحّبون بها، يجبُ أن نكونَ سعداء كي نستحقّ زيارتها.

خلال بضعة أيّام كنتُ جالسا قرب صديقتي الجديدة "كنزة"، أعطتني رسالة من ميلين وقالتْ أنّها تبلّغني تحيّاتها. سألتني:

- ميلين جميلة أليس كذلك؟

أجبتُ وأنا أكتبُ رسالة الردّ:

-لا ريب في ذلك... نعم.

-لماذا لم تطلبْ رقمَها؟

على الفور كتبتُ على الرّسالة "ما هو رقم هاتفك؟"

كانتْ مستغربة من سرعة استجابتي لسؤالها، بينَما في الواقع فهمتُ أنّ ميلين تريد خلقَ تواصل بيننا، لكن على طريقة الكبرياء الأنثوي، كأنها تقول: "أريد إعطاءك رقمي لكن يجبُ أن تطلبَهُ أوّلا"، لا بأس إذن! ليسَ هنالك داعٍ للإطالة.

توالت الرّسائل بيننا بعدَ ذلكَ اليوم دونَ لقاء، إلى أن قرّرتُ ذاتَ صبيحة أن أتّصلَ بها ومن حسنِ الصّدف أن اتّصالي صادف تواجُدها أمامي، سُعدنا برؤية بعضِنا كثيرا، تجوّلنا في أرجاء الجامعة ولا دليلَ لنا فيها سوى المواضيع الّتي نتجاذبُها حتّى أنّنا أحيانا كنّا نتصادمُ ككُرتيْ بلياردو حينَ يودّ كلٌّ منّا سلوك اتّجاه مختلف عن الآخر، كرتان متناقضتان، هي شقراء وأنا أسمر، أنا أطول منها وهي أقصر...

- عليّ الذّهاب الآن.

أجابت بغنج طافح:

- مللتَ منّي؟

ضحكتُ من كلّ قلبي بينَما كانتْ تبذل كي تمنعني كلّ ما بها من دلال.

-لا أبدا... لديّ اجتماعٌ مع الجمعيّة الثّقافية مساء.

-حسنا... أغلقْ معطفَك جيّدا كي لا تمرض.

لمْ تكنْ تفوّتُ أيّ فرصة لإبداء اهتمامِها بي وحرصِها على أنْ أكونَ بخير. فجأة طرأت فكرةٌ في رأسي.

-لمَ لا تأتين معي؟

-إلى الاجتماع؟

-نعم نعم... ستحبّينَ ذلك، هم لا يمانعون.

مجدّدا كنتُ سعيدا بسرعة بديهتي وبموافقتها على اقتراحي. عدتُ إلى المنزل ولمْ يكُنْ عليّ التأنّق، شعرتُ بالرّضى المطلَق على هيئتي وأنا أرى انعكاسي في عينيها الأخّاذتين. بحلول المساء كنتُ بدار الثّقافة في الموعِدِ المحدّد، كانتْ أوّل مرّة تحضُرُ فيها إحداهنّ الموعد قبلي، لم أتوانَ عن إخبارها بذلك، أسعدَها سماعُ ذلك منّي كنتُ منبَهِرا بجمالها بقدرِ انبهارِها بلباقتي، لقدْ تأنّقت ووضعتْ الكحل في عينيها كانتْ أجمَل من كلّ توقّعاتي أو دعنا نقول أنّي لم أعُدْ أتوقّع أشياء بهذا الجمال، بسبب البشاعة التي عايشتُها مؤخّرا، من

الواضحِ أنّها قرّرت عدمَ إفلاتي، رغمَ ذلك تمالكتُ نفسي وأنا أنظُرُ إليها، عدّلتُ نبرتي الخشنة وقلتُ بكلّ جرأة:

- أنتِ هيرموزا...

ضحكتْ كثيرا وقالتْ:

- ماذا يعني هذا بحق الجحيم؟

قلتُ لها مجدّدا:

-أنت جميلة! جميلة إلى حدّ يجعلني أخجلُ من النّظر إليك كلّما التقينا مجدّدا.

ضحِكتْ خافضة رأسَها كالملاك خجلا ثمّ رفعتْه كأنَّها الشيطانُ بغوايته، لوهلة حسبتُها سترتمي بين أحضاني لتعانقني... نظرتْ إليّ بعمْق وقالت:

- أشكرك.

قلتُ لنفسي:

- دعنا نهرب قبل ارتكاب حماقة ما!

دخلتْ برفقَتي إلى تلكَ الأمسية، كانَ بوسعي أن أضعَ جانِبا كلَّ قصائدي وأكتبُها في قصيدة، وزنُها على البحرِ الّذي أغرقتني فيه وقافيتُها مستوحاة من أنفاسَها الهادئة. في الحين ارتجلتُ من أجلها بيتين:

ما عادَ لي نحو العبور معابرُ، عيناكِ فردوسٌ وقلبي كــافرُ

عيناك شهدٌ تنتشيهِ نـــــبرتي ليقول عنّي النّاسُ هذا ساحرُ

فيما بدا لي، أُعجِبَ الجميعُ بالأبيات وصفّقوا لهذا الوحي الّذي أُسريَ به من أحداقِها إلى ورقتي، لم ترفعْ ناظريها عنّي طيلة الأمسية وما كنتُ لأرضَى بغير ذلك، تعجّلتُ انتهاءها لكي أحظَى بالمزيد من قربِها، أريدُ أن أقتربَ منْها لأتعرّف أكثر على تفاصيلها، كنتُ مأخوذَ العقلِ، لكنّي الآن بدأتُ أعتاد الأمر وقد أجدُ باقترابي منها هذه المرّة عيبا أستعمِلُه ضدّ ذكراها ذاتَ يومٍ إن احتجتُ لأن أكرهها... لأن أنساها. كنتُ أشبَهَ بشخصٍ ادّعى إجادتَه للسّباحة ويتمنّى أنْ يجدَ البحرَ قدْ جفّ حينَ يضطرّونَهُ لإثبات مهارتِه... كما هو متوقّع لم أجدْ في وجهها شيئا يُذكر، قُضي عليّ! كانتْ الطريق أقصر من المعتاد وهي تمشي بجانبي، تمنّيتُ أن تطول غيرَ أنّ الأماني الجميلة جدّا، غالبا ما تعاندنا بقدر رغبتنا فيها.

-لقد كنتَ مبدِعا أيّها السّاحر.

-يمكن للسّاحر أن يذيبَ الأحجار حينَ يُسحَر.

-مم... ومن سحَرهْ؟

-تقصدينَ من سحرتْه... لا أدري لكنْ تقول الاساطير أنّ السّاحرة تطيل النّظرَ إلى ضحيّتها عادة ولا ترفَعُ عينيها عنها، إن شاهدتِ فتاةً تفعَل هذا معي فأخبريني على الفور.

ضحكتْ بشدّة وقالت:

-يا لها من شرّيرة، تستحقّ العقاب، لكن لا أعلمُ كيفَ تنوي معاقبتَها.

-دعيني أفكّر... مم... حاليا قد أوافق على أن تعترِف بذنبِها.

-ربّما لا تعرفُ أنّها مذنبة.

-أنا متأكدّ أنها حيثما كانتْ، صارتْ تعرف.

عدتُ إلى المنزِل سعيدا بلقائها، لم يسعني سوى التّفكير فيها، التقمتُ قلما وتركتُه يسرحُ كأرنبٍ جائعٍ في حقلٍ من الجزر، لا بدّ من إرضاء حاجتي لرؤيتها وتفريغ هذه الشّحنة من العواطف في عملٍ شيء ما، أذكُرُ أنّي كتبتُ إحدى أكثرِ رسائلي إبداعا يومها، كانَ عُنوَانُها "الطّفل والكلمة الأعجميّة".

لكنّي كعادتي اكتفيتُ بالاحتفاظ بها في جيبِ معطفي إلى الأبد، أظنّها كانتْ سترغبُ في قراءتها غير أنّها كانت لتصيبُها بالغرور لو فعَلتْ، من الأفضل ألّا تقرأها أبدا!

كنتُ أحيانا، أخرجُها من جيبي وأقرؤها لنفسي جهرا، فخورا بهذا الوحي الميلينيّ:

الطّفل والكلمة الأعجميّة...

ذاك الشذوذ بعينيك هو أنا، بقدر استمتاعي بالغوص فيهما، أقول في نفسي هما ليستا بذاك الجمال... وبقدر معرفتي بغيظك لأني لم أثنِ على جمالهما، أدرك أنه يسرّك أني رأيت يومها الرّوح التي تومض خلفهما. أجهل إن نظر إليك غيري يوما بذات النّظرة بل وأجهل إن كنتُ سأمتلك قدرا كافيا من الوقاحة لأنظر إليك من جديد كما فعلتُ سابقا إن التقينا مجددا، قد أكون وحدي مخطئا أو أكون وحدي محقّا وهذا سيجعلني في عين الجميع مخطئا، إلا أنت! ستقدِّرين جدّا اختلافي، حتّى أنَّك بدأتِ للتوّ بتقديره بعد سماع هذا منّي... أمرّ بيوم مشابه لصبيّ ينطقُ كلمة أعجمية بشكل صحيح وسط مجتمع

ينطقها خطأ، يظنّ الجميع أنه جاهل ولا سبيل لإقناعهم، لكنّي أريد أن أثق أنّي وحدي على حق، لكي أحرص على ألا يحدث لي ما حدث للصبي في النهاية...

لو طلبتُ منك انتظاري دقيقة بينما تضعين راحة يدك فوق اللهب ولو طلبتُ منك انتظاري بينما ترتشفين كوب قهوة مخفوقة بالشكولاطة المفضلة لديك، لن يختلف الأمر فالدقيقة دقيقةٌ في كل الأحوال، لكنّ منطقك من يُنكر ذلك، فأنت التي توقن أن تجديفة في اتّجاه التيّار لن تماثل تجديفة عكسه ولن يكون لها الأثر نفسه، لكن ماذا لو كان المراد في الاتجاه المعاكس؟ هل ستجدفين مبتعدة عنه فحسب؟ الأشياء المتعبة قد تكون مثمرة قَطعا! الأمور البسيطة ليست حقّا بتلك البساطة... هل حقّا تُقاس الدقيقة بطولها الشعوري؟ أم بمقدار ما مدّتنا به من أشياء جميلة أو مفيدة؟ دقيقة على اللهب حصرت تفكيرك في الألم، بينما دقيقة ارتشاف القهوة منحتك ابتسامة وتفاؤلا ومتسعا للتفكير في أشياء جميلة، حتى أنّه ربّما أغرمَ بك أحد من بين الآلاف الذين مرّوا.

لعلك الآن تفهمين ماذا عنتْ ثانية من النظر في عينيك، ذاك الكمّ الهائل من الذكريات والخيال... لا تعتبريني شخصا واحدا يتأملك بل عيونا تقبع

خلفها مئة مليار خلية مرتبطة بمئة ألف مليار مشبك، كلها تتأملك في آن واحد مستهلكة خمسة عشر بالمئة من الدماء التي يضخها قلبي، ألفٌ ثمانون لترا في اليوم ما يعني جزءا من المئة خلال ثانية واحدة ، أ مازلتِ تعتقدين أن ثانية وقتٌ قصير؟

على فكرة ذاك الصبيّ خجل لاختلافه وأصبح ينطق الكلمة الأعجمية مثل الجميع.

تفكيري الدّائم في ميلين وابتسامي أثناء ذلك لم يكنْ سوى إرهاصات لحبّ وشيك...

مضى اليومُ جميلا مع ميلين في غيابِ والديها عن البيتِ، من المحتمَل أن يعودا غدا في الصّباح الباكر، غيابُهُما جعلَنا نشعُر ببعضِ الفراغ، ستصعُبُ عليّ مفارقَتُهم وقد أَلِفتُ صُحبتَهمْ خلال هذه الفترة الوجيزة... فجأة سمعنا الطّرقَ على الباب... لقد عادا! يا للمفاجأة. همستُ لها لاحقا:

– الحمدلله أنّك أعددتِ ما يكفي للعشاء وإلا باتَ أبوك جائعا.

ثمّ ضحكتُ كثيرا وهي تنظُرُ إليّ فاتحة عينيها على مصراعيهما وتعضُّ على أسنانَها.

-بل أنت من سينامُ جائعا أيها الغبي.

-لا حبيبتي... هل ستحرمينني من الأكل؟

-كلْ شيئا ما!

-لا يوجَدُ شيء لآكُلهْ.

حينَها قالتْ العبارة التي تشتَهِرُ بها الأمّهات الجزائريّات:

-كُلني أنا!

كانتْ ردودي ارتجالية دوما حتّى أنّي كنتُ أقومُ بالأفعال وأتساءل: كيف خطرتْ ببالي هذه الفكرة؟ اقتربتُ منها ثمّ غافلتُها وقمتُ بعضّ خدّها في غفلةٍ منها:

-لحمُكِ قاسٍ... لن آكلُك!

ضربتني تواليا على صدري بيديها النّاعمتين وقالت:

-آلمتني أيّها الغبي...

حينها أمسكتُ يديها وضممتُها ضمّة سريعة إليّ وانتهى الموقفُ بكثير من الدّعابة. بعدَ العشاء، سألني عمّي يغموراسن:

-إذن قرّرت البقاء، ما يعني أنّك تريد سماعَ بقيّة القصّة.

-أكيد عمّي، فهي مشوّقة خاصّة حينَ ترويها بطريقتك الخاصّة.

كنتُ أظنّه متعبا من الرّحلة غيرَ أنّه ضحِكَ وقال:

-إذنْ استعدّ للذّهاب.

بعدَ أقلّ من ساعة كنّا هناك من جديد، أقصد في دار الخابية، الجوّ نفسُه كما في كلّ مرّة... أقول "كما في كلّ مرّة" كأنّ ذلكَ يحدثُ منذ زمن بعيدٍ نسبيّا، الأمور التي تلامِسُ شغافَ قلوبِنا أو تثير انتباهَنا وفضولَنا تُنقَش في ذاكرتنا بشكلٍ أقوى، كمْ مرّة نتعرّف فيها على شخص ما ونشعرُ أنّنا نعرفه منذ سنوات؟ يعودُ بي هذا إلى الأمور التي نفعَلها مرارا وتكرارا ولا تنال نصيبا من اهتمامنا رغمَ أنّها كانتْ مميزّة إلى حدٍّ شكّلتْ فيه تحدّيا بالنّسبة لنا ذاتَ يوم، أتذكّر مثلا أنّه في مرحلةٍ من حياتي كانَ إشعال الموقِدِ حدثا مهمّا بالنّسبة لي...

كبرتُ وانفتحتْ عينايَ على مساحات أوسعَ من مطبخ البيت... ما يبدو شيئا برّاقا اليوم، قد يكونُ مجرّد شيء برّاقٍ غدا حتّى أنّ الحذاء الّذي أمشي به عبرَ هذه الطرق الوعرة، أثار جنوني يومَ كانَ تُحفة على زجاجِ محلّ الملابس. جلسَ عمّي يغموراسن راضيا تماما عن حجمِ الشّعلة، لفَّ "جلّابته" وثنى

أسفلَها فوقَ فخذيهِ، حملَ غصنًا... نكشَ به الأرضَ مطرِقا رأسهُ متأمّلا بعمق ثمّ رفعَه والنار تنعكسُ على عينيه بشكلٍ رهيب... ثمّ بدأ يسرِدُ بقيّة الرواية.

الفصل

الثّالث

لم يشعر "سمّاش" بالغرابة من شكلِ أڤمَد، فأصحاب قرية الدّفق البارِدْ مظهرُهُمْ مميّز، كما أنّهم لا يرتدونَ الثّياب الثّقيلة، فدرجاتُ حرارتهم تتأقلمُ مع حرارة الجوّ المحيط.

-جيّد إذنْ... لقدْ وفّرت عليّ الكثير من التعريف.

-ما الذي جاء بك إلى هنا إذن؟

روى له أڤمَد قصّتَه بدءا من أوّل يومٍ شغَلَ بالَهُ ذلك السؤال، إلى غاية قرارِه بالخروج للبحثِ عن جواب، كانَ سمّاش مستغرِبا من ذلك، من الطبيعيّ أن يهاجر أيٌّ كانَ من أجل المال أو العمل أو حتّى المتعة، لكنْ أن يهاجِرَ لمجرّد طلبِ جواب! فهذه سابقة لم يسمَع مثلَها من قبل.

-أعرفُ شخصا من الممكِنِ أنْ تجِدَ عندَه ضالّتَكْ.

ردّ أڤمَد بحماسٍ شديد:

-من هو؟ دلّني عليه.

-لا تتحمّس كثيرا، ليسَ الأمرُ بالبساطة الّتي تظنّها... حتّى وإن دللتُكَ عليه فلن يكونَ لذلك أيّ معنى.

-لم؟ ومن هو هذا الشّخص؟

-أما عن الشّخص فهو الملك وأما عن السّبب فأوّلا لأنّ الملك من المستحيل أن يستقبلَك خاصّة في حالته التي هو عليها...

-حالتُه الّتي هو عليها؟ وكيفَ تَعرِفُ كلّ هذه الأمور عن الملك؟

تنهّد سمّاش بعمقٍ وراحَ يسترجِع كلّ الذكريات التي حاولَ أن ينساها عبثا.

-قبلَ أن أصبحَ كما تراني، كنتُ صانِعَ قلائدِ المملكَة، كنتُ مقرّبا من الملِكِ... ومع سرقة الوزير "مغتوب" لشاربي، أصبحتُ نكرة وجُرّدتُ من وظيفتي ومن احترام الجميع لي... أما عن الملك فهو يعيشُ في حزنٍ منذ فقدانِه ابنَه في يومِ العار لمْ يكلّم أحدا من الشعب مذ ذاك اليوم...

-وما السّبب الثّاني؟

-سبب ماذا؟

-السّببُ الذي يمنَعني من محادثة الملك؟

-اه... نعم... أنتَ لا تملِكُ قلادة!

فكّر أقمَد قليلا ثمّ قال:

-قبلَ قليل قلتَ أنّك صانِعُ قلائد ما يعني أنّ الأمر أضحى أسهل.

-أبدا... يحتاجُ صنْعُ قلادةٍ لأحدِهِم إذنا من الملكِ نفسِه!

مشكلة... بل معضلة! يحتاجُ أڨمَد إلى قلادة للقاء الملك ويحتاجُ إلى لقاء الملك ليحصُل على قلادة! ما الحلّ الآن؟

فجأة طرقَ أحدُهم الباب... من تراهُ يزور سمّاشَ المنبوذَ المغلوب على أمرِه، هل هو غريبٌ آخر؟ فتح الباب في حيرة... تفاجأ بالرّسول الملكيّ يعطيه رسالة من الملِكْ. عاد مذهولا إلى مجلِسِه ومزّقَ ظرفَ الرّسالة في فضولٍ كبير وأسفرتْ قسمات وجهه، رفعَ رأسَهُ ونظَر إلى أڨمَد مذهولا قائلا:

-أبشِرْ...

-ماذا هنَاك؟ شوّقتني...

-الملِكُ يدعو الجميعَ أيّا كانوا إلى الأكل.

-وهل أمامي أيّة فرصة لمحادثتِه؟

-مم... تقُولُ الرّسالة أنّه من يستطِيعُ أنْ يُعِيد إلى الملِك شهيّتَه برؤيتِه يأكل سيحقّق له أمنية واحدة يتمنّاها.

أشرقتْ ملامِحُ أڨمَد حينَ سمِعَ هذا الخبرْ، ظنَّ أنّ الأقدار بدأت تبتسِمُ له، الأيّام الأفضل تلوحُ في الأفق...

....

تُوشُوشتْ كانَ متفاجئا من سماع كلمة الأفاعي من أخيه، لم يسبِقْ له أن سافَر خارج القرية لذلكَ لمْ يكنْ قد رأى هذا الجنسَ الغريب عنه. صاح مندهِشا:

-أقلتَ الأفاعي؟

استغربَ أخوه وأمّه من ردّة فعلِه المبالغ فيها، أجاب أخ توشوشت:

-نعم... قرية الأفاعي.

بينَما سألتْ أمّه:

-ما سرّ استغرابك؟

-لا... لا شيء.

استدار إلى أخيه وعيناه تبرقان بالفضول:

-احكِ لي قليلا عن هذه الأفاعي.

-آه... حسنا... كانتْ تسمّى قديما قرية الأفاعي وتسمّى كذلك قرية الدّفق البارد وتمّ تغيير اسمِها بعدَ ثورة طالَ أمَدُها، حيثُ لا تقتصر القرية على وجود الأفاعي فقط بل هنالك أجناسٌ غيرُها كالعلاجم والسّحالي... لكن بما

أنّ الأفاعي تتربّع على عرشْ السّلطة والقوّة هناك فقد فرضتْ نفسَها وسنّت كلّ القوانين بما في ذلك اسم القرية... استمرار الهيمنة لمدّة طويلة جعلَ بقيّة الأجناس تنسى اختلافاتها وخلافاتِها وتتوحّد معا لمجابهة الأفاعي التي استبدّت بالسّلطة. اندلعتْ على إثر ذلك ثورة عظيمة انتهتْ بالجنوح إلى السِّلمِ بعدَ الخسائر العظيمة الّتي لحقتِ الطرفين وكانَ من نتائج ذلك تغيير اسم القرية من "قرية الأفاعي" إلى "قرية الدّفق البارد".

كانَ توشوشت يستمِع في حماس كبير وناظراه لا يحيدان عن أخيه، تمنّى ألّا يتوقّف عن الكلام وأن يوَاصل فحسب.

-لكن ما سرّ التّسمية؟

-سُمّيت بهذا الاسم لأن الأجناس التي بها تستطيعُ تكييف حرارتها مهما تغيّرت درجة الحرارة والظّروف في الخارج.

استمرّ توشوشت في طرحِ الأسئلة، كأنّه يهدِف إلى شيء ما لم يجِدْهُ بعد.

-كيف بإمكانِها فعلُ ذلك هل تتّبع كل تلك الأجناس الطّريقة نفسها؟

ضحِكَ أخوه وقالَ:

-يبدو أنّك أصبحتَ أكثَر فضولا من قبل، ربّما يجدُرُ بك المجيء معي ذاتَ يوم... بالنّسبة لسؤالك، فكلّ جنسٍ يتبع طريقة مختلفة، لذلك تجِدُ أنّهم ينقسمون إلى ثلاثة فئات: الأولى تعدّل حرارتها بالاعتماد على عوامل جوّيّة كاستعمال أشعة الشّمس، أمّا الثانية فهي متغيّرة الحرارة فهي تغيّر من درجة حرارتها داخليا أمّا الفئة الأخيرة فهي بطيئة الأيض حيثُ تلجأ للنّوم إلى غاية أن يصبِح الجوّ مناسبا...

-هذه هي... هذه هي الّتي ذكَرها جدّي في مذكّراته ومخطوطاتِه!

أسرّها توشوشت في نفسِه دونَ أن تفضَح تعابيرُه ذلك، ثمّ قال:

-رائع... أنتَ تعرِفُ الكثيرَ من الأمور، أودّ المجيء معَك!

قرّر المجيء معَ أخيهِ لحاجَتِه إلى الوصول إلى الأفاعي، فحسبَ مذكّرات جدّه الوصول إلى الفضاء يحتاجُ إلى دمِها وإلا سيكونُ ذلك ضربا من الخيال، علاوة على أنّ دماءها غيرُ متوفّرة في الأسواق وسيحتاجُ الحصول عليها إلى خطّة محكمة.

-تذكّرت... كنتَ ستخبرُني عن سرّ جدّك قبلَ أن يصِلَ أخوك.

لو أخبرَ أمَّه بالسّرّ فقد تفشَلُ كلّ خططِه وستمنَعُه من الذهاب مع أخيه، لذلكَ ليسَ أمامَهُ خيارٌ سوى إخلافِ وعدِه الّذي قطَعه لها، لن يُطلِعَها على ما توصّل إليه هذه المرّة... أجاب:

-نعمْ... كانَ جدّي صلبَ الإرادة ومجتَهِدا، لذلكَ سأكون مثلَه وأستمرّ في البحث إلى أن أجدَ حلّا يوما ما!

اطمأنّت الأمّ واستقرّت أنفاسُها، ابتسمتْ وقالتْ:

-نعم يا بنيّ، ستتنجح يوما ما.

-هل تسمَحينَ لي بمرافقة أخي في بعضِ مهمّاته؟

-نعمْ أكيد، كما أنّه يجبُ عليكَ أن تبدأ عملا ما، قريبا ستغدو بعوضةً ناضجةً يُعتَمَدُ عليها.

....

بعدَ حوارِ الملك "حمّان" مع زوجتِه وإبدائها دعمَها المطلق له، قامَ بدعوة جميع من في المملكة إلى قصرِه، لم يستثنِ أحدا، حتّى أنّه دعا المساجين كذلك. لم يَكنْ الوزير "مغتوب" راضيا عن ذلك البتّة، بل دعنا نقول أنّه كانَ ساخطا على القرار ومتخوّفا من عواقِبه، هو للآن لم يستَطِع إقناعَ جنرالات

الجيش بالانقلاب على الملك رغمَ العلاقة الوطيدة التي تجمَعُه بهم ورغمَ بداية اقتنَاعِهم أنّ الملِكَ لم يعُدْ بمقدورِهِ الحُكم... ليتَه كانَ يملِكُ على الأقل ابنا يرثُ مُلْكَه.

عَزَم مغتوب هذه المرّة على إقناعِهم، بذلَ كلّ ما في وسعه وأغراهُم بصلاحيّات أوسع وخيراتٍ أغدقْ حتّى أنّه أخرجَ أحدَ الشّوارب الخمسة ووَضَعها على طاولة المفاوضات. في الواقع لم يكن الجنرالات مهتمّين بإغرائه وإنّما كانوا قلقين على مآل الأمور، نفّذوا أوامر مغتوب لمدّة طويلة لأنّهم ظنّوا أنّها أوامر الملك نفسِه، لم يكنْ حال البلاد يرضِيهم تماما، لذلك تنازلوا هذهِ المرّة من أجل مناقشة خطّة مغتوب.

بدأ سكّان المملكة يفدون إلى القصر، سيُمنَحُ كلّ واحدٍ منهمْ فرصة للأكلِ أمام الملك حمّان ومن ينجَحُ في إثارة رغبة الملك في الأكل والتلذّذ به سيحظى بتحقيق أمنية واحدة، كانتْ الحراسةُ مشدّدة جدّا، استطاعَ الحرّاس توقيفَ شخص أثار الشّكوك، أمّا بقيّة الحضور فيبدونَ مسالمين مبدئيّا.

في السّاعة المحدّدة بدأ التّحدّي من الطرفين، الملك والحضور، هو يريد استعادة الحياة وهم يمنّون أنفسهم بالحصول عليها، سيخسرون جميعا أو

يفوزون معا، أدخل الحرسُ الملكيّ كلّ واحدٍ على انفراد، لم يكُنِ العددُ كبيرا جدّا، في كلّ مرّة حاولَ أحدُهمْ التلذّذ بالطعامِ أمام الملك كانَ يفشلُ في ذلك، واحدا تلوَ الآخر فشلوا جميعا، بدأ الملكُ يفقدُ الأمل في هذه الأثناء، إنّما لم تكنْ تلكَ أكبرَ مصيبة، بل أنّ المصيبة الحقيقيّة هي الانقلاب الذي سيحدُث في حال فشلِه في استعادة نفسه... في استعادة روحه فقد كانَ اتّفاقُ مغتوب مع الجنرالات يقضي بالانقلاب على الملِك إذا تبيّن لهم اللّيلة أنّ عودتَه إلى سابقِ عهدِه مستحيلة.

-التّالي!

-لم يبقَ أحد سيدي الملك.

-كيف يعقَل هذا...؟

-بقيَ شخصٌ مشبوه أوقفناهُ حضرَ برفقة المغضوب عليه سمّاش.

-أحضروهما معا!

أحضرَ الحرَسُ كلّا من أڤمَد وسمّاش. نظرَ أڤمَد إلى الملِكْ وبدا متفاجئا لحدّ لا يوُصف، إنّه أكثرُ شخصٍ شبها بسمّان عازِف قرية الأفاعي، كما أنّ الحرقَ نفسَهُ موجودٌ على يدِه، كيفَ فاتَهُ هذا؟ سمّان ينتمي إلى هذه المملكة،

ليسَ هذا فحسب بل إنّه ابنُ الملكِ الضّائع! قرّر أڤمَد إخفاء الأمر، فقد يستخدِمُهُ كورقة رابحة إن أخلفَ الملكُ وعده. بعدَ مثولِهما أمام الملكِ الغاضب سألَ:

-من أنتَ أيها الغريب؟

تكلّمَ سمّاش وقال:

-ليأذن لي جلالة الملك لأتكلّم عنْه.

حينَها انفعَل الوزير الّذي كانَ قدْ بدأ فعلا الاحتفال بالنّصر والإعداد للانقلاب قبل ظهورِهما، خشية أن يحدُثَ طارئ يُفسدُ خططه.

-اأذنْ لي -جلالتُكَ-بضرِبِ عُنُقِه.

-اهدأ يا مغتوبْ، تكلّم يا سمّاش هاتِ ما عندَكْ!

-في الحقيقة يا سيّدي هذا الغريبُ بجانبي يُدعى أڤمَد وقد جاء من مكانٍ بعيد من قرية الأفاعي وقد أحجَم عن الحديثِ احتراما لقوانيننا واحتراما لذاتِكْ.

-ما سببُ قدومِه؟

-يحتاجُ إلى جوابٍ لسؤال يهمّه كثيرا وظنّ أنّ بوسعِ سيادتكم أن تدلّوه على "قرية العرّاف" الذي بوسعِه أن يجيب على سؤالِه.

-ولمَ قد أدلّه عليها؟

-يظنّ أقْمَد أنّ بوسعِه إعادة الشهيّة لك! بل وجعلِكَ تتلذّذ بالأكلِ من جديد!

أسفرتْ ملامِحُ الملِكِ وقال:

-إذن فليبدأ.

-هل تأذنُ له بالحديث يا سيدي؟

-تكلّم يا أيّها الأفعى أقْمَد.

-أشكرك سيدي... أما بعدَ فإني أحتاجُ لتحضير وجبة خاصّة ستعيدُ إليكَ شهيّتك ومكوّناتُها غير متوفّرة هنا.

-وما الّذي تحتاجُ إليه؟

-أحتاجُ إلى بعض الفئران فإذا أذنتَ لي، سأذهبُ إلى هناكَ وأحضرُ ما أحتاجُ وأعودُ لتحضير الوجبة لك سيّدي.

أبدى الملك موافقَتَهُ وسمَح لأقْمَد بالذّهاب إلى قريةِ الفئران.

....

عادتِ البعوضة الّتي تبِعتْ سمّان أثناء مهمّتِه إلى قرية اللّيل، فقدْ كلّفها أهلُ القرية بأن تتبَع صاحبَ المزمار. قامتْ بنقل الأحداثِ كاملة إليهِم وطبعا دفعوا إليها مستحقّاتها ببعضِ الدّماء الحارّة المرتفعة الثّمن. عرفوا عندئذ أنّهم يواجهونَ أعداء أقوياء، لذلك يجبُ التّحضير جيّدا لمعركة طاحنةٍ يغزونهم خلالها بشكلٍ مفاجئ حتّى لا يتسنّى لهم تنظيم أنفُسِهم والردّ بقوة، سكّان قرية اللّيل بارعونَ في التخفّي والتسلّل، أنيابُهمْ قاطعة وبعضُهم يحمل الكثير من الجراثيم القادرة على قتل من يعضّهُ، بإمكانهم هدمُ قريةٍ كاملة قبلَ أن يشعُر سكّانُها بذلك، لكنّ عدوّهم هذه المرّة هم الأفاعي التي يمكِنُها الشّعور بهمْ حتّى قبلَ رؤيتِهم، حتّى أنّ سمّها أفتك وهم أضخمُ حجما. لمْ يكدْ حديثُهم عن الأفاعي ينتهي حتّى جاء الحرّاسُ وهُمْ يَجرّونَ إحداها، هذا ينذِرُ بالخطر المُحدِق، يبدو أنّ الأفاعي قد سبقتْ بالهجوم هذه المرّة. نهَرَه كبير الحرس قائلا:

–من أنت؟ عرّف بنفسك!

–أنا أقمَد من قرية الأفاعي سيّدي.

–ما الذي أتى بك إلى هنا؟

-أريدُ الحصولَ على فأر من أجل إعداد وجبة.

حينَها ضرَبه ضربة على رأسه أفقدتْهُ وعيَه، لم يستفق إلى وهوَ خلفَ القضبان وحيدا. كانَ يتساءل: لماذا لا يحبّ الغير من يخبِرُهم الحقيقة؟، لم يَكنْ سؤالا بديهيا يطرَحُه شخصٌ أبله، بل كانَ سؤالا عميقا إلى النّخاع، ألمْ يكنْ يُفترَضُ بِهِمْ أن يسألوه عنْ أشياء أهمّ عندما تبيّنوا أنّه صادق؟ لو كذب في إجابتِه الماضية لربما أمهلوه وقتا أطول ليجيب عن كلّ ما يريدون... يا لهمْ من حمقى!

كانَ من الأفضلِ له الذّهاب إلى قريتِه أينَ يوجَد سّمان الذي بإمكانِه تدبّر فأر له بكلّ سهولة، لكنّ قرية الدّفق البارد بعيدة وهو ليسَ بالسّرعة الّتي تخوّله الوصولَ إليها سريعا، فالمَلكُ حمّان ينتظِرُه فاقد الصّبر ويجبُ ألا يطولَ غيابُه. بينما كانَ يُفكّر دخل كبير الحرّاس من جديد مستشيطا غضبا.

-إذن... لقدْ أفقتَ أيّها القذرْ.

ظلّ أڤمَد محافظا على هدوء أعصابه فليس بيدِه فعلُ أيّ شيء إن غضب ولن يسَاعدَه ذلك في الحفاظ على تركيزه.

-سأكرّر السؤال... لماذا جئتَ إلى هنا؟ هل أنتَ جاسوس؟

-كلّا سيدي، أنا لم أكذب منذُ البداية.

-هل أرسلَك صاحبُ المزمار للتتجسّس علينا؟

-صاحبُ المزمار؟

-القطّ صاحبُ المزمار الذي نكّل بنا، ما علاقتك به؟

في هذه الأثناء بدأ أقمَد بربط كلّ شيء، علمَ أنّ صاحبَ المزمار هو نفسُه سمّان العازف، فهو في ذاتِ الوقتِ تاجرُ فئران بنى ثروتَه على صيدها وبيعِها.

-أظنّني أعرفُه.

-تظن؟ ها؟

-أقصِدُ أنّي متأكّدٌ من هوّيّته لكن صدّقني، لا علاقة لي بما يفعَلُه.

-قلتَ قبلَ قليل أنّكَ جئتَ لصيدِ فأر من أجل إعداد وجبة!

-يبدو أنّك فهمتني خطأ سيدي، لقد جئتُ لأطلبَ فأرا.

-أ تستهزئ بي أيّها المعتوه؟!

-على الإطلاقِ سيّدي... أريدُ عقدَ صفقة.

-تقولُ صفقة؟ وما الذي بإمكانِ سجينٍ أن يقدّمه لنا؟

-بإمكاني أنْ أكفيَكمْ شرّ صاحب المزمار.

تفاجأ كبير الحرس وهو يسمَعُ هذا الكلام، إن كانَت هذه الأفعى صادقة فيمكِنُها أن تجنّبَهم حربا طاحنة.

-هاتِ ما عندك.

روى أڤمَد لكبير الحرس قصّتَهُ كيف خرجَ للبحث عن جواب وما حدثَ في طريقِه إلى هنا مرورا بما يحدُثُ في قرية الصّمت وحال ملكها حمّان.

-حسنا أيّها الغريب، رغمَ أنّي لا أثق بك، إلا أنّ كلامكَ يبدو صادقا. لكنّك لم تقل لي ما الذي تُريدهُ مقابلَ إيقاف صاحب المزمار؟

-سبقَ وأخبرتُكَ سيّدي، أريدُ فأرا لأعدّ وجبة للملك.

فكّر كبير الحرس قليلا ثمّ أبدى موافقتَه، فأر واحدٌ يبدو ثمنا قليلا مقابلَ كلّ تلكَ الأعداد التي يقضي عليها سمّان ومقابل ما يُمكْنُ أن تخلّفه الحرب من ضحايا.

-لكنّك لن تخرجَ من هُنا ستبقى تحتَ رقابتِنا!

- وكيفَ يُمكِنُ لي أنْ أتواصل مع صاحب المزمار؟

-سنتولّى هذا الأمر.

في ذلك الحين كانَ كبير الحرسِ قد أرسَل في طلبِ البعوضة من قرية المثقاب المجاورة.

-ستكونُ البعوضة الوسيط بينكما، ستأتي قريبا.

....

نهضَ توشوشت سعيدا بعدَ الإفطار، فقد صارَ يعرفُ ما يتوجّب عليهِ معرفَتُه أخيرا، سيثبتُ أنّ جدَّهُ كانَ مُحقّا. نظرَ إليه أخوه وقال:

-لقد تمّ تكليفي قبلَ قليل بمهمّة بسيطة وأظنّك قادرا على تأديتِها.

-وما هيَ؟

-ستكونُ وسيطا تنقُلُ الرسائل بينَ شخصين، أحدُهما من قرية الأفاعي والآخر من قرية الفئران.

-نعم... سأفعَلُ ذلكَ... لكن متى؟

-الآنَ، سيكونونَ في انتظاركَ في قرية الفئران المجاورة، سأصحَبُكَ وأزكّيك عندَهم وسيكونُ عليكَ القيام بالباقي، ليسَ بالأمر الصّعب على كلّ حال.

طار الأخوان بعد أخذ موافقة أمّهما في الحينِ إلى قرية الفئران، أينَ ينتظرهما كبير الحرّاس وأقمَد، انتظرَ توشوشت ريثما يقدّمهُ أخوه ويزكّيه لدى كبير الحرّاس ولم يستطع أن يُبعِد نظَرهُ عن الأفعى أقمَد. بعدَ فترة وجيزة حملَ رسالَتَه وطارَ بسرعة إلى قرية الدّفق البارد، ما يميّز البعوض هو سرعَتُهُ الجنونيّة الّتي تمكّنُهُ من اختصار الوقت والمسافات، لذلك هو مطلوب في مهمّات مماثلة. وصلَ توشوشت إلى سمّان باستعمال وصفِ أخيه وتسلّل إلى بيتِه مستخدما مهاراتِه الفِطرية رغمَ ضخامة جسْمِه، بعدَ أنْ تأكّد من هويّة سمّان، تعمّد إثارة انتباهه متوجّها إليه بالحديث. في الحينِ أخرجَ سمّان مخالِبَه وهمّ أن ينقضَّ على هذا الدّخيل لولا أنّه تكلّم بسرعة وقال:

-أرسلني أقمَد إليك!

هدأ سمّان ليستَمِعَ إلى توشوشت:

-أنا من قرية البعوض، أرسلني إليكَ أقمَد لأبلّغكَ رسالة.

-ما فحوى الرّسالة؟

-يقولُ أنّه يريد منكَ عهدا بالتوقّف عن صيدِ الفئران.

-فليذهب إلى الجحيم، أخبرهُ بهذا.

-طلبَ منّي أن أخبركَ أنّه يعرِفُ شعوركَ بالإختلاف وأنّه يستطيعُ مساعدتك أكثر ممّا تتصوّر.

-كيفَ هذا؟

-قال أنّه عليكَ الذّهاب إلى حكيم القرية أوّلا ثمّ التواصل معَه من جديد حينَ تغدو مستعدّا، أمّا أنا سأعودُ غدا بعدَ العصر لسماعِ ردّك.

طارَ توشوشت تاركا سمّان في حيرة، ظنّ طولَ الوقتِ أنّه يعيش في جحيم الاختلاف وحيدا، بينما كانَ هنالِك من يشعر به، هل يُعقَل أنّه سيتمكّن من مساعدتِه حقّا، هل يعرِفُ سرّ هذا الاختلاف؟ أصرّ في الماضي كثيرا على والِده ولم يجدْ جوابا شافيا، لنْ يخسرَ شيئا بذهابِهِ إلى الحكيم، حاليّا هو ليسَ بالرّفاهيّة الّتي تخوّلهُ أن يختار. خلال ساعة، كانَ سمّان على باب حكيمِ القرية وقبلَ دخولِه توجّه إليه الحكيم بالكلماتِ نفسها التي وجّهها إلى أقمَد قبله:

-هنا ستجدُ كثيرا من الأسئلة ولا جواب!

كانَ حوارُه مطابقا للحوارِ الذي قبلَهُ بتفاصيلِه، كلماتُ الحكيمِ تشبِه دواء يوصَف لجميع المرضى باختلاف عِلَلِهِمْ. خرجَ أخيرا سمّان من عندِه ووضع الصّدفة على أذنِه وسمِع السّؤال:هل نحن حقّا نحنُ؟ أمْ أنّنا من أخبرنا

الآخرونَ أنّنا عليه؟ إنّه السّؤال الذي وضَعَهُ أقمَد في الجحر قبلَ هِجرَتِه، كانَ الحكيمُ مُحقًّا في كلامِه، الأسئلة تجدُ من يحتاجون لطرحِها وليسوا همْ من يجدُونَها. باتَ تلْكَ الّليلة مشغولَ البالِ كحالِ كلّ من يطلُب أجوبة عند حكيم القرية، بالكادِ مرّتْ وبالكادِ جاء عصر اليومِ التّالي، جلسَ منتظرا البعوضة نافدَ الصّبر.

بعدَ بُرهة جاء توشوشت في الموعِد المحدّد وسأل من دونِ مقدّمات:

-ما هوَ قرارُك؟

-أوافقُ على عقدِ الصّفقة الّتي يُريدُها أو أيّا كانت.

-جيّد... يقولُ أنّه عرفَ والديكَ الحقيقيّن.

كانتْ دهشة سمّان في غاية الشدّة حتّى أنّ لسانَه سبقَه قائلا:

-من؟ من هما؟

-يريدُ أن يلتقيَك أولا لكيْ تُقسِمَ له على عدم صيد الفئران مجدّدا.

-أين؟ متى؟

-ما دمتَ موافقا فيمكنني أن أحملَك إلى مكانِ اللّقاء.

صعدَ سمّان على ظهر توشوشت وطارَ بهِ إلى مشارفِ قرية المثقاب المحايدة، أينَ كانَ ينتَظرهُ أقمَد مقيّدا وخلفَهُ بعض الحرس. لم يكُنْ أيّ من سمّان والفئران يطيقان النّظر إلى بعضِهما، لذلك اكتفى بالحديث إلى أقمَد.

-ماذا تعرِف عن والديّ، أرجوا ألّا تكونَ مجرّد خدعة وإلا ستكونُ نهايتُك على يدي.

-أحتاجُ ضامِنا لأنّك لن تعود لصيد الفئران.

حينَها نزعَ سمّان المزمار من على عُنُقه ووَضعَه في يد أقمَد وقال:

-هل هذا كافٍ؟

أقمَد يعرِفُ ما يعنِيه المزمار بالنّسبة لسمّان، لذلك اعتبَره كافلا لصدقِه، حينَها ابتسمَ والتفتَ إلى كبير الحرس وقال:

-سأتركُ المزمارَ عند القطّ "سمّان" إلى غاية إعطائي الفأر وخروجي سالما.

ثم خاطبَ سمّان قائلا:

-وأنت لن تحصُلَ على ما تريد إلّا بعدَ أن أعود سالِما وتعطيني المزمار.

عادَ أقْمَد مع كبير الحرس إلى قرية اللّيل أينَ أعطاهُ فأرا من الفئران الخائنة المحكومة بالإعدام سلفا، لم يكنْ بوسعِه إلّا أن يأمَلَ أن يكونَ الأفعى أقْمَد صادِقا في وعدِه كما بدا من حديثه. عادَ أقْمَد إلى سمّان وأخذ منهُ المزمار، حينها عرضتْ عليهما البعوضة توشوشت خدماتها مجدّدا:

-يمكنني أن أوصلكما إلى قرية الصّمت في الحين.

سألَها أقْمَد:

-وما المقابل؟

-أريد القليل من دمك.

كانَ أقْمَد مضطرّا للرّضوخ لعرض توشوشت، لأنّه لا يدري ما قدْ يحدثُ خلال هذا الوقتِ الذي يطيل فيه غيابَه عن الملك. لذلك ركِبا على ظهرِ توشوشت فأوصَلَهما إلى مبتغاهُما وعندَ وصولِهما أعطاه قطراتٍ قليلة من دمِ الأفاعي النّادر.

تمكّن أقْمَد من حلّ مشكلة أرض اللّيل، يُمكنُهم الآن العيشُ في أمان، سيستغرقُ الأمرُ منهمْ مدّة معتبرة قبلَ أن يعتادوا على السّعادة التي زفّتْ إليهِمْ بفضل هذا الغريب، كانَ يسيرُ في الأرضِ كالغيثِ، يروي الزّهور المحتضرة

ويضفي الحياة أينَما حلّ وارتحل، أُعطيَ القبول بين المخلوقات، لذلكَ جعلَ كلّ من يلتقيه يرتاحُ لهُ ويصدِّقه، إنّها هبةٌ نادرة ورزقٌ عظيم. طلبَ من سمّان أن ينتظرَ بينما يهيّئ الأمور للقائه مع أسرتِه في بيتِ سمّاش وأوصاه بعدم الكلام مع أيّ كانَ مهما كانَ السّبب وعدمِ كشف العلامة الّتي على كتِفِه.

دخلَ على الملِك من جديدٍ وطلبَ منهُ أن يسمَحَ له بتحضير الوجبة بحضُورِه، هكذا لن يقاوِمَ رائحة الطّعامِ اللّذيذة أمرَ الملكُ فورا بإحضار كلّ المعدّات إلى إيوانه.

كانَ أقمَد يُعدّ الطّعام والملكُ يأمل بشدّة أن ينجَحَ الأمر، من كانَ يعتقِدُ أنّ الملكَ سيوضَعُ مصيرُه ذاتَ يومٍ بينَ يديْ مجهول؟ بعدَ برهة بدأت تنبعثُ الرّوائح الزّكيّة من القِدر، أشعرتِ الملِك بشهوة عظيمة إلى الأكل بحيث كادَ في مرّات عديدة يتناسى هيبَتَه كملكٍ ويسأل عن الطّعام إن كان قد نضج. أخيرا نضجَ الطّعام، أفخاذ الفئران المكتنزة مع الدّهن الأحمر الشهيّ المصنوعِ من دمائها وأحشائها، وضَع الملك لقمة في فمِه وسطَ ترقّب الجميع، شعَر بطعمها الآسر، كأنّ الطّعام من الجنة، انتعشتْ روحُه ومن دون أن يشعر تنهّد مبتسما بعمقٍ وإحساس لأول مرّة منذُ زمنٍ بعيد، أكلَ بشراهةٍ لا تليق بملك، لمْ

يَعدْ يكترثْ، الشّهوة حينَ تطغى على العقل تجعَلُ كلّ العواقب تبدو تافهة، أكلَ الطّبق إلى آخر لقمة ثمّ لعقَه. صرخَ بشكلٍ مفاجئ صرخةً مدوّية ظنّ على إثرها الحضور أنّه أصابهُ شيء، تغيّرت ملامحُ وجهه وأصبحت أكثرَ إشراقا، التفتَ وقال:

-أطلب ما تشاء أيّها الأفعى!

-أريد من سيادتك أن تسجنَ الوزيرَ مغتوب وتعيد كل الشّوارب لأصحابها.

انتفضَ الوزير من مكانِه صارخا:

-عليك اللّعنة أيها الـ...

لكنّ الملك نهَرَهُ وأمَرهُ بالتزام مكانِه ثمّ قال لأقمَد:

-أنتَ تطلبُ المستحيل، فمغتوب بذل حياتَه في خدمة المملكة، ما السبب الذي يجعلك تريد سجنَه؟

-أنتَ لا تعرِفُ ما فعَلَهُ باسمِكَ يا سيّدي...

استلّ مغتوب مخلبه وأراد طعنَه غير أنّ الحرس قاموا بإيقافه وأمرَ الملكُ بتقييده.

-وماذا فعل؟

روى له أقمَد ما أخبرهُ به سمّاش عن ظلم مغتوب واستبدادِه وتسلّطه على الشّعب، حينَها تقدّم أحد الجنرالات نيابة عن البقيّة وطلبَ الإذن من الملك كي يتكلّم، أذنَ له الملكُ بالكلام فأكّد أقوال أقمَد وأخبرَهُ أنّهم كانوا لا يشكّون في إخلاص الوزير له لذلك لم يكذّبوا الأوامر التي أعطاها لهم باسمِ الملِك. حينَها أمرَ الملِكُ بسجنِ الوزير وتجريده من الشوارب الّتي يملكها وإعادتها إلى أصحابِها. أقمَد الّذي جاء من أجلِ هدفٍ آخر لم يتوانَ في طلبِه من الملك قائلا:

-هل ستحقّق وعدَك لي يا سيّدي؟

-تقصد أن أدلّك على قرية العرّاف؟

-أجل....

-للأسف وعدتكَ بإنجاز أمنية واحدة فقط ولقد أنفقتها للتوّ.

أقمَد كانَ أعدّ نفسَه لموقفٍ كهذا، أجابه:

-وماذا لو أعدتُ إليك ابنَكَ الضّائع؟

تفاجأ الملك بما قالَه أقمَد وقد صارَ يعلَمُ أنّ هذا الغريبَ قادرٌ على صُنعِ المعجزات

-إن كنتَ حقّا قادرا على أن تستعيد ابني من جديد سأحقّق لك كلّ الأمنيات الّتي تطلُبُها.

أقمَد أيضا تأكّد من أنّ الملِك ينجز وعودَه، حينها توجّه بكلامِه نحوَ الباب وقال: يمكنكَ الدّخول...

دخلَ سمّان بطيئا بخطواتٍ مذهولة، لمحَ أثناءها العلامة الموجودةَ على ذراعِ الملك حمّان، لم تكنْ تسَعُ الأرضُ فرحَتَهُما بهذا اللّقاء ولا الكلمات كانتْ تقوى على التّعبير عمّا يخالجُهما من مشاعرَ مختلطة بينَ الفرحة والحسرة على الماضي والحماس للقادم... خرجتِ الأمّ مسرِعةً من خِدرِها هرولتْ إلى ابنِها الضّائع منذ سنوات وأخيرا! عانقَ سمّان والديهِ من جديد وعادَ إلى حيثُ ينتمي. انتظرَ أقمَد انتهاء هذه اللّحظات العاطفية، لم يشأ مقاطعتهم فهو يعرِف مدى الشّوق الذي يجتاحُهم بعدَ أنّ جرّب الابتعاد عن قريتِه.

طلبَ من سمّان أن يقسِم قسما ملكيّا أنّه لن يعودَ لصيد الفئران أعاد له على إثرِه المزمار. أمّا الملكُ حمّان فأعطى أقْمَد مرادَهُ ودلّه على الطريق السريّ الذي يؤدّي إلى قرية العرّاف وأعطاهُ قلادةً وقال:

"خذها قد تحتاجُ إليها واحذر من العجوز السّوداء، كذّبها مرتينِ وصدّقها مرّة واحدة وإن وصلتَ إلى أرض الجنّ وبدا النّجم الأحمر، فتسلّق الأشجار ولا تتحرّك إلى أن يطلعَ الفجر فلن يستطيعوا أذيّتك حينها ولا تُصدّقهم أبدا واستمرّ إلى أن تطأ أرض النّور التي على بابِها يقفُ النّاسك الصّادق عندَ شجرة غصناها متشابكان كالأيدي المتصافحة، ذلكَ اختبارك الأصعب فإذا حلك اللّيل فصدّق الفجر".

حملَ أقْمَد وصايا وهدايا الملكِ وحفظها عن ظهر قلب وباتَ اللّيلة في القصر وفي الصّباح وقبلَ أن ينطلقَ في رحلتِه ودّعهُ سمّان قائلا:

-أنا مدينٌ لكَ بخدمة، اطلبني متى شئت ولن أخذلك.

سَراب...

انطفأت الشّعلة وانتهتْ السّهرة اليوم، نهَض عمّي يغموراسن آذنا بالعوْدة إلى المنزل، أصبَحَت القصّة أكثر غموضا وتشويقا، لكنْ القوانين هي القوانين، سننتظر يومَ غدٍ لنسمَعَ بقيّة الحكاية. كنتُ مستعِدًّا لقضاء الأسبوع هنا في قرية "آث سعيد" الفاتنة، حينَ أعودُ سأصطدم بواقِع العمَل والانشغال من جديد لكنّني سأضبط أموري هذه المرّة، سأتوقّف عن التّدريس في الأماكن الّتي تتطلّب منّي السّفر، سأكتفي بالأماكِن القريبة وبوتيرة منخفَضة، أعلَمُ أنّ العائلة هي الأهمّ لكنّ مشكلتي تجلّت في شعوري أنّ تلاميذي همْ أيضا عائلة، كانَ ذلك شعوري لعلّه يكون من طرفٍ واحد فحسب، لكنّه وإن كانَ وهما فقد أبقاني متحمّسا طيلة المدّة الماضية، جعلني أحبّ ما أقومُ به ولا أملّ منه، جعلَني أقدّم ما لديّ مبتسما لا مكرها.

الآنَ أفهمُ أنّ علينا أن نحذَر إدمانَ الأشياء الّتي نحبّها وإذا اضطررنا لذلك، فعلينا ألا ندمِنَ أمرينِ قد يتنازعاننا في اتّجاهين مختلفين فقد يُمزّقنا ذلك يوما، هذا ينطبقُ على ميلين إدماني الأكبر والعملِ الّذي بدأ يستحوِذُ عليّ،

بدأت أفهمُ كذلك أنّ جلبي إلى هذا المكان هو بمثابة إدخالي إلى مركز لإعادة التّأهيل والتخلّص من الإدمان وأقصد إدمانَ العمل.

أمّا ميلين فهي درجةٌ لا رجوع، يتوقّف عندها الجسد عن الاستجابة إن غابت، بدأ ذلك منذ أيّام الجامعة بالتّحديد بعدَ لقائنا في دار الثّقافة... موعدنا الأول، بعدها كنتُ أكتبُ لها رسائلا وأشعارا ثمّ أحتفظ بها لنفسي، لا شيء بيننا رسميّ رغمَ وضوحِه، خبرتي الطّويلة في الحبّ جعلتني أستبِقُ الأمور، الصّداقة التي تجمَعُ الأصدقاء عاشت أوّل حياتِها كحبّ ثمّ أخذتْ مسارا جديدا بعدَ أن طال عليها الأمد، فرصتي مع ميلين سانحة الآن، إنْ لم نضبط الأمور بالصّراحة قد يتحوّل حبّنا إلى صداقة ويضيع كلّ شيء جميل تخيّلته. اتّصلتُ بها ليلا لنتسامر كثيرا، أسعَدها اتّصالي جدّا، من الواضح أنّها كانتْ في انتظاره، تكلّمنا لدقائقَ طويلة، عادة ما أتساءل عن كلّ الأمور الّتي تحدّثنا عنها وكيفَ أنّ الكلمات لم تكن تنفد منّا، تنتهي الأوقات الرّائعة عندَ المرأة بانتهاء الكلمات، كانَ ذلك أسوء سيناريو قد يحدث مع شخص أتعرّف عليه حديثا، كانَ يجبُ أنْ نستمرّ في الحديث فحسب، كانتْ خطّتي الاحتياطية هي التّظاهر

أنّي سأذهب للنّوم بسبب النّعاس في حال نفدت منّا الكلمات. بعدها جاء وقتُ الحسم، سألتها:

-هل تريدين أن نصبِحَ معا؟

ارتبكتْ وتخلّل الصّمتُ كلماتها.

-معا... كيف؟

-هل تحبّينني؟

لم تستَطِع الإجابة، شعرتُ بالاستياء الشّديد من ذلك، قلتُ لها أنّي سأعاود الاتصال بها... لم أكنْ أنوي فعلَ ذلكَ حقّا، فقدْ قرّرتُ أن الأمرَ انتهى بيننا، اتّصلت بصديقة لي بعدها غيرَ أنّ الاتصال بها تعذّر، كنتُ أعيش حالة من الاستياء ولم يكن بوسعي أن أبقى صامتا طيلة اللّيلة، لذلك عاودتُ الاتصال بميلين، أخبرتُها بهدوء أنّنا لن نلتقي مجدّدا، لكنّها لم تكن موافقة، ربّما جعلني ذلك أشعُر بالإرتياح لعدمِ كوني مرفوضا، حينَها قلتُ لها:

- إن التقينا مجدّدا سأدفعك أمامَ سيّارة لتدهسك...

قالت ضاحكة:

-موافقة، كلّ ما يهمّ أن نلتقي ثمّ ادفعني أمام السّيّارة...

سهرنا إلى وقتٍ متأخّر تلكَ اللّيلة، لعلّ هذا الغموضَ الذي يكتنِفُها ما جعلني أحبّها أسرع، لطالما أحببتُ الغموض والألغاز، شعرتُ بكثير من الإلهام يوحى إليّ، شغّلتُ موسيقى الكمان الجهير وكتبتُ لها قصيدة بعنوان "رجل حجري" كانتْ مليئة بالإحساس والرّموز والمعاني، ألقيتُها في جيبِ معطفي كالعادة ونِمْتُ.

التقينا في الجامعة من جديد في الصّباح، كانتْ تلك الأيام لا تقلّ جمالا عن هاته الأيام الّتي أعيشها الآن، عرّفتني بأصدقائها الّذين غدوا أصدقائي أيضا بعدها، قضينا معا أوقاتا ممتعة جدّا، كانوا يظنّون أنّنا حبيبان بينَما كنّا كذلك حقّا لكن دونَ أن نعترِفَ لأنفسِنا، أحيانا لا نرى أنفُسنا إلّا إذا نظرنا إلى عيون الآخرين ولن نكونَ صادقينَ مع قلوبِنا بقدرِ صدْقِ كلمات الآخرين، قرّرتُ الفصلَ في الأمر نهائيّا...

اتّصلتُ بها ليلا من جديد، تحدّثنا قليلا غيرَ أنّ صديقَتَها "أسماء" أرادت الحديث معي كذلك، كانتْ لطيفة جدّا وطيبة، بدأنا الحديث عن ميلين... الرّابط الذي جمَعنا.

-هي تحبّك لكن هناك أمور أخرى...

-إن كانتْ تحبّني فعليها التّصريح بذلك، ليس من الممكن أن نستمرّ كما نحن.

-هي خائفة من حبيبِها السّابق، تخشى أن تحدُثَ بينكما مشاكل.

يبدو أنّ ميلين لديها مهوس من نوع "الحبيب السّابق"، لم أتفاجئ بالأمر، فمن المستحيلِ ألّا يكونَ لجميلة مثلَ هذه مهوسون بها. فهمتُ كلّ شيء الآن، سيكون عليّ مسايَرَتُها فحسب وإقناعُها بمخاطبة عقلِها حتّى تزول الغشاوة من على عينيها، لذلك في المرّة المقبلة الّتي التقينا فيها قلتُ لها:

- من عادتي أنْ أسمّي من أحبّهم بأسماء دلع.

-حقّا...؟ وماذا تريدُ أن تسمّيني.

-دعينا نرى، همم... همم...

كانتْ تثبّتُ عيونَها عليّ وتنتظر ضاحكة بينَما أدّعي التفكير وأنا أغمض إحدى عينيّ وأفتحُ الأخرى بتقشّف:

-ميراج!

ضحكت مسرورة وقالتْ:

-لمَ هذا الإسم؟

-ميراج تعني السّراب وأنتِ شبيهة به.

-كيف ذلك؟

-حبّك موجود وغير موجودٍ في الوقت نفسه، فهو كالّسراب.

صمتَتْ محتارة تبحَثُ عن ردّ، لكنّ بعض الأسئلة لا تملكُ ردّا مناسبا، بل تحتاج إلى الصّراحة فحسب، حينها قلتُ لها:

-سأساعدك، اصدقيني القول...

بدتْ حينئذ على استعداد للانتقال إلى مرحلة أعلى من الصّراحة.

-لو شاهدتني مرتبطا بفتاة غيرك هل سيؤلمك ذلك؟

قالت بعدَ صمتٍ طويلٍ:

-نعم... يؤلمني ذلك.

-وهل تريدينَ الإنتظارَ إلى أن يحدُثَ هذا؟

-لا... لا أريد.

-ميلين... ليستْ لديّ خطّة لحياتي، كلّ ما أريده في هذه اللّحظة هو أن أحبّك أكثر وأنْ تحبّيني مثل المجنونة...

أشرقَ ميسَمُها بنعومة وكانتْ أجمَل من أي لوحة حيّة رأيتُها قطّ، تمنّيتُ حينها لو أنّي فتحتُ آلة التّصوير للاحتفاظ بتلك اللّقطة النّادرة، صورة كتلك قد تباع بآلاف الدّولارات... في ذلكَ اليومِ حصل الحبّ في جوفها على تأشيرة الخروج، بدأتْ قصّتنا أخيرا، لقد عدتُ إلى الحياة من جديد وعُدتُ بقوّة. كانَ الجميعُ يحسُدنا حينَ يرانا معا، أعذرتُهم مسبقا لأني كنتُ في بعض الأحيان أشعر أنّي أحسدُ نفسي على هذا النّعيم الذي جادَ به عليّ الله.

-عِدني!

-بماذا أعدك؟

-أنّك لن تتغيَّر.

-لن أفعَل... أغمضي عينيك وضعي كفّك في كفّي... انظري إليّ... لن أخذلكْ!

الوعودُ مجرّد كلمات تُقالُ لأشخاص خائفين أو عاجزين، أشخاصٌ لا يملكونَ زمامَ أمرِهِم فيوكلونَه إلينا، الوعدُ كلمَةٌ مشبّعة بالمشاعِر والعَزمِ في بدايتِها، لكنّها لا تبقى كذلكَ إلى النّهاية دائما، الوعدُ حبلٌ مطّاطي يرتدّ بقوّة

على من وعدنَاهم إن أخلفناه فيؤلمُهم ويؤدّبُهم لألّا يثقوا بنا ولا بغيرنا مجدّدا.

قالت لي صديقَتُها أسماء التي حدّثتها على الهاتفِ تلكَ اللّيلة:

- لم تدعُني لأكل أيّ شيء إلى الآن.

-إذا ربّما يجبُ عليكِ أنتِ دعوتي.

-حسنا... سأفعل، ما رأيك في مقهى الجامعة؟

-اتّفقنا.

أخذتْ رقمَ هاتفي بعدها، كلّ ذلك في حضور ميلين طبعا. مضتِ الأيّام كما تفعل دائما، الغيثُ يسقي حبّنا فينمو والشّمس تدفّئه فيورق، كانَ يبدو في ذروته ورديّا لكن نسينا أنّ المخلوقات لا ترى الألوان ذاتَها بالطّريقة والدّرجة نفسها، غيرَ بعيدٍ عنّا ثمتَ من لم يسَعهُ إلّا تلوينُهُ بالأصفر من بين كّل ألوان الطّيف، من الغبَاء أنْ ترى الكلّ فرحا لمجرّد أنّك فرحان ومن الحُمقِ أنْ تروي للتّعيسين مغامراتك السّعيدة، إنّها الحقيقة الوحيدة الّتي يجبُ مراعاتها عندَ محادثة الآخرينَ، لا تُخبِرهم عن الأشياء الّتي لا يملِكونَها بينما تملِكُها، ليس العالَم مكانا مثاليّا وإن تصرّفتَ فيهِ بمثالية ستكونُ شخصا غريبا فيه.

نظرَ أحمد إليّ مثنيا على كتابي الّذي أهديتُه إيّاه منذُ مدّة ثم واصل كلامَه...

فكّرتُ أنّه ربّما هذا ما قصدتَه في كتابك "كيد الرّجال" حينَ قلتَ فيه: "وحش اقتحم خلوة الملائكة أو ملاك انعزل عن الوحوش..."

هل يُعقَلُ أن يُعتبَرُ الجمالُ شذوذا قبيحا حتّى إنْ كانَ ذلك وسطَ مجتمَعٍ قبيح؟ لطالما آمنتُ أنّ الجمالَ الحقيقي يحظى بالإجماعِ أينما حلّ، لكنّي لمْ أعدْ واثقا ممّا كنتُ أعتبره مسلّمات قبلها، مررتُ خلالَ تلكَ الأيّام بمرحلة عالية من اليقين، اليّقين الّذي جعلني أضعُ أيّ شيء في محلّ شكّ، كنتُ أستفيق صباحا وأحاولُ قدرَ الإمكانِ التّشكيك في الواقِعْ لكيْ أفرَحَ حينَ تيقّني أنّ ما يحدثُ هو حقّا حلمٌ يحلمُ به غيري بينَما هو بالنّسبة لي حقيقة.

بينَما كنتُ متخبّطا في سكراتِ النّهوض صباحا، رنّ هاتفي... إنّها هي، أسماء صديقة ميلين الّتي أخذتْ رقمي، طلبَتْ منّي المجيء إلى المقهى كما اتّفقنا، لمْ أتردّد في تأكيد حضوري، بعدَ أقل من ساعةٍ كنتُ برِفقَتِها هناك، لم تَكنْ تريدُ محادثتي في موضوعٍ بعينِه إنّما أرادت الحديثَ فحسب. كانتْ نظرات

عينيْها الجميلتين تتأرجحُ بيني وبينَ نقطة التّلاشي في الأفق خلفَ ظهري.

قالت:

-ميلين تحبّ الزّهور كثيرا حتّى أنّها أحيانا ترسُمُها على راحة يدِها.

-حقّا... أيّ نوعٍ من الزهور؟

-لستُ خبيرة في أسماء الزّهور وأشكالِها، إنْ شئتَ أريتُكَ لتفاجئها بها.

-يبدو هذا مشوّقا...

-حسنا...أغمضْ عينيكَ ومدّ يدكْ.

أخرجتْ قلما أحمرا من حقيبة يدِها، لم تكنْ تملكُ غيرَه... غريبٌ أمرُها، في العادة يحمِل الجميع قلما أزرقا أو أسودا... لا بأس. أغمضتُ عينيّ بينَما أمسكتْ يدي وراحت تخطّ على راحتي ما شاءتْ... أحسستُ بأنفاسِها قريبة منّي... أقربَ من أنْ أتجاهل حرارَتِها، فتحتُ عينيّ حينَها وكانتْ ميلين تقف بالجانبِ تراقب والصّدمة شلّتْ تعابيرَها...

-ميلينْ... الأمرُ ليسَ كما تظنّين...

سألتني بسخرية تفيض مرارة وهي ترى صديقَتها تمسِكُ يدي التي رسَمتْ عليها قلبا وشفتاها توشكُ أن تلامسَني.

-وما الّذي أظنّه؟

-دعيني أشرَحُ لك ما حدث... كانتْ تريد أن تريني...

قاطعتني حينَها مرسِلة إليّ رسالة واضحة بانتهاء كلّ شيء!

-كنتَ تقولُ أنّ قلبَك ليس له باب... نعمْ كنتَ مُحقّا، اتّضحَ أنّك تضعُ على مدخلِه ستارا ليتمكّنَ الجميعُ من الدّخول...

تلكَ الخبيثة خطّطت لكلّ شيء بإتقان، يبدو أنّها تدرّبتْ على المشهدِ جيّدا فهي تبدو مصدومة بدورِها، غيرَ أنّها لمْ تحاول الشّرح أو النّفي، غادَرتْ ميلين بسرعة، استدرتُ إلى صديقَتِها وقلت:

-برافو... لقد أوقعتِ بي... تستحقّينَ الأوسكار!

نظَرتُ إليها بحقدٍ شديد لأول مرّة، انسابت الدّموع من عينيها، عادة ما أرقّ للدموع حينَ تهمي هكذا، لكنّي وقتَها كنتُ على يقين أنّها تمثّل فحسب، هو فصل جديد من مسرحيّتها، حينَ لا تحصلُ على مكانٍ وسطَ النّظام، أحدثِ الفوضى ثم تصرّف كمنظّم قبلَ أن يسودَ الهدوء من جديد، هل هذا ما تنوي فعلَه؟ هل هي ذكيّة جدّا أم تعيشُ انفصاما؟ لمَ تبكي بهذه الحرقة؟

-أحمد... نحبّكْ!

-تاكلك حبّة "نشالّه"!

كنتُ أنظُرُ إليها مندَهشا غيرَ مصدّق، كيف؟ كيف تجاهلتُ فراغَ عينيها الباحث عنّي؟ كيفَ تغابيتُ عن بؤبئِها المتّسع كلّ هذا الوقت؟ الحبّ... الشعور النقيّ قادرٌ على خلقِ هذا الخبث، هل حبّها لي وكرهها لميلين شعوران منفصلان أم أنّهما الشعور نفسه من منظورين مختلفين؟ تذكّرت من جديد قولك في كتابِك: أظنّ أنه لا وجود للحدود بين المتناقضات، بل نقيض الشيء هو نفسه، فأنت حين ترى وجه عملة معدنية سيرى غيرك الوجه الآخر، الوجهان هما الوجه نفسه من وجهتي نظر مختلفتين.

تواردتِ الأفكار في رأسي كالسّيل، تذكّرتُ الإشاعة الّتي سمعتُها قبلَ أيّام، حبيب ميلين السّابق يريد هذه الفتاة الّتي تقول الآنَ أنّها تريدني... كثيرٌ من الأفكار خطرت في بالي خلال أجزاء من الثّانية، الأشياء الّتي ننساها هي أمورٌ نتذكّرها في وقتٍ لاحق، نحتاج فقط إلى نظرة أو رائحة أو كلمة. ناديتُ ميلين وهي تغادر لكنّها لم تلتفتْ... لم تكترث. أعلمُ الآنَ أنّي فقدتُها إلى الأبد.

خلال الأيّام الّتي تليها حاولتُ الاتصال بها لكنّ هاتِفَها كانَ مغلقا، هي لا تحضُر حصصها في الصفّ كذلك، فعَلتْ كلّ شيء ممكنٍ لتتحاشاني، صديقاتُها يقلْنَ أنّها في غُرفَتِها في الإقامة، كما أنّهنّ نصحنني بنسيانِها.

لعلّهنّ يعرفنَ الآن أمورا أجهلُها تدفعُهنّ لقول هذا لكنّي وحدي أعرفُ وجهَ ميلين حينَ تراني، أعرفُ القدْرَ الذي ينبلِجُ به كالصّبح، أشعُر بالأحاسيس الّتي تكنّها لي حينَ تردّد كلمة أحبّك، لا يُمكنُ أن يختفيَ كلّ هذا في لحظة، حتّى أنّها لم تستمِعْ إليّ. أخبرتني صديقاتُها الحميمات كلاما غريبا عن أنّها تريدُ العودة إلى حبيبِها السّابق الّذي بدورِه يريدُ صديقَتَها الّتي تريدني... كيف؟ هل ميلين مجرّد كرة تتقاذفُ بينَ ذاكَ وذاك؟ والمشاعِرُ الّتي شعَرتْ بها اتّجاهي هل كانتْ حقيقيّة؟ كانَ أسوءَ خبرٍ من الممكِنِ أن يسمَعَهُ بائسٌ مثلي، مشيتُ شاردا في الطّرقات، استعجلتُ الوصولَ إلى البيتِ كي أرتميَ على فراشي، سأحاولُ النّومَ سريعا لأنسى، لم تسعفني عينايَ في البكاء لذلكَ ستستمرّ المرارة داخلي ما شاءت أن تبقى.

بعدَ بضعة تقلّبات فوق السّرير أيقنتُ أنّي لنْ أستطيعَ النّوم، لذلكَ قمتُ بالأمر الّذي أجيده، قمتُ إلى مكتبي عانقتْ أصابعي القلم تواسيه ويواسيها وانبطَحتْ أمامنا الورقة لتسلّينا...

أثناءها كتبتُ ما يخالجني، الحزنُ يذكي الشعرَ في دواخلي فيخرُجُ سلسا يصفُ حالي، كانتْ قصيدة عنّي وعنهما وعنه...

كــلّ الذي في الأمرِ أنّي الجّاني ... لما سمحتُ بــــأن أكونَ الثَّانِي

راهنتُ أني سوفَ أمحوا ما مضى ... ها قدْ خسرتُ أمام ذاكَ رِهاني

وخـسرتُ من عاشتْ لتُبصر نظرتي ... وأحبَّها هذا الذي أنهاني

أردى التي أهوى ومن يهوى هنا ... تَردى وتحيا تبتَغي أحــــضاني

مِــن خلفِ كلِّ حالِــمٌ...و أمامَه ... حلمٌ يُرادُ بشدّة وتفاني

ها قدْ تعادلنا فهل من رابحٍ ... إن مات منّا واحدٌ في آنِ؟

هل سوفَ يرضى من تعوّد عشرةً ... من بعدِ فرقة جنبها بثمانِ؟

أشدا بلالٌ بعدَ موتِ حبيبهِ ... للأهل أو لصحابة بأذانِ؟

هل تزهر الأزهار إلا مرّة ... وتموت بعدَ ربيعها بثوانِ؟

هل للأوائل توبةٌ من حبّنا؟ ... هل للقلوبِ مغبّةُ النّسيانِ؟

من لمْ يكنْ في القلب حبّا أوّلا ... لا خيرَ فيهِ أن يصيرَ الثاني

سُرقت قلوب السّارقين فكلُّهم ... أمسى لذاكَ ضحيّة أو جاني

لو غلّ مثنى بعضهم من بعضِهم ما ليمَ سجّانٌ لدى سجّانِ
لكنْ لكلٍ دربُ حبٍّ أوحدٌ دربٌ ويـهدي نحو كلّ مكانِ
ها قدْ تعادلنا وكلٌّ خاسرٌ فلنحيَ ما يأتي ونحنُ نعاني.

بعدَها استطَعتُ أنْ أشعُرَ بالحاجة والقدرة على النّوم، وضعتُ رأسي على الوسادة على أملِ أنْ يكونَ كلّ شيء على ما يرامُ في الصّباح. أمضيتُ الأيّام الّتي بعدَها محاولا إيجادَ نفسي من جديد، لم أعدْ أعرف من أنا بعدَ أن امتزجتْ روحانا، شيء ما ينقُصُني أو فلنَقُلْ أنّ القليل منّي فقط هو المتبقّي وكلّ شيء عداه ينقُصني، كيف كنتُ أحيا قبلكْ؟ هل سأكونُ بخير وأنسى فحسبْ؟ الصّفحة ثلاثون... قلتَ فيها شيئا مماثلا لحالتي:بعضُ الأشخاص حين يتملّكون بحياتنا يصعب علينا تذكر حياتنا من دونهم، يمكننا تذكر لحظة دخولهم عالمنا، هو دخول بأثر رجعي... عكسي، كأنهم كانوا موجودين قبله وما هو إلا مركز تناظر بين زمنين: قبلهم وبعدهم!

وجَدتْني ميلين وأنا في أوجّ قوّتي وأثبتتْ لي أنّي معَها سأكونَ أقوى وأفضل وأجمل، كيفَ يمكنني التّراجعُ عن كلّ هذه الأشياء الآن؟ هل تفكّر فيَّ

الآن؟ هل تشتاقُ إليّ؟ كنتُ شاردا داخلَ الحصّة، اختفت الإبتسامة الدّائمة من شفاهي ولمْ أعدْ ذاكَ الشّخصَ المرحَ الذي يضفي النّشاط على الصفّ، نقشتُ على طاولَتي:

وُلـــــــدتِ ربيعا بمهدِ الخريـفِ ومِـــــــــتِّ شـتاء بعـزّ المصـيفِ
فــــــكنتِ حياتي بُعيدَ الــــرّدى وعُـــدتِ الـرّدى بعـدَ حـبٍّ عنيـفِ

كانتْ كنزة -صديقتي وصديقة ميلين-الشّخصَ الوحيدَ الّذي يكترثُ لحالي، ربّما شعرتْ بالذّنبِ لأنّها سبب تعارفِنا وربّما كانتْ شخصا لطيفا فحسبْ، قرأتْ ما كتبتُ ونظرتْ مُمِيلةً رأسَها مع زفرة خفيفة للهواء تواسيني بنظرةٍ حزينة:

-لا عليكَ صديقي، الأيّامُ الأفضل قادمة.

-نعمْ أثقُ بذلك.

-ستسافر ميلين اليوم إلى بيتِها، قالتْ أنّها لن تعودَ مجدّدا.

-أوَ ليستْ تريد العودة إلى حبيبها السابق؟

-من أخبرَكَ بهذا؟ هي تحبّكَ من كلْلِّ قلبِها.

-من يحبّ يعذرْ، كما أنّي لم أخنْها يوما.

-أخبرتها بهذا... أظنّها تدرك ذلك بداخلِها، غيرَ أنّها خائفة.

-خائفة من ماذا؟

-أن يتكرّر فشَلُها، لقد تألّمْتْ كثيرا قبلك.

-ألا تظنّين أنّها الآن تؤلِمُ كلينا... متى تنوي الرّحيل؟

-اللّيلة!

-أخبريها أنّي أريد الحديثَ إليها.

-لنْ تقبلَ ذلك... لا تحاولْ أرجوك.

-إذنْ أسدي إليّ معروفا...

-بكلّ سرورٍ ما دام في الإمكانِ ذلك.

-حينَ توشِكُ على الخروجِ من الإقامة اتّصلي بي.

-سأفعل... أعدُك.

كنّا أيّامَها في عنفوان شبابِنا وكنّا نؤمِنُ بالمشاعِر الّتي تتجاوز المادّيات بل وكنّا نفصل بينَها فصلا، كانَ معظمُ كلامِنا عن الصّدق في المشاعر، عن الحبّ وأنواعِه، جلسنا كثيرا على حوافّ الطّرقات وعلى مقاعد الدّراسة والمطاعِم نفعلُ شيئا ما إلى جانبِ الحديث عن مستقبلِنا نرسُمُ معالِمَهُ المتوقّعة، داخلَ كلّ واحدٍ منّا مخاوِفُه وتخيّلاتُه الأسوء والتي قلّما يُدلي بها أحدنا خلال اجتماعنا.

لكنْ حال انفرادنا ببعضنا مثنى نتجرّد من تفاؤلِنا المبالغ فيه ونتنازل إلى الحدّ المعقول.

في مرحلة ما تكونُ ظنونُنا بالآخرينَ حسنة ويمكننا رؤية العالم بتفاؤل، نحصل مرّة في حياتنا على فرصة لإبقاء أنفسنا كما هي على هذا النّحو، فرصة لألّا نتغيّر، غيرَ أنّنا نضيّعُها مرارا وتكرارا ونُشاهدُ من يأتونَ بعدَنا يفعلون ذلك دونَ أنْ نستطيعَ منعَهم. لطالما تساءلتُ "ما سببُ تغيّرنا؟" بينما الجوابُ الأوضَحُ هو طبيعتنا المتذاكية ورفضنا للانخداع والأهمّ من ذلكَ هو تأثير من نتعاملُ معهم فينا، أذكُرُ ما حدثَ يوم قالت إحدى صديقاتي أنّها رأتني ذاتَ يومٍ من بعيدٍ فعرفتني من معطفي، هي حقّا لم تقصِد أكثر ممّا تعنيه الكلمات الّتي قالتْها، غيرَ أنّ صديقي قال بعد انصرافِها:

_ أرادتْ أن تقولَ أنّك لا تغيّر معطَفك أبدا!، عيناها البريئتان لم تقولا ذلك، لكنْ كانَ عليّ أن أتفحّص حديث الجميعِ بحثا عمّا يدسّونَه من معانٍ بين حروفِهم منذ ذلك اليوم. اللّيلة لي فرصة واحدة لاستعادة ميلين، سأحاولُ جعلَها تواجِه مخاوِفَها بدلَ إلقاء اللّوم عليّ وجرّنا لنهاية تعيسة، حدثَ معي أمرٌ مماثلٌ في الماضي حينَ أدخلَني والدي ناديَ الكاراتيه الذي لم أكنْ مرتاحا فيه.

لم أدرِ كيفَ تمرّ أيّام ميلين في تلكَ الاثناء، لكنّها ممّا روتْ لي لاحقا كانتْ تنامُ قدرَ الإمكان بحثا عن النّسيان وعن الأحلام الّتي خيّبتها في الواقع، نادرا ما تخرُجُ رفقةَ صديقاتِها اللّائي أصررنَ عليها أكثرَ من مرّة للخروج، بكتْ بحرقة لأيّام عديدة تحتَ غطائها بينما كنّ يخلنَها نائمة، لعلّها كانتْ تؤلِمُ نفسَها حتّى تجدَ مسوّغا لكرهي، حتّى أنّها لمْ تُردْ سماع الأعذار منّي لأنّها تعلَمُ أنّي سأتمكّن من إقناعِها، لم ترد الاستماع إلى صديقاتِها أيضا، لكنْ ذلكَ لم يحسّن من حالِها بل على العكس، شعرت بحاجة أكبر لرؤيتي، قالتْ أنّها كانتْ تنهَضُ مشتاقة لي بشدّة بعدَ كلّ ليلة تراني في المنام فيها.

يقالُ أنّ المرأة حينَ تتألّم تحبّ بينما يكرَهُ الرّجل حين يتألّم لذلك خُلقت حوّاء من ضلعِ آدمَ بلا ألم حينَ كانَ نائما وتلدُ المرأة واعية وتتألّم، قرأتُ هذا في مكانٍ ما لكنّه بدا منطقيّا مقارنة بما روتْه لي ميلين.

سافرتْ في رحلة ترفيهيّة نظّمتها الجامعة في يومٍ لاحق، شعرتْ بالتّحسّن وبالحنين إلى بيتِها، قفزتْ بينَ الكثبان فرحة وكانتْ تتغاضى عن الصّوتِ الخافتِ داخِلِها الّذي يتردّد في كل لحظة "ليتَه معي..." استطاعتْ الضّحك من قلبِها خلالَ زحمة أحداث اليوم وهي أوّل مرّة منذ أيّام عديدة،

نيّتُها في النّسيان جادّة إلى حدّ نزعِ صورتنا من شاشة هاتِفها، بدا الأمر مؤلما وهي تفعَلُ ذلك، الأمر الوحيد الّذي يساعدُها في الاستمرار هو إقناعُها نفسَها بخيانتي لها، لن تستطيع النّسيان لو كانتْ أقرّت ببراءتي وإن كانتْ تعتَقِدُ بها.

عادتْ في اللّيل خائرة القوى لا مبحثَ لها غير السّرير لترتمِيَ وتنام وفورَ وضعِ رأسِها على الوسادة، باغتَتْها الذّكريات مجدّدا، ليستْ ذكرياتُنا فحسبْ بلّ كلّ الأمور الّتي أحزَنتْها قبلي، تذكّرتْ كلّ من كذبوا عليها وكلّ من آذوها أو خانوا ثـقتَها تذكّرتْ أنّها تشتاقُ إلى والديْها وتذكّرت الأمرَ الأسوء الذي يجعلُها تريدُ نسياني...

الأمرُ الّذي لم تخبِر به أحدا من أصدقائها والّذي أصبَح بعد شهورٍ أكبرَ عائقٍ يفرّقنا. في تلكَ اللّحظة جاء قرارُها بالتوقّف عن كلّ شيء، كم كانتْ سخيفة وهي ترسُمُ معالِمَ المستقبَل المبنيّ سلَفا، لن تستطيعَ هدمَه لبناء المستقبَل الّذي أردناه وحلمنا بهِ معا، لذلكَ ترفُضُ الاستماع إليّ، كانتْ تعرِفُ أنّها فورَ سماعي سيصدُقُ توقّعُها في أنّي لم أفكّر في خيانَتها مع صديقتِها حتّى. قرّرت الرّحيل وتركَ كلّ شـيء لكن... من أجلِ ماذا؟ تركُ الأحلامِ الّتي نحقّقها من أجلِ المخاوفِ التي حاربناها طويلا من أجل الوصول يعدّ جُبنا وانهزاما، لكنّ

الأمر لم ينتهِ بالنّسبة لي، ما زالتْ هنالِكَ جولةٌ أخرى أخوضُها لأرجعَها إلى صوابِها، لستُ مستعدًّا لنبذِ أحلامي وراء ظهري مثلمَا تريدُ أن تفعل، سأواجهُ مخاوِفَها معها ستتقاسَمُها ونهزمُها معا.

ودّعتْ ميلين صدِيقاتِها بكثيرٍ من الدّموع والعنَاق، أصبحنَ أكثر من صديقات بالنّسبة لها، هنّ الآنَ عائلَتُها بعدَ إمضاء سنوات عديدة معا في غرفة واحدة.

جلَسَتْ في الغرفة المجاورة وحيدة توظّب أشياءها، كانَ الصّمتُ يهمِسُ في أذنِها وكانت منصتة بحذر، أخبرَها كمْ أنّ الماضي كانَ جميلا جدًّا وكيفَ أنّ المستقبل كانَ سيكونُ مقبولا لولا لقائي الّذي سيجعَلُه أروعَ لكن أقصر، حَمَلتْ بينَ يديْها الهاتفَ وراحتْ تقلّب الصّور وتبكي لأنّها ستشتاقُ إلى كلّ شيء هنا، ستشتاقُ إلى النّومِ في غرفة واحدة مع الصّديقات، ستشتاق إلى السّهر والأكل والتنزّه والاستحمام والرّقص معا، ستشتاق للجلوس في الصفّ والسّخرية من كلّ شيء والتّظاهر بالمتابعة حينَ ينتبهُ الأستاذ، ستشتاق إلى كلّ شيء تتذكّره، ستشتاق لي!

ودّعت الجميعَ باكرا، خُطّتها كانتْ تقضي بالتسلّل والرّحيل حتّى لا يكثُرَ المودّعون ويصعّبوا عليها لحظة الوداعِ أكثرَ ممّا هي عليه. مالت الشّمسُ للغروب أحسّت بالثّواني تُحتَضرْ، تريدُ الهروب... تريدُ التخلّص من الألم بالألم، كلّ ما فيها يريدُ أن يجري صوبي ويرتميَ بين أحضاني، كنتُ بدوري أشعُر بالبَرد، اعتدتُ عليها قربي شعلةً تجعلُ قلبي دافئا وثغري مبتسما.

تلقّيتُ الاتصال من كنزة، كنتُ هنالِك مقابلَ باب الخروج أنتظرها قبل الاتصال حتّى. خطتْ بضعَ خطوات ورأسُها إلى الأرض قبلَ أن تنتبَهَ إلى أنّ هنالِك من يعتَرضُ طريقَها، رفعتْ عينيها الغارقتينِ في الدّموع ورأتني أنا أمامها، كنتُ بائسا جدّا دونَها، مقدار الألم في نظراتي كانَ فوقَ ما يتحمّلُهُ كلانا، كنتُ أرتدي ملابسي الدّاكنة كالعادة وقبّعة معطفي فوقَ رأسي، ملامحي كانتْ تعكسُ المدّة الّتي قضيتُها دونَ نوم، ذقني لمْ يُحلقْ منذ أيّام طويلة، كنتُ أنظرُ إليها فحسب، استهلكتني الكلمات الّتي أريدُ قولَها حتّى لم يعُدْ بوسعي إلّا تركُ حالي تتكلّم عني، اغرورقت عيناها أكثر وأسرعتْ في المشي مارّة بجانبي، غيرَ أنّي أمسكتُها وحضنتُها بقوّة.

-إلى أينَ تخالينَ نفسِكِ ذاهبة؟ تعتقدينَ أنّك تستطيعين الرحيل فحسب؟

سقطتْ الحقيبة من يدِها، دخلتْ بينَ ذراعيّ ووضعتْ رأسها على صدري وأجهشتْ بالبكاء حتّى شعرتُ بالبلل يتسرّب إلى صدري، لم يكنِ الشّوق وحدَه ما جعَلَها تنهار لكنّها حين عانقتني، لم تجد تلكَ الكتلة من العضلات الّتي كانتْ تستنِدُ عليها من قبل، أحسّت بهاذين الذّراعينِ تطوّقانها وقد صارتا نحيفتين... رغمَ النّحافة الّتي صارتا عليها فهما تمسكانِها بكلّ قوّتهما تأبيان تركها ترحل ولا يزال صدري يسنِدُها كما فعَل وسيفعَلُ دائِما. كانتْ تجهشُ وتقولُ بنبرة مرتجفة:

-سامحني أرجوك... سامحني...

كانتْ أوّل وآخرَ مرّة تراني أبكي فيها، من المستحيلِ عليّ أن أقاومَ ذلك الموقف... أنْ أراها تتألّم بهذا القدر غير مدرِكٍ لما يؤلِمُها حقّا ومَنِ الّذي يجعَلُها تعاني بهذا الشّكل، كنتُ موقِنا بوجودِ شيء ما لا أعلَمُه. تَردّدَ اعتذارُها في نفسي وأطلقَ سيلَ مشاعري.

-ميلين... أنتِ لي... لنْ أسمَحَ لك بالرّحيل إنسيِ الأمرَ تماما... أنا لمْ أخنكِ يوما ولم أفكّر في ذلك حتّى، كانتْ لعبة من صديقتك ووقعتُ في الفخّ... في صِغري أدخَلني أبي إلى نادي الكراتيه الذي لم أكنْ أحبّه، كنتُ أتمنّى الخروج، إلى أنْ ضربني ذاتَ يومٍ خصمي على رأسي فغضبتُ وتوقّفتُ عن ممارسة هذه اللّعبة توقّفت بسبب ذلك لكنّي احتفظتُ بالسّبب الحقيقيّ لنفسي وهو كرهي للّعبة أرجوك ميلين أخبريني بما لا أعلمه... بما تخفينَه، دعينا نتألّم سويّا كما سعدنا سويّا من قبل...

في هذه الأثناء، كانت تغالبُ دموعَها وتمسحُها، نظرتْ إليّ ومن الواضِحِ أنّها تصدّقني... أنّها تحبّني.

-أصدّقك... أرجوك سامحني، يجب أن أغادر... الأمرُ فوقَ إرادَتِنا.

علمتُ أنّ الأيام ستمرّ، سأهرَم وسأبقى نادِما ما حييتُ على تركِها تذهب، كنتُ مستعدّا لاختطافِها أو عملِ أيّ حماقة في تلك الاثناء.

-أريدُكِ أن تفعلي شيئا من أجلي...

-ما هو؟

أخرجتُ قصيدة " رجلٌ حجريّ" الّتي كتبتُها لها ذاتَ يوم وتركتُها منسيّة في معطفي...

-أريدُك أن تأجّلي سفرك فحسب وأن تقرئي هذه من أجلي... من فضلك.

نظرتْ إليّ لبرهةٍ وأنا أميل رأسي وأعلي حاجبيّ باستعطاف، ثمّ أبدتْ موافَقَتها.

-إذا غافلْتني ورحلتِ صدّقيني سأتبعُك، سأبحث عنك وأجدُك... لن أعيش دونك، أنتِ لي!

قبّلْتُ رأسَها ببطء بينَما كانتْ تبدو أكثَر ارتياحا من قبل ورحتُ مبتَعِدا مستشعرا نظراتِها تشيّعني إلى أن تلاشيتُ بينَ المنازِل المجاورة.

عادتْ إلى الغرفة من جديد، تفاجأت صديقاتُها بعودتِها غير المتوقّعة، شعرنَ بسعادة غامرة بعدَ رؤيتِها، فالجو كانَ شبيها بمأتمٍ بعدَ خروجِها، عانقنَها عناقَ المشتاق بقوّة أكبرَ من أيّ وقت سابق. سألنها عن هذا الأمر الخارقِ الذي أرجَعها الآن بعدما خرجتْ عاقدة العزمَ على عدم العودة مجدّدا، جلسنَ قُربَها وراحت تقصّ عليهنّ كلّ ما حدثَ بدءا من أوّل خطوةٍ وضعَتْها

خارج الإقامة، لم يخفينَ دهشتَهنَّ وإعجابَهنّ بهذه الأحداث الخيالية. قلنَ لها وهنّ يضحكنَ ويداعبنَها.

-ألم نقل لك أنّه يحبّك بجنون؟

لكنّ ميلين كانتْ تعلم ذلك سلفا... لم يكنْ الأمرُ يتعلّق بثقتها أو بحبّها لي منذ البداية. استلقتْ بعدها على فراشِها، وضعتْ سمّاعات في أذنِها شغّلت أغنيتَها التّركية المفضلة (فريدة هلال اكين -العشق السري)

فتحتْ الرّسالة قرأت:

هذه القصيدة... كتبتُها لك قبل مدّة طويلة، شعوري اتّجاهك يسكُنُ كلمات القصيدة، لا أرى حياتي دونك ولا أراكِ لغيري... ميلين...

"أحبّك أنتِ

كأنّك لغزٌ

كأنّك كهفٌ وأبعِدُ عنهُ جميعَ الضّواري

أنا رجلٌ حجريّ

نَموتُ وحيدا كبذرةِ تمرٍ رماها صبيّ بمركَبِه فوق رملِ الكثيب.

سأطردُ كلّ الضواري وأصقلُ صخركِ كيفَ أشاء.

وأتركُ نقشا كبيرا يقول لهم "هي لي.

فخورا برجعيّتي سيُخشى فؤادك بعدي

يخافونَ من لعنة الحجريّ

بفضلي سيهواكِ عالمُ آثار قرنٍ بعيد

سيمضونَ عهدا ليكتشفوا لغتي

لكي يقرؤوا هي لي

سأهزمهم... سأقهرهم

وينشرُ في صحفِ الغدِ: ماضٍ ويُمضي الحضور"

وتكتبُ: "رجعيّة الحبّ أقوى" وعهدُ "الصّخور يذلّ الحضارة".

سيسكُنُ كهفي البيوتَ ويغزو فنونَ العمارة

وأنت جمالٌ...

يؤكّد ذوقي ويُسعِدُ روحي الّتي فيك تحيا

وينصِفني وجميعَ الحجارة

أنا حجَرٌ عاشَ حيّا

سأنقشُ أيضا عليك أحبّك حتّى الممات

وأدهنُها بشجوني، ليقرأها من أتى بالشّموع

سيعجبُ أولئك النّاجحون لكيمياء ذا الحجري

لقد كانَ فنّان نحتٍ وحبّ وعشقٍ

لقدْ كانَ في حبّه عبقري"

قرأت ميلين الكلمات، بل دعنا نقول أنّها عاشتها وتجوّلت بيْنَ حروفها... بين الفواصِل بينَها، التقطت ذاكَ الدّفق من الأحاسيس الذي نُحتت به، ما شعَرتْ به هو شعورُ أيّ أنثى حينَ يعتَبِرُها الشّخص الّذي تحبّه مِلكا له دونَ محاولة تملّكها وخنقِها، كانتْ لغزا ووجدتْ مهوسا بحلّ الأحجيات، كانتْ كهفا قديما ووجدتْ عالما عاشقا للآثار.

أحسّت ميلين بكثيرٍ من الذّنب، في محاولتِها النّجاةَ بقاربِها خلَقتْ أمواجا عاتيّة كادتْ تغرق شخصا لا ذنبَ له. نامتْ والحزن والأمل يتجاذبَانِها كلٌّ إلى جهتِه، كنتُ وقتَها الأمنيّةَ التي ستحييها سعيدة أو تحطّمها، لعلّ المتناقضات هي حقّا الشّيء نفسه.

كانتْ تلكَ سنة تخرّجنا، لذلك كانتْ السّنة الأخيرة في مطلق الأحوال، ظهوري في حياتِها كانَ هدفا مفاجئا في الوقت بدل الضّائع، هدفا مدّد حياتَها لمتاهاتٍ ستكونُ عسيرة على كلينا.

اتّصلتْ بي صباحا... كنتُ أنتظِرُ في لهفٍ ذلك، طلبتْ لقائي في الجامعة كما كنّا نفعل في الأيّام الخوالي، كنتُ هنالك خلال بضع دقائق. جاءتْ في الموعِدِ كأوّل يومٍ التقينا فيه بدار الثّقافة، حملني الحنينُ إلى ذلك اليوم الاستثنائي، لا أريدُ أنْ أفكّر في أنّ النهاية تشبه دائما البداية، بأنّ النّهاية هي الباب الخلفيّ للبداية، هذا التّشابه أريد أن أفهمهُ على أنّه بداية جديدة مشابهة للأولى مع علمي أنّه من الصّعب عليها أن تفوقَها جمالا.

كنّا نتبادَلُ النّظرات ويتفرّسُ كلٌّ منّا وجهَ الآخر، يحاولُ استخلاصَ معلومة استباقية منه، لم ندرِ هل نبتسمُ لبعْضنا كما في السّابق أم نحتفظ بملامِحِنا المحتارة، فترة انقطاعنا عن بعض جعلتنا نحسُّ أنّنا غريبان عن بعْضنا وأنّه علينا الاعتياد من جديد. اقتربتْ منّي قبّلت خدّيَ وتمشّينا مع بعض ووجهانا لم يتعافيا بعد من أثر الحزنِ والدّموع، لكنّنا كنّا نُبلي بشكلٍ جيّد. قالت مبتسمة:

-خرجتَ من نادي الكراتيه... لا بدّ أنّ أحدَهُم مسَح بك الأرض.

كسرتْ التوتّرَ الّذي يسود الأجواء بروح دعابَتِها، ابتسَمتُ بدوري وأجبت:

-بل كنتُ أبحثُ عن عذرٍ للخروج فحسب.

ظلّت تنظر إليّ بشكل طريف مشكّكة فيما أقولُه، حينَها استسلَمتْ تعابير وجهي وقلت موجّها أحداقي إلى السّماء بسخرية:

-و... نعمْ... لقد مسَح بي الأرض ذلك اليوم.

ضحكنا وللحظة نسينا كلّ ما حدث أمس، سالتُها:

-وأنتِ ما عُذرك؟

-دعْنا نجلس.

جلسنا إلى بعضِنا، أخرجتْ زفيرا عميقا من صدرِها وحكتْ لي بكلّ ألمٍ السّبب الذي جعلَها تريد الابتعاد عنّي والهروب، أمسكتُ يدَيها... نظرتُ إليها وقلت:

- ميلين... مهما يكنْ سنواجهه معا... لن أتخلّى عنك!

كانتْ سعيدةً جدّا كمن يزيحُ صخرة ثقيلة كانتْ قابعة على صدرِه لسنينَ طويلة ميلين ستبقى، ستبقى معي ولي.

-آسفة لتهوّري... أحبّك أيها الحجري.

هذا الرّجل الحجري كانَ الوحيدَ القادرَ على إزاحة وتفتيتِ تلكَ الصّخرة التي على صدرِها، لقدْ كانَ حقّا مجنونا بها!

أشعر بالغرابة حينَ أتذكّر كلّ هذه الأحداث الّتي مرّت عليها سنواتْ، أتذكّرُها كأنّها حدثت اليوم. عدتُ إلى المنزل مع عمّي يغموراسن لنطوي ليلة أخرى مليئة بالتّشويق، نمتُ كطفلٍ ليلة العيد، ينتظِرُ الغدَ ليلبسَ ثيابَه الجديدة، متحمّسا لسماعِ بقيّة القصّة الّتي بدأت تغدو أكثرَ تشويقا وغرابة، أرض الجنّ والسّاحرة السوداء، كيفَ سيتعامَلُ أڤمَد مع كلّ هذا الهول؟

استيقظتُ صباحا لأعيش يوما آخرا في الجنّة، قضيناه في البيتِ في جلسة عائليّة دافئة، تخلّلها كثيرٌ من الحديث والفكاهة. مضى اليومُ على هذا النّحور تقريبا وفي اللّيل كانتِ الشّلة تنتظرُ قدومَنا في دار الخابية، أصبحتُ مؤلوفا لديهم واعتدنا على بعضنا بشكل كبير، لم يعدْ اختلاف اللّهجة أمرا يُذكر، قال عمّي يغموراسن

في المرّة الماضية: دلّ الملك أڤمَد على الطريق السرّيّة إلى العراف، أعطاه قلادة وحذّرهُ قائلا... خذها قد تحتاجُ إليها واحذر من العجوز السّوداء، كذّبها

مرتينِ وصدّقها مرّة واحدة وإن وصلتَ إلى أرض الجنّ وبدا النّجم الأحمر، فتسلّق الأشجار ولا تتحرّك إلى أن يطلعَ الفجر ثمّ حدّثه عن النّاسك الصّادق...

واصل عمّي إلقاء بقيّة القصّة على مسامِعِنا.

الفصل الرّابع

كانتْ الطّريق متعرّجة بشدّة والأشجار عاليةً تحبس الضّوء عن الأرض في الغالب، على جانب الطّريق هياكل عظميّة تبعثُ رسالة واضحة، كثيرون من هلكوا وماتَ سِرُّهم معهم، عليهِ أنْ يكونَ حذِرا جدّا وحذِقا لألّا يلقى المصير نفسه. لم يكنْ ثمتَ من صوتٍ هناك، أمكَنَهُ سماع تدفّق الدّم في أوردتِه وسماعُ أنفاسِه القلقة وهي في قمّة هدوئها، وقعُ خطواتِه يتردّد تواليا في كلّ الجهات كأنها متاهة كبيرة، بدأ يشعُرُ انّه مجرّد طُعم فحسب.

سارَ دقائق طويلة ثمّ ساعات ثمّ أيّام... لم تتغيّر زاوية الظّلال الكثيفة على الإطلاق، لا شيء يوحي بأنه في الطريق الخاطئ أو الطريق الصّحيح. بدأ الشكّ يتسرّب إلى نفسِه، هل هو حقّا في الطّريق الصّحيح أم أنّه ضلّ الاتجاه منذُ ساعات؟ هلْ غدَر به الملك وألقاه في هذه الغابة المظلمة ليموتَ جوعا وعطشا؟ حكمة أقمَد جعَلتْهُ لا يغيّر الاتجاه الّذي يسير فيه رغمَ هذا الصّراع الّذي يجري داخِله ولأنّه أفعى فقد كانَ قادرا على الاحتمال حتّى لو دامَ الأمرُ شهرا كاملا.

حينَ أوشك اليومُ على الانقضاء، بدأ يسمَعُ أصواتا متداخلة وهمسا في كلّ الأرجاء، سمِعَ كثيرا من الضّحك الهستيري ومن ثمّ بدأ بسماعِ صوتِ المرأة

الّتي تبكي، كانَ يرى حولَه أشياء تمرّ بسرعة البرقِ وأثناء ذلك أمسى صوتُ البكاء أقربْ شيئا فشيئا، تبيّن بعدَ بضع خطواتٍ أنّه لم يكن سوى صوتِ هذه المرأة العجوز الّتي تجلسُ نائحة وسطَ الطّريق، تذكّر أڤمَد نصيحة الملك، رغمَ القلق الذي سبّبه له ما يحدثْ، إلّا أنّ ذلك جعلَهُ يشعُرُ أنّه في الطّريق الصّحيح فلو كانَ الطريقُ خاطئا لربّما كانَ أسهل، استعادَ أڤمَد هدوءه باسترجاع الأفكار الإيجابية الّتي سلّطت بعضَ النّور على ظلام الأحراش.

اقتربَ بهدوء من العجوز، رفعتْ رأسَها ناظرة إليه مرتعبة، هذه العجوز مختلفةٌ تماما عنْ تلكَ الّتي وصَفها الملك، يبدو أنّها ضائعة في الغابة ولمْ تعُدْ تقوى على المضيّ، وجهها أبيضٌ مشرق وملامحُها بريئة وجسمُها هزيل، على الفور لمح أڤمَد رجلَها المتورّمة وحزمة الحطب المتناثرة خلفَها، فهِمَ الآن سببَ توقفها في منتصفِ الطّريق.

-ساعدني على النّهوض، من فضلك!

أوجسَ منها وتردّد في ذلك، فهو لا يعلَمُ في كلّ الأحوال ما هي طبيعتُها ونواياها لكنّه استجمَعَ بأسَه وحملها على ظهره بلطفٍ ليمضي بها. قالتْ له خائفة:

-إلى أينَ تتّجه بي؟

-ألستِ تريدينَ الذّهاب إلى قرية العرّاف؟

حينَها ارتعَشت أوصالُها رُعبا حتّى كادتْ تسقط من فوق ظهره، كانَ ذلكَ كافيا ليتوقّف عندَ هذه النّقطة ليأخذ عنها ما تعرفُه عن هذه القرية الّتي أثارت رُعبَها إلى هذا الحدّ.

-إيّاك والمواصلة اليوم، يكادُ يحلّ الظّلام، تعالَ معي إلى بيتي.

قرّر أڤمَد أن يذهبَ معَها، فعلى الرّغمِ من عدمِ معرفتِه لها سيكونَ من الحكمة أن يستَمِعَ لما تقولُهُ ثمّ سيكونُ عليهِ تحليلُ أقوالِها ليتبيّنَ صِدقَها. كانتْ خفيفة الوزن كالرّيشة، لسانُه لم يلتقط لها أيّ رائحة معتادة، كانتْ كائنا مختلفا تماما رغمَ شبهها به إلى حدّ ما، شعَر بجسمها حينَ زحفتْ فوقَ ظهره، بدا وكأنه حلقات مضمومة إلى بعضها بجلد أو غشاء ما. كانتْ تُرشِدهُ إلى الطّريق بإشاراتٍ من يديها ولسَانُه يخرجُ ويعود إلى فمِه بوتيرة عالية على غيرِ عادَتِه. بعدَ فترة قصيرة وصلا إلى بيتِها المصنوع من جذوع الأشجار، بيتٌ تقليديٌّ كما كانَ يتخيّلُه.

-هذا بيتي، بنيتُه أيّام شبابي، لكنّي الآنَ لم أعد قادرة على عمل شيء.

-مؤسف... كيف تتمكّنين من الأكل؟

-أتغذّى على الطفيليات التي تعيش في الأرض أو آكل الثّمار المتناثرة من الأشجار لستُ أهوى أكلَ اللّحوم.

-لم تعيشين وحدكِ هنا على أيّ حال؟

-كنتُ أعيش في إحدى القرى المجاورة، إلى أن حاكت زوجة ابني مؤامرة ضدّي فطردوني من القرية.

-وما حُجّتهم لطردك؟

-كنتُ أبيع الشّراب لعابري السّبيل، دسّت زوجة ابني السمّ في الشّراب ذات ليلة واتّهمتني بتسميم الجميع.

نهضتْ العجوز "بومبي" لتعِدّ لأڤمَد العصير، بدأت تتعافى من إصابَتِها سريعا. في الحقيقة لم تكنْ مصابة أصلا بل كانتْ خطّتُها من البداية تقضي باستدراجِه إلى منزِلها، الآنَ ستفرز بعْضَ العصير المخلوط بالبكتيريا السّامة الّتي تعيش على جسَدها، كانتْ هذهِ طريقَتَها للبقاء على قيد الحياة في هذه الغابة، صحيحٌ أن شكلها لم يكنْ مرعِبا، لكنّها لقّبت بالعجوز السّوداء

لاحترافها الخداع والقتل ولأنّها تأكل فرائسَها ببطء شديد من أجل المتعة والتلذّذ.

أخيرا انتهت من إعداد العصير المتبّل بأحلى الأحشاء. شربَ أقمَد جرعة منهُ ثمّ أتبَعَها الكأس كاملة. بعدَ ثوانٍ أغميَ عليه... كانَ السمّ قويّا ومخلوطا بالكبريت وسلفيد الحديد المحضّرين من دخانِ البراكين المائيّة أينَ يوجدُ بيتُها الحقيقيّ، أما هذا البيت فكانَ بمثابة محلّ عمل فحسب استولتْ عليهِ حينَ فرغ من أهله.

إنّها أوّل وجبة تزورُها منذ شهور، البكتيريا الّتي تغطّي جسمَها غيرُ كافية لإمدادِها بالقوّة اللّازمة، تحتاجُ إلى شيء مغذٍّ جدّا كاللّحم.

أبرزتْ إبرة خرطومِها واستعدّت لثقب جلدِه، الحراشفُ حولَهُ سميكة لكنّ منطقة البطن تبدو أطرى، كما أنّها تحتوي الأحشاء اللّذيذة، لذلك اختارتها بدونِ تردّد، حينَها فتحَ أقمَد عينيه والتفّ حولَها وأخرجَ نابيه.

-السّموم لا تؤثّر بي أيتها العجوز أو دعنا نقول أيّتها العجوز السّوداء!

كانَ أقمَد حادّ الذّكاء وشديد الملاحظة، استطاعَ أن يلاحظَ منذُ البداية أنّه يستحيل لعجوز العيش هكذا وحيدة في الغابة دونَ مصدرٍ للغذاء، كما أن

بُنيتَها لا تسمَحُ لها بالصّيد إضافة إلى أنّ لسانَهُ التقط روائحَ أشخاص آخرينَ كانوا هنا ما يعني أنّ العجوز تكذب وخلصَ في الأخير إلى أنّها قاتلة محترفة بطريقة غيرِ مباشرة تناسب بِنيتَها الجسديّة.

انتبَه كذلكَ إلى أجوبتِها الثّلاثية، هذا ذكّره بقول الملك الذي حذّره منها ونصحَه بتكذيبِها مرّتين وتصديقِها مرّة واحدة، ساعَدَهُ هذا في معرفة المواطنِ التي تكونُ فيها صادقة والأخرى الّتي تكونُ فيها كاذبة... سألها:

-إلى أينَ يؤدّي الطريقُ الّذي كنتُ أسلُكُه؟

لم تكنْ تستوعِبُ ما يحصل، لكنّها مدركة لحقيقة أنّ هذا الّذي يلتفّ حولها جادّ جدّا ولن يحتمِل المماطلة... أجابتهُ مرعوبة:

-إذا سلكتَ الطّريقَ على اليمين ومن ثمّ أخذتَ الطّريق على اليسار ستصل إلى أرضِ الجنّ.

حينها ابتلَعها أقمَد واختفى صراخُها في بطنِه، لم تكنْ تملكُ عظاما ما جعَلَ أكلَها أكثر سهولة، وجبةٌ دسمةٌ ستساعِدُه على المضيّ قدما إنْ طال الطّريق، أحسَّ بجسمِه يلتهب لدقائق ثم اختفى ذلك الشّعور ومالتْ بشرَتُه للسّمرة دونَ أن يُدركَ ذلك... تذكّر أجوبتَها في المرّة الأولى "حذار من

مواصلة الطّريق" لذلك قرّر مواصلتها، وكانَ الجوابُ الثّاني "يكادُ يحلّ اللّيل" ما يعني أنّ اللّيلَ لا يحلّ هنا، خاصة مع ملاحظتِه أن زاوية الظلّ لم تتغيّر أبدا، أما الثّالث فهو دعوتُها له إلى البيتِ وقد أجابَها وكانَ قرارُه صائبا، أجوبَتها بالترتيب الثّالث كانتْ صادقة والأجوبة الّتي قبلَها كاذبة، ما يعني أنّه للوصول إلى أرض الجنّ عليه سلوكُ الطريق الّذي على اليسار أولا ثمّ سلوكُ الطّريق الّذي على اليمين ثانيا. عادَ أقْمَد إلى مسارِه معتَمدا على الرّوائح الّتي التقطها لسَانُه أثناء حملِه للعجوز فوقَ ظهرِه.

كانَ الحظّ إلى جانبِه هذه المرّة لأنّ جسمَهُ لا يتأثّر بالسّموم، لكنْ سيكونُ عليه ألّا يتركَ مصيرَه للحظّ في المرّات القادمة. لمْ تتوقّف الأصواتِ طيلة الطّريق، بل على العكسِ كانتْ حِدَّتُها تزيد لذلك سدّ أقْمَد أذنيهِ واعتَمَد على رؤية جنسِه المتطوّرة بفضل الثقبين على جانبي رأسه تمكّن من رسمِ خرائط حراريّة لأيّ جسمٍ على بُعدِ أمتارٍ منه، حينَها أحسَّ بحرارة خافتة على مدى الطّريق، ليسَ بإمكانِه التّفاؤل بأي شخص الآن، كلّ من سيلتقيهم هم على الأرجح أعداءٌ سيحاولون منعَه من الاستمرار بأسوء الطّرق الممكنة. مع تقدّمه بدأ يفهم أنّ الحرارة لم تكُنْ لأشخاص ما، بل كانتِ الأرضُ كلُّها

صفيحا ساخنا، تقدّم منها ببطء شديد، كان غطاءُ الأشجار فوقَها قليلَ الكثافة، لا يوجَدُ في السّماءِ نور نجمٍ ولا شمسٍ أو قمر غيرَ نجمةٍ خافتة النّور، كلّ ما يضيء هو حمم البراكين الثّائرة، كانتِ الأرض تزداد سخونة، أحسّ أنّه مستمتعٌ بذلك بصفة غريبة.

فجأة أحسَّ بكتَلٍ حرارية قادمة من كلّ جهة، رفَع رأسَهُ وإذا بالنّجم الخافتِ غدا أحمرا في الحينِ، تسلّقَ أقرب شجرة منه وسكنَ في هدوء تامٍّ يراقب، سمِعَ الجنّ يتكلّمون بينَهم عن معجزةٍ حصلتْ، أحدُهمْ استطاعَ قتلَ العجوز السّوداء الدّودة "بومبي"، حتّى همْ كانوا عاجزينَ عن فعلِ ذلك، رغمَ سلطة النّيران الّتي بحوزَتِهم فقدْ كانتْ منيعة ضدّها، السّرّ يكمُن في أن هؤلاء الجنّ لا يستطيعونَ إيذاء أحدٍ إلّا باستعمال النّار وإنْ حدثَ العكس، على الفور سيتحوّلون إلى شجرة في الغابة، إنّها اللّعنة الّتي أصابتْهم منذ قرون، حينَ عقدَ النّوريّون هدنةً مع أهل بلدِتهم من الجنّ، لكنّ ملكَ الجنّ استغلّ ثِقتَهم وسرقَ طاقة النّجم الملقّب بـ"حارس السّماء"، حينَها حلّت به اللّعنة وتصافحتْ يداهُ وتحوّل إلى شجرة لم تستطِعِ الجنّ تجاوُزَ حدودِها، من يومِها أصبحَتْ وسيلَتُهم للاتّصال بمن هم خارجَ غابة النّور هي اتّفاقية بينَهم وبينَ

قرية "المثقاب"، حيث يتعاملون مع البعوضْ وذلكَ مقابِلَ بعض الرّهائن ذات الدّماء الحارّة أو النّادرة.

الغريبُ في الأمرِ أنّ السّاحرة العظمى كانتْ عاجزة عن مساعدَتِهم بسحرها وذلكَ قبلَ أن يتمّ اختطافُها قبلَ سنواتٍ قليلة من طرف سكّان الأرض العليا والآنَ لم يعدْ لدى السّكان هنا من أمل، سواء من الجنّ المحبوسين أو من الخُضْر أو -كما أصبَح اسمهم بعدَها-"النوريّين"، استمرّت الجنّ منذُ ذلك اليومِ باختطافِ الرّهائن وأصبَحتْ مشهورة بالشّرّ والكـذب رغمَ أنّها كانتْ ذاتَ يومٍ طيّبة، العيشُ في الظّلام لوقتٍ طويل يعمي البصائر عن النّور والسّير في طريقٍ منحرفٍ سيوسّع زاوية الانحراف عن الطّريق السّويّ مع كلّ خطوة نتقدّم بها.

ارتاحَ أقمَد فوقَ الشّجرة غيرَ أنّه لم يغمض له جفن، كانَ في قمّة حذَرِه، أصواتُهم كانتْ غليظة ومخيفة. فجأة رفَعوا أبصارَهمْ نحوه، لم يَكنْ خطأه فهو بارعٌ في الاختباء وكتمِ أنفاسِه، لكنّ الشّجرة أخبرتْهم بوجُوده، فلقدْ كانتْ جنّا بدورِها قبلَ أن تتحوّل إلى ما هي عليه الآن.

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى كانَ جمعٌ كبير منهمْ أسفلَ الشّجرة، عيُونهم الحمراءُ تريدُه بشدّة، أخبروهُ أنّهم يريدون الحديث إليه وأنّه لن يتعرّض لأذى، رفضَ النّزول لعِلمِه أنّهم كاذبون وقد أثبتت النّظرة في عيونهم نواياهم مسبقا...

مضى عشرونَ يوما على هذهِ الحال، بدأ يشتدّ الجوعُ والعطش به، الجنّ لا تملّ ولا تتعب، لديها الوقتُ الأبديّ لتضيّعه كما تشاء، تعلَمُ أنّه في النّهاية سيؤدّي به الجوع أو العطش للنّزول، هو بدوره أدركَ خطورة الوضع، إن استمرّ أكثر من هذا سيصبحُ ضعيفا جدا بحيث لن يمكنَه التقدّم ولا القتال ضدّهم، لذلكَ وثب من الشجرة إلى الأرض، أخيرا أصبَح في متناوَلِهِمْ، سيكون من السّيئ أن يقرّر القتال لأنّه قد يُقتَل ولن يجنوا من ذلكَ شيئا ولنْ يكونَ صالحا للمقايضة بخدماتِ البعوض.

لسوء حظّهم انقضّ عليهِم أقمَد بكلّ قوّته، استعملوا سلطة النّار ضدّه والتهبَ جسدُه فسقَط في الحين. وسطَ حسرَتِهم على ضياع الغنيمة سمعوا صوتا يأتي من بينِ ألسنة اللّهب.

-شعورٌ رائع... جميل...

شعَر أقمَد بالنّشوة والنّارُ تُلهبُ جِسمَه، كأنّه ازداد قوّة ونضارة. ما حدث هو بفضل أكلِه العجوز "بومبيه" المقاومة للحرارة العالية، إنّها التعويذة الّتي ألقتْها عليه مياهُ البحيرة قبلَ مغادرَتِه قريتَه، سيكتسبُ أقمَد صفاتِ أيّ مخلوقٍ يلتهِمُه، أصبَح منيعا ضدّ النّيران. لم يكنْ حقّا مُدركا للسّبب الّذي جعَل هذا يحدث لكنّه كانَ سعيدا جدّا بذلك، كما أنّ شهيّته انفتَحت بشكل أكبر، حينها انقضّ على اثنينِ من الجنّ وابتلَعَهُما دفعة واحدة.

شعرَ بالنّار تخرُج من أنفه وفمِه، هربتْ الجنّ واختفَت بعيدا في الظّلام. أقمَد لم يعُدْ الآنَ الأفعى الّتي عرفَها الجميعُ، لقدْ صار نصفَ تنّين ينفُثُ النّيران الحارقة، بدأ يكتشفُ قدرَتَه المتمثّلة في أخذ قدرات المخلوقات الخارقة الّتي يتغذّى عليها.

على بُعدِ بضع خطوات، قابَلَهُ عجوز على حدود الشّجرة، لا يهمّ فقدْ أصبحتْ قدرة أقمَد قادرة على قهر أيّ عدوّ كان.

- لن تستطيعَ المرور!

- لا تحاوِل منعي أيّها العجوز!

حاولَ أڤمَد التقدّم لكنّه لم يستطِع تجاوز الشّجرة، قوّة خفيّة ما تمنَعُهُ من ذلك.

-لقد صارَ جزءٌ منكَ من الجنّ، لن تستطيعَ المرور بهذه البساطة.

-بهذه البساطة؟ هذا يعني أنّه يمكنني المرور بطريقة ما...

-نعمْ يمكنك المرور إذا أجبتَ على اللّغز وقدّمتَ وعدا بالمساعدة.

-وما هو اللّغز؟

-سيُخبرُكَ به ملك الجنّ الكاذب.

-ملكُ الجنّ وأينَ هو؟

أشار النّاسكُ الأبيضُ إلى الشّجرة، فهِمَ أڤمَد حينَها أنّ أشجار هذه الغابة لم تكنْ سوى جنّا ملعونا وليست أشجار عاديّة كما تبدو، اقترب أڤمَد من الشّجرة ذات الغصنينِ المتصافحين، سألها:

- ما هو اللّغز؟

-إذا أخبرتك أنّ النّاسكَ صادق، فأيّنا تصدّق؟

- أهذا هو اللّغز؟

قالهَا أڤمَد مندَهِشها من بساطة السّؤال، قبلَ أن يستفيقَ على مدى صعوبتِه، إن فشِل فسيُحبَسُ في الغابة إلى الأبد...

-النّاسك الصّادق أخبرني بأنّ الجنّ كاذب، الجنّ الكاذب أخبرني بأنّ النّاسكَ صادقٌ لكنّه كذبَ في ذلك ما يعني أنّ النّاسك أيضا كاذب، لكنْ إن كانَ النّاسكُ كاذبا فهذا يعني أنّه كذب عليّ حينَ قال أنّ الجنّ كاذب في حينِ أنّه صادق...

استغرَق أڤمَد في التّفكير لساعات طويلة، لم يستطِعْ إيجاد حلّ، رفعَ عينيه إلى السّماء راجيا معجزة ما، حينها رأى في الأفق البعيد جدّا بياضا، تذكّر قول الملك له: إذا حلك اللّيل صدِّق الفجر.

-ما الّذي قصَدَه الملك بذلك؟ هل هي مجرّد صدفة أن يبدو ضوء الفجر في الأفق؟

تذكّر في الحينِ شيئا ما "الفجرُ الصّادق! " مصطلَحٌ يُطلَقُ على ضوء الفجرِ الّذي يبدو بالأفق، نادرونَ من يعرِفون ذلك، "صادق" قد لا تعني صدقَ القول بل... بل اللّون! إنّه لونُ النّاسكِ الأبيض! كما أنّ اللّغزَ لم يُلزمهُ باختيار الصّادق بينَهماُ هل يُعقلْ هذا؟ نهضَ أڤمَد باتّجاه النّاسكِ وقال:

- كلاكُما كاذب!

كانَ كِلاهما كاذبا، فالحقيقة لا تحتمِلُ الشّبهات والتّضليل، لَعِبتِ الصّدفة دورَها في نجاة أقمَد، البعض يسمّونَها صدفة بينما يظنّ آخرون أنّها شيء يـفوقُ ذلك، مهما كانتْ فقد أنقذتْه لمرّات عديدة... ضحِكَ النّاسِكُ وقال:

-أحسنتَ أيّها التّنّين، بقي أن تعدني بالمساعدة.

-أيّ نوعٍ من المساعدة؟

حكى له النّاسكُ قصّة القرية الّتي عمّرها الجنّ و"الخُضْر" وكيفَ سرقَ ملكُ الجنّ طاقة نجمهم، حينها أظلمتْ القرية وتحوّل سكّان القرية تدريجيا إلى اللّون الأبيض بما فيهم هو، كانَ للنّاسكِ ستّ قوائم ويدان كالمقص مثنيّتان ومدبّبتان عيناهُ كبيرتان وعلى رأسهِ قرنان يتحرّكان في كلّ الاتّجاهات.

لم يكنْ يهمّ النوريّين أو "الخُضر" اختفاء النّور حقّا فهم في كلّ الأحوال قادرون على العيش في الظّلام لكنّ المشكلة في أنّهم كانوا يقتاتون من صيد الكائناتِ الأخرى الّتي كانت تعيش هنا صباحا والّتي هاجرتْ بعدَ اختفاء

النّور. لم يكنِ اللّغز إلا لاختبار كفاءة المتقدّم للمهمّة، لأنّه في حالة فشلِه فذلك يعني أنه غير كفء وسيكونُ من الأحسنِ أكلُه.

-كيفَ يمكنني مساعدتُكمْ؟

-كانَ أملُنا في الساحرة العظمى، لكنّها أخبرتنا أنه لا سبيلَ لإعادة الأمور إلى نصابِها، إلا بواسطة المزمار السحريّ الّذي هو بحوزة الشّخص المختار للعزفِ عليه.

لم يكنْ لأڤمَد شكّ في أنّ المقصود من الأمر هو القطّ سمّان ابن ملك قرية الصّمت هذا ما ساعدَهُ على تقديمِ الوعدِ بمساعدَتِهم، خاصّة وأنّ سمّان وعدَه بتقديم خدمة له تسديدا للدّين، من حسنِ الحظّ أنّه أعادَ له مزمارَه قبل مغادَرتِه. حينَها سمحَ النّاسكُ له بالمضيّ، لكنْ قبلَ ذلك همسَ أڤمَد في أذن النّاسك ببضع كلمات طلبَ منه شيئا ما ثمّ واصَل طريقَه.

....

نهضَ زور على وقعِ هزّة أرضيّة جديدة، تأمّل كهفَه محاوِلا الاحتفاظَ ببعضِ الصّور فهوَ سيودّع شكلَهُ العتيقَ بعدَ أيّام قليلة، لقدْ وعَدَه القائد بمساعدتِه في صقل جدران الكهف وطلائها فورَ انتهائهم من أشغالِهم، القائد

شخصٌ صادقٌ ونبيل ولا يُخلِفُ وعودَه، زادتْ حدّة الهزّات الأرضية وصارت تهدِمُ الدّيار داخلَ المملكة، لا خوفَ على زور بما أنّه يعيش داخلَ كهفٍ من الصّخور الصّلبة، صارَ ذلك يشكّل امتيازا. كانَ العفريتُ حمُّو-قيُّو في قمّة غضبِه لأن الميَاه أصبحتْ قليلة ونضبَ جريانُها، ثغرة صغيرة في السدّ الذي بنتْه العمالقة كفيل بإرجاع البحيرة كما كانتْ، صرخةٌ منْه كانت تسبّب هزّة أرضيّة، لم يقرّر بعد الخروجَ من أعماقِ البُحيرة الّتي ينامُ في قاعِها منذُ قرونٍ طويلة بعدَ خيبتِه الكبرى، لكنّ الجوَّ أصبَح أدفئ بانخفاض مستوى الماء وهذا ما سيجعَلُهُ يستيقظُ عمّا قريب.

خرجَ زور من الكهفِ ولاحظَ أنّ البحيرة أصبَحت معكّرة، هو الوحيد الّذي استطاعَ أن يرى تأثير السدّ الّذي بُنيَ على البحيرة، لكنْ ليسَ بوسعِه أن يغيّر أيّ شيء بدون إذن القائد.

اتّجه زور إلى العملِ كعادَتِه أين وجدَ قائد المجموعة، حاول إخبارَه أنّ أمرا ما ليسَ على ما يُرام، لكنّ دونَ فائدة، فهو عاجزٌ عن الكَلام، لذلك استسلَم وواصلَ القيام بعمَلِهِ في قلق شديد.

مع نهاية اليوم، كانَ زور قد اتّخذ قرارَه بتصليحِ الأمور، لذلكَ اتّجه في خفية إلى السدّ لنزعِ الحصاة حتّى تعودَ الحياة إلى البحيرة المتغذّية من مياه السدّ. حينها التفّ به بعضُ الحرس وقيّدوه واحتجزوه في السّجن، القوانين واضحة ولا يمكن تغييرها، يُمنَعُ تغيير أيّ شيء إلّا بإذن من القائد.

لبثَ هنالِكَ مدّة ثمّ جاء أحد الحرسِ لإخراجه، كانَ متعجّبا من الأمر فعادة ما لا يبرح السّجين مكانَه قبل محاكمة شاقّة، مشى مندهشا إلى الخارج وهناكَ وجدَ القائد في انتظاره، بدا خائبَ الظنّ قليلا، ليسَ لأنّه شكّ في زور بل لأنّه يعلمُ أنّه فعل ذلك لسبب وجيه لا يمكنُه الحديثُ لذكره، جلسَ قربَه وقال

-اسمع يا زور... لا أعرف السبب الّذي دفعك لفعل ما فعلته، لكن سيكون عليكَ إيجاد طريقة لتبرير فعلتك، بعدَ أيّام سيأمر القاضي بإعدامك وهدم كهفك.

لم يكن بوسع زور سوى الاستماع إلى هذه الأخبار الصّادمة، مع ذلك بقي هادئا فقد يكون رحيله عن هذا العالم الّذي لا يلائمه أفضل في النّهاية، كما أنّه ليس بوسعِه فعلُ شيء، إنّها اللّعنة الّتي وُلدَ بها، هو لا يستطيع الكلام!

-آسف... لا توجد طريقة سهلة لقول ذلك، افعل ما بوسعك!

أعاد الحرّاسُ زور إلى زنزانته ليقضي فيها الأيّام المتبقّية، يبدو أنّه كانَ مخطئا، الحياة لا تخبّئ لأمثاله إلا الأحزان ولا يوجد ما يميّزه عن غيره، سيموتُ كحشرة متطفّلة لن يحزنَ أحدٌ لفراقها. كانَ العفريت حمّو-قيّو في الأعماق على اضطلاع بكلّ ما يجري رغمَ أنّه نائم، لم يكنْ سعيدا بما يجري. تقولُ النّبوءة أنّه باختفاء مياه البحيرة ستكون استفاقة حمّو-قيو وستمطر السّماء سبعة أيّام وسبع ليال وتغرق الأرض في الطوفان العظيم، يقالُ أنّ النّبوءة مصدرُها هو أرضُ المُربّين الّتي لم يصلِ إليها أحدٌ من قبل، رغمَ انتشار شائعات حول بلوغ أحد سكّان قرية المثقاب ذلك، لكنّها كانتْ مجرّد شائعات لا دليل على صحّتها... حينَ تتوقّف الهزّات الأرضية فهذا يعني أنّ مرحلة الإنذار انتهت، بعدها سيحلُّ الدّمار على العالم عمّا قريب.

زجاجة عطر

بانطفاء شعلة عمّي يغموراسن، تنتهي القصّة اليوم، الجميع يبدو متعبا، لعلّ تغيّر المناخ هو السّبب فاليوم هبّت ريح أسخن من المعتاد. عُدتُ برفقة عمّي إلى المنزل يتخلّل الصّمتُ جولتَنا وعندَ وصولنا نمنا في الحين.

بدأت الأمور تغدو أكثر روتينيّة هنا، لكنّه لم يكن على الإطلاق روتينا مملّا، إنّه كشرب الماء، تقوم بذلك طيلة حياتك ولا تفكّر يوما في أنّه من المملّ شُربُه، هذا لأنّي الآن في المكان المناسب مع الشّخص الأنسب، نقضي أوقاتنا في التجوّل والأكل والمرح ومجالسة العائلة حتّى أنّ اللّيل يحلّ سريعا، أذهب أحيانا إلى القرى المجاورة برفقة عمّي، كانَ يروي لي عن تاريخها وعاداتها وأساطيرها، كلُّ هذا جعَل الملَلَ أمرا مستبعدا. لقدْ خضتُ حربا من أجلِ أن أكونَ هنا مع ميلين، لم يكن الأمر بهذه السّهولة، هذه الجنّة سلعة غالية وما كانَ لي بلوغها بمجرّد التمنّي.

يتعلّق الأمر بذاك السّرّ الّذي كانتْ تخفيه ميلين عن الجميع، ذاك السّرّ الّذي باحت لي به حين التقينا بعدَ الأزمة الّتي كادت تعصف بنا.

كنّا نتعافى بسرعة من جراحنا التي تسبّب فيها حمقنا، لم أكن فطِنا بالقدر الكافي، لا يمكنك أن تحمل جوهرة في يدك وتمشي بها مرحا فحسب، عليكَ

حمايتها وإبعادها عن الأنظار قدر المستطاع قاوم رغبتَك في التطلّع إليها في كل مرّة من أجلك ومن أجلِها ولا تثق بكلّ من يقترب منك، في الواقع لا تثق بأحد! أما ميلين فقد بلغَ بها الحُمقُ تقريرَها التخلّي بسهولة عن مستقبل يجمعنا معًا رضوخًا لمخاوِفِها، كانتْ حينَها أقلّ ثقة بي وكانَ عليّ إقناعُها أنّها ستكونُ بخير بجانبي ولن أسمَح لأيّ شخصٍ بأخذها منّي.

أتذكّر ابتسامَتَها ونظرَتَها المليئة بالاطمئنان والأمل يومها، قالتْ بعدَ استعداد طويل ونظر مسترسلٍ إلى الأرض كأنها تبحث فيها عن الكلمات الضّائعة منها:

-حينَ كانتْ أمّي حاملا بي، لم تجدْ سوى خالتي من تقومُ على حاجاتِها وتساعدها، خاصّة مع اقتراب الشّهور الأخيرة أينَ بدأت أمّي تشعرُ بالإرهاق الشديد حتّى أنّها مرضتْ، قال الطّبيب أنّ الولادة قد تودي بحياتها، مرّت العائلة بمرحلة من الإحباط، غير أنّ خالتي كانتِ الأمل الّذي كانوا يحتاجونه، كلماتُها المتخمة بالأمل وحضورُها الّذي يبعثُ الحياة وملازمتُها أمّي جعل الأمور أفضل فأفضل وبحمد اللهّ تمّت الولادة بخير، حينَها قدّمت أمّي لخالتي

وعدا بتزويج المولودة لابنها البالغ بضع سنوات، لذلك الأمر أشبه بقدر بالنّسبة لي، قدرٌ لا يمكنُ الفرار منه...

-ميلين... أنتِ لم تتزوّجيه بعد ولن يحصل ذلك، معا سنستعيدك من جديد سنستعيد مستقبلنا.

-من المستحيل ذلك... خالتي أعادت الحياة للبيتِ، لا يمكن لأمّي إخلاف وعدها لها.

-خالتك قامتْ بعمل خيرٍ وسيثيبها الله عليه، لكن هل يجبُ أن تدفعوا مستقبلك لها لتُجازوها على مساعدتها؟ هل فعلتْ ذلك أصلا تجارة لتحصلَ على جزاء منكم؟ أمْ أنّها قدّمتْ صنيعا وعمل خير؟ يجدرُ بكم أن تسألوا أنفسكم...

كنتُ حينَها أشعرُ بغضب لا يوصف، تكلّمتُ على سجيّتي وقلتُ كلّ ما دار في خلَدي، تساءلتُ داخلي: أليست هذه هي الصّدقة الّتي يتبعُها المنّ والأذى؟ حين تساعدُ شخصا ما بِنيّة عمل الخير، ارحل فحسبْ ولا تُتِحْ له فرصةَ مكافأتك تعفّف عن شكرِه حتّى ودعْهُ يعلمُ أنّه ليس ملزما اتّجاهك بشيء لأنّك ترجو مكافأة عندَ من هو أقدر وأكرم وأجزل عطاء منه.

تمالكتُ نفسي بعدها وصمتّ. يبدو أنّ كلامي كانَ له أثرُهُ عليها، للمرّة الأولى فكّرتْ أنّي محقّ، لمَ عليها أن تدفعَ حياتَها لتفيَ بوعدٍ لم تقطَعهُ؟ لمَ على غيرِها أن يقرّر حياتَها؟ لم عليها أن تكونَ مكافأة تُدفَعُ لشخصٍ ما؟ نظرتْ إليّ بإسهابٍ وعليها علاماتٌ من الذّهول، كأنها تقول لنفسها: أين كان عقلي؟ كيف عميتُ عن هذا الأمر وهو أمامي كلّ هذا الوقت؟ استغرقتْ بعضَ الدّقائق لتستعيد قدرتَها على الكلام وقالت:

-أنت محقّ!

-إذن، هل ستبقينَ بجانبي؟

-يتوقّف الأمر على ما يمكنك فعلُهُ من أجلي.

-سأفعل كلّ ما يتطلّبُه الأمر.

-قد يتطلّب الأمر حربا وسنواتٍ من عمرِك.

-سأفعل ولو تطلّب عمري كلّه!

كنتُ أنظرُ إلى وجهها يشرقُ بالسّعادة، لعلّي كنتُ أحقنُها بمخدّر لأهدّئ الأوضاع ريثما نجدُ حلّا لهذه المشكلة، لم أتوقّع أنّ الأمر سيكون بهذا التّعقيد، نادرا ما يخلِفُ آباؤنا وعدا قطعوه للغير، هل سيكونُ بوسعي تغيير

هذا؟ لن يفيدَ تساؤلي أحدا في شيء، طالما أنّي وعدتُها فلا مفرّ من تحقيق ذلك، لا أدري كيف لكنّ هذا ما سيحصلُ في النّهاية، لن أدَعَ أيّا كانَ يسلبني حبيبتي ميلين.

استعدنا علاقتنا وعادتْ أقوى ممّا كانتْ عليه حتّى، كلّ شيء على ما يرام، تبقّت لنا بضعة أيّام معا، يقترب موعدُ تخرّجنا لكن ذلك لم يمنع التقاءنا كلّ يوم، خلال ذلك، كلّ ما كنتُ أفعلُهُ هو منافسة نفسي التي كنتُ عليها البارحة، الشخص الوحيد الّذي يحبّها أكثر منّي هو أنا غدا.

استفزّتني نظرات الشّباب الشّاردة إليها، كنتُ أنظرُ إليهمْ بدوري كأننا نتبارز بالنّظرات، رسالتي واضحة جدّا: "أبعد ناظريكَ عنها! هي لي!" كانتْ مدركة لما يجري حتّى أنّها قالتْ لي ذاتَ يومٍ فجأة: أرجوك لا تغضب أيها الحجري، أنا لك... تتذكّر؟ سرّني سماعُ ذلك منها لذلك اشتريتُ لها المشروب الغازيّ الّذي تحبّه وعُدتُ يومَها إلى المنزل مشيا على القدمين بالمقابل، جعلتني هذه الغيرة أفهم كمْ أنّ السّحر مؤذٍ، خاصّة حينَ وضعتُ قدميّ المتورّمتين في محلول الملح السّاخن.

التقينا حتّى أيّام نهاية الأسبوع، زارتني يومَ الجمعة وهو اليوم الّذي أعمل به في السّوق لكي أوفّر بضعة دنانير تحفظ كرامتي وتقضي بعض حوائجي، حصولي على البكالوريا منذ ثلاث سنواتٍ لم يكنْ درجة علميّة فحسب، بل كانَ درجة من حسّ المسؤوليّة الذي صرتُ أشعر به اتّجاه عائلتي، أعملُ الآن جاهدا للمساهمة في المصاريف اليوميّة، كانَ أبي ميكانيكيّا بارعا ومحبوبا في صغره، نظراؤه في الحرفة الآن يملكونَ مبانٍ وعقّارات في مختلف الأنحاء، إنّها مهنةٌ مربحة، أمّا بالنّسبة له انتهى به الأمر مرميّا في الطريقِ ينزفُ بسبب سيّارة صدمتْهُ ثمّ فرّ صاحبُها، نزفَ لدقائق طويلة قبلَ أن تحضرَ سيّارة الإسعاف، لم يعدْ بوسعِه المشي من حينِها، لذلكَ خرجتْ والدتي الّتي أدينُ لها بحياتي كما هو الحال بالنّسبة لوالدي، بالكادِ وجدتْ عملا، أمّي كانتْ امرأة ذات مستوى تعليمي متدنّ لكنّها مثقّفة وعلى درجة من الوعي، أمكَنَها الحصول على عمل تمثّل في عاملة نظافة في إحدى المؤسّسات، لم تشكُ لنا يوما مدى قسوة الظّروف الّتي تعيشُها هناك، لم أعرف ذلك إلّا بعدما كبرتُ ورأيتُ العاملات هناكَ، كنّ ينزفنَ قواهنّ من أجل بضعة دنانير، أمّي المرأة التّقليديّة

الوفيّة الّتي أبتْ أن تتخلّى عن والدي في محنتِه... كلّ واحدٍ من أفراد عائلتي كانَ ينامُ معتصر الفؤّاد.

في الصّباحُ يغسلُ كلٌّ منّا وجهَهُ ويرسُمُ عليهِ أملا في تحسّن الأوضاع، لا أدري كيف لكنّها ستتحسّن ذاتَ يوم، لا يمكنكَ معرفة الموعِد، الأمر شبيه بكفّة الميزانِ الّتي تضعُ فيها الأثقال إلى أن ترجحَ فجأة، أو أشبه بنقطة التّوازن في الكيمياء أينَ يتحوّل لون المحلول في لحظة إلى لونٍ مختلفٍ تماما.

لم نسلمْ أنا وإخوتي من احتقار بعضِ المعلّمين لنا، حتّى أنّ إحداهنّ أمرتْ أخي بالصّعود إلى المصطبة وبدأتْ بتجريحِه بالكلماتِ اللّاذعة والتشهير به ثم قامت بشدّ مئزرِهِ إلى الأعلى بعدَ أنْ رأت سرواله منخفضا وقالت: لا ترتدي حتّى حزاما!؟ نعم إنّها الحقيقة، لم يكنْ لدى أحدِنا حزام لشدّ سرواله فثمنُ الحزام يكفي لشراء الخبز والحليب ليومين أو يزيد، لم تكتفِ بذلك بل سألتهُ إن كانَ لهُ إخوة، ثمّ استدعتني من القسمِ المجاور وشدّت مئزري إلى الأعلى كما فعلتْ مع أخي ناظرة إليّ باحتقار ثمّ أمرتني بالانصراف، كنتُ صغيرا حينَها ولم أشعر بشيء، لكنْ بعدَ بضع سنوات، شعرتُ بالإهانة الحقيقيّة وعجزتُ عن مسامحتِها ما حييت، كانتْ أشبه بإساءة إلى جنديّ

مأسور سيتحرّر ذاتَ يومٍ ويلتقمُ سلاحا... بعد ذلك، أرادتِ العملَ على طردِ أخي من المؤسّسة لأن ثيابَهُ غيرُ لائقة، لكنّ بقيّة المعلّمين رفضوا التّعاونَ معها جملة وتفصيلا ولا زلتُ أتساءل: ما سببُ كلّ هذا الحقدِ اتّجاه طفلٍ هادئ؟ بعضُ النّفوسِ مريضة بالكراهيّة فحسب.

بعدَ سنينٍ من العمل تعبتْ أمّي ولم يعدْ بوسعِها العمل كالسّابق، لذلكَ قامَ أصحابُ الشّركة بطردِها، لم يكنْ النّاس يدرونَ ما تخفيه جدرانُ بيتِنا المزخرفة خلفها من جوعٍ وحرمانٍ وحاجة، كانَ علينا أنْ نتعشّا أو نفطر وكثيرا ما تمنّيتُ أن نستطيع فعلَ الأمرين في ذاتِ اليوم. تعرّضنا كثيرا للسّخريّة في المدارس بسبب مظهرنا المثير للشفقة، كانتْ ثيابنا أنظف من وجوههم السّاخرة لكنّها رثّة أكثر من قلوبهم العفنة، تعوّدتُ صباحا أن ألبسَ هذا الوجهَ الواثِقَ قبلَ أيّ شيء، كنتُ أنظرُ للمرآة مردّدا الأبيات:

كم من مهيبٍ يواري خلفَ هيبتِه ... قلبا تعيث به الأحزانُ مكسورا
إنْ كاشَفَ النّاسَ لم يأمنْ شماتَتَهمْ ... وإن تكتّم عاشَ الدّهر مقهورا

بعدَ توقّف أمّي عن العملْ، تكفّل أخي الأكبر بجلبِ المصروف بعدَ أنْ توقّف عن الدراسة رغمَ محاولاتِ والديّ، كثيرا ما قالَ لي: أنا آتي بالمصروف

وأنتَ عليكَ الدّراسة فحسب! استطاعَ أنْ يغنيَنا عن التسوّل ووفّر لي ولأخواتي لباسا لائقا ولأبي وأمي الأدوية، رغمَ أنّه لم يكنْ كافيا لدفع فاتورة الكهرباء والماء وما كنّا لنحلُمَ بشراء أضحية للعيد، كانَ أبي يوصدُ البابَ لثلاثة أيّام انطلاقا من يوم العيد، لألّا يشفقَ علينا النّاس ويتصدّقوا علينا من لحوم أضحياتِهِمْ، لم أر أشدَّ منهُ تعفّفا، كنّا نشعُرُ بالغيظ من ذلك، اشتقنا إلى أكل اللّحم، لكنّ تربيَتنا تقضي بألا يعارضَهُ أحد.

مرّ الزّمنُ سريعا وها أنا ذا أجتاز البكالوريا، جاءتِ الشّرطة إلى البيتِ، فتحتْ أمّي البابَ وعلمتْ أنّ شيئا ما حدث، كانتْ محقةّ... اعتُقِلَ أخي بسبب سطوِه على محلٍّ تجاري ليوفّر لوالدي ثمنَ الدّواء، علمنا بعدَها أنّه كانَ يعيلُنا بالاعتماد على السّرقة، يومَها أصابَ أبي همٌّ أكبرُ منّا جميعا بسبب الخيبة، لطالما علّمَنا القيمَ المثلى وكرِه السيّء من الأعمال والأخلاق، تعايشنا مع الأمر فنحنُ في الأخير تقبّلنا أنّ الحزنَ جزءٌ منّا، ليسَ من حقّنا أن نعيشَ سعداء كالنّاس، هذا ما أثبتته الأيّام. أفسدتُ امتحانَ اليومِ الأخير من البكالوريا بسبب شرودي وتفكيري، قد يكلّفني هذا إعادة السّنة كاملة.

في اليومِ الموالي كانتْ أمّي قد ذهبتْ إلى صاحبِ المحلّ لتطلبَ منهُ الصّفح، كانَ رحيما وتفهّم الوضع وتجاوزَ عن أخي، رغمَ ذلك حكم القاضي عليه بإمضاء بضعة شهور في السّجن، لم نستطعْ فعلَ شيء ولو كانَ باستطاعتنا تحمّل أعباء محامٍ لما كانَ عليه الخروج للسّرقة أصلا.

أخي لم يتمكّن من حضور جنازة والدي الّذي تدهورتْ حالُه خلالَ الأشهر الّتي قضاها مسجونا. كنتُ أسمعُ الكثيرين يقولونَ أنّ الحياة جميلة... أينَ الجمالُ في الموضوع؟ كنتُ شخصا غاضبا ساخطا على كلّ شيء أوشكتُ على الشّرك، غضبتُ وكثيرا ما قمتُ بسبِّ القدر الذي أعطى هؤلاء كلّ شيء جميلٍ، بينَما يستمرّ في حرماننا من كلّ الأمور الّتي نحبّها.

ذهبَ أصدقائي وجيراني لقضاء عطلة ممتعة وفي تلكَ الأثناء استطعتُ افتتاحَ كشك صغير مكشوف بأحد المقاهي أبيع فيه التّبغ، لا يهمّني إن قالوا حلال أو حرام، هناكَ في المنزل تنتظرني بطون فارغة لإطعامِها.

صار الوضعُ أفضل الآن، تدريجيا زادت الأرباح بالقدر الّذي يمكّننا من شراء الخبز والحليب وتوفير ثمن الفواتير كذلك، آخذ بعض الدّنانير لأركَب عند الحاجة لذلك وأعطي البقيّة لأمّي، كنتُ مضطرّا للصّيّام طيلة

اليوم، فالأكل في الخارج باهظ، إلّا في بعض الحالات القليلة الّتي أشعرُ فيها بالألم في بطني والوهن في ساقيّ فأشتري خبزا مملوءً "بالكرنتيكة" مقابل ثلاثينَ دينارا، لكنّي في الغالب أعودُ مشيا على القدمين لألّا أفسدَ الميزانيّة.

استمرّ عملي بالتحسّن حينَ عملتُ في الوقت نفسه نادلا بالمقهى، حيثُ أمكنني بيع التّبغ وخدمة الزّبائن ولم أسلم في كثير من الأحيان من سرقة بعض السّجائر والشّمّة.

في اللّيل يغلقُ المقهى أبوابَه، ننظّف الأرضية ونجمع الكراسي والموائد معا، ثمّ يحضرُ صاحب المقهى صحنا به وجبة بالكاد تكفي كلّنا.

أجلسُ بعدها على السّور المكسور ألتقط أنفاسي وأراقب الأفق البعيد، أحيانا تكونُ عليه حُمرة تحاكي الدماء التي ذرفتْها عيناي خلال سنوات حياتي البائسة.

عند عودتي أجدُ الكلّ نياما غالبا، لكنّي كنتُ أعوّض على ذلك صباحا بالذّهاب متأخّرا إلى العمل لأحظى ببعضِ الوقتِ مع العائلة. رنّ هاتفي ذاتَ يوم، إنّها أختي من يتّصل، هذا الهاتف يشعرني بالقلق، لستُ متشائما لكنّ الأخبار الجميلة أصبحت شحيحة، أجبتُ بتوجّس وترقّب شديدين، داخلي

تمنّيتُ أن تطلبَ منّي إحضار شيء ما كالخبز مثلا، استبقتُ اللّحظاتِ بالظّنون، رسمتُ كلّ السيناريوهات الممكنة.

-ألو... نعمْ؟

-ألو...

تحسّستُ نبرتَها، هل هي قلقة؟ خائفة؟ لا، لم يبدُ أيّ شيء من هذا عليها استرسلتُ في الحين:

-نعم؟

-لقد تحصّلتَ عل شهادة البكالوريا، مبروك!

البكالويا... نعم! نسيتُ أمرها بالكامل، يا للمفاجأة... هكذا إذن لقد فزت... جيّد لم أشعر بالسّعادة، كلّ ما شعرتُ به هو الارتياح لأنّ الخبر لم يكنْ سيئا، هذا كلّ ما يهمّ، ما يشغلني الآن هو العمل وتحصيل المال فقط.

-شكرا، سأعودُ مبكّرا اليوم.

-إلى اللّقاء.

أنهيتُ عملي مبكّرا وأخرجتُ بعض المدّخرات واشتريتُ بها زجاجة عصير وياغورت للجميع، في تلك الأثناء بدأتْ بعضُ مشاعرِ السّعادة تلامس

حشاشتي، أبذل جهدي لأؤمن أنّ السّعادة أمر حقيقي، أحاول أن أتفاءل. دخلتُ إلى المنزل وحينَها أطلقتْ أمي زغاريدها وصفّقت أخواتي وسلّمن عليّ، الآن فقط شعرتُ بالسّعادة لأنّهنّ سعيدات، عيونهنّ تقول هذا، بعدها أحضرتْ أختاي لي زجاجة عطر، شكرتهنّ وتركتهنّ يحضّرن المائدة، دخلتُ غرفتي وأجهشتُ بالبكاء، أجرى الحزنُ مدامعي وأنا أتساءل كم من الوقتِ استغرقنَ وكم من الأشياء حرمنَ أنفسَهنّ ليوفّرنَ ثمنها؟ هذا لأني أدركُ أنّ المال الذي أعطيهنّ إياه بالكاد يكفي لتوفّير أساسيات الحياة، كانَ الأجدر بهنّ توفير المال من أجل بعض الملابس.

تناولنا الوجبة معا كما تفعل العائلة وشعوري في الواقع أشبه بالحمم الملتهبة في أعماق المحيط الباردة، الحزن والسّعادة داخلي كالماء والزّيت اللّذين امتزجا أخيرا بعد إضافة بعض الصّابون، اختلط حزني بفرحي بعد حصولي على هدية... ظننتُ أنّه ليسَ من حقّي الحصول على واحدة... ظننتُ أنّي أفقرُ وأبأسُ من ذلك، كانتْ أوّل هديّة أحصل عليها في حياتي.

دخلتُ الجامعة وكانَ عليّ حينَها تغيير برنامج عملي، صرتُ أعملُ في سوق الجمعة، كانَ ذلك يفي باحتياجات العائلة، خرج أخي من السّجن

وخلّفني في العمل بالكشك، بدأتِ الأمور تتحسّن، لعلّه من حقّنا أن نسعَد من حينٍ لآخر.

الأيّام الّتي تَلتْها كانت صعبة لكنْ ليست بقدر سابقتِها، حسنَتُها الوحيدة أنّها كانتْ سببَ لقائي بالحبيبة ميلين الّتي تزورني أيّام الجمعة وتشتري منّي من أجل الشراء فحسب محاولة دعمي، تساءلتُ يومَها: هل تبقى معي لو علمتْ بكلّ شيء؟، كنتُ بدوري أخفي مخاوفي من القادم، تساءلتُ إن كانت ستحبّني حين تعلمُ بما أخفيه.

عمّي يغموراسن أخذ موقعَهُ مقابِل الشّعلة في دار الخابية، الجميعُ منصتٌ ينتظره في لهف شديد، تطوّرت الأحداث بشكل مشوّق، يبدو أنّ العفريت حمّو-قيّو يستعدّ لأمر عظيم في أعماق البحيرة المنحسرة. واصل عمّي يغموراسن سردَ الحكاية.

الفصل

الخامس

بعدما سمحَ النّاسك الصادق لأقمَد بالمضيّ، واصلَ سيرَهُ إلى قرية الحكيم ورأى أثناء ذلك العجيب والأعجب والغريب والأغرب، رأى الماء يشرَبُ البشر والغيوم تهطلُ من القطَر، رأى الثّلوجَ ترتَعد ورأى المياه تتّقد، مرّ ببرزخ بين الأرض والسّماء يدفن فيه الموتى الأحياءَ، على جانبِ الطّريق نادتْهُ الأرواحُ التّائهة في عالم الضّياع طيلة رحلته، لكنّه عملَ بنصيحة النّاسك، لم يلتفت ولم ينظر في عينيها وإلا التهمه الفراغ. ابلجَ بعض النّور في نهاية المسار، إنّها نهاية الطّريق. أسرع أقمَد إليها وشيئا فشيئا تجلّى له البائعُ يسدّ الباب، ما الّذي يريدُهُ يا ترى؟ كانَ أقمَد يعلم أنّه لنْ يلجَ القرية بهذه السّهولة، توقّع حدوثَ أمر يعقّد الأمر. تقدّم إلى البائع وسأله:

-ماذا تريد؟

-اشترِ منّي وادفعْ.

-ماذا أشتري؟ وما هو الثمن؟

حينَها طفتْ عيون البائعِ ثم أغمض جفنيهِ ونام، لم يعد يسمع أو يتجاوب، لذلك انتظرَ أقمَد قيامَه من جديد، مرّت ساعة... ساعتان... ثلاث ساعات... لم يستفقْ البائع إلّا بعد انقضاء اليوم، حينها فتحَ عينيه وأعاد طلبَهُ:

-اشترِ منّي وادفع.

-ما هي السلعة الّتي تبيعُها؟

من جديد طفتْ عينا البائع ثم أغمض جفنيه ونامَ، هذه المرّة يعلمُ أقْمَد أنّه لن يفتَح عينيه قبل الغد، لذلك أغفى قليلا ليستريح من النّصَبِ الّذي أصابه، سمِع في المنامِ صوتَ جدّه الذي فارقه منذ سنواتٍ يناديه:

-أقْمَد... أقْمَد!

التفتَ في كلّ صوبٍ وإذا بعين جدّه تنظر إليه من خرمٍ صغير في السّماء.

-جدّي أهذا أنت؟

كانَ جدّهُ يطلّ عليه من نافذة الأرواح، حاول تحذيرَهُ من شيء ما.

-انهض يا أقْمَد...

استفاق أقْمَد في الحين وإذا بالأرواح التّائهة اقتربتْ منه تستعدّ للاستحواذ عليه، من حسنِ حظّه أنّه استفاق في الوقت المناسب، نسي النّاسك أن يحذّره من النّوم لأنّه عالم تختصّ به الأرواح وفورَ دخوله إليه ستتمكّن من السيطرة عليه. انتظر بنفاد صبرٍ استفاقة البائع من جديد، مرّت ساعات طويلة كأنّها أيّام قبلَ أن يفيق من نومِه، حينَها طلب منه مجدّدا أن يشتري منه كما في

المرّات السّابقة، تأنّى أقمَد هذه المرّة وفكّر بعمق، تمكّن من الاستنتاج أن البائع لا يقبل الأسئلة وأنّه في حالة نومه لنْ يستفيق قبلَ مرور يومٍ كامل: بما أنّه لم يحدّد السّلعة ولا الثّمن لماذا لا أشتري فحسب؟

-أريد شراء ساعة من الوقت.

-كلّ ما لديّ هو دقيقة واحدة فحسب.

-سأشتريها إذن.

-بِكم؟

لم يكنْ لديه شيءٌ يدفَعهُ له، لكن حينَ تغدو الأمور مجنونة قد يكونُ أيّ أمر يقدمُ عليه المرء معقولا، أجاب على الفور:

-سأشتريه بنفخة من اللّهب.

وافق البائع وعندئذ وضَع خنصره على راحة يد أقمَد فظهر عليها وشمُ ساعة رملية. طلبَ من أقمَد وضع الثّمن في الكيس، كانَ عليه الارتجال والتنفيذ بدون أسئلة وإلا نامَ البائع مجدّدا، نفخ أقمَد اللّهب من فمِه في الكيس، فتحوّلت النّيران إلى كرة حمراء وقرّت داخل الكيس، يبدو أنّها طريقة عملِ البائع، يتاجر بالأشياء الّتي يحصل عليها من زبائنه، بعدها تلاشى البائع

في الفراغ لتغدو الطّريق سالكة للعبور، أخيرا... ولج أڤمَد عبر الباب إلى القرية الّتي يعيش فيها الحكيم، أضحتِ الإجابة الّتي يبحثُ عنها أقربَ من أيّ وقتٍ مضى!

مؤامرة ضدّ أبله

توقّف عمّي يغموراسن عن سردِ الحكاية، عجبا! الشّعلة لم تنطفئ بعد بل ويبدو أنّ ألسنة اللّهب تجعلُ ما رواهُ يظهرُ على أنّه الثلث أو الرّبع.

-آسف أبنائي، أشعر ببعضِ المغص في بطني، سنكملُ غدا إن شاء اللهّ.

نهضَ عمّي بمساعدة الشّباب.

-لا عليكَ عمّي، صحّتك أوّلا، شفاكَ الله...

رافقتُه كالعادة إلى المنزل لكن بخطواتٍ أبطأ، مع تقدّمنا زادَ قلقي من تعابيرِه الّتي بدأت تعكسُ الألم، بالكاد وصلنا إلى المنزلِ، كانَ عليه الاستلقاء ليتحسّن حالُه كما أنّ خالتي ماتيّا أعدّتْ له "تيزانة" أعشاب طبّيّة لتسرّعَ شفاءَه. ذهبتُ إلى الغرفة رفقة زوجتي لأرتاحَ قليلا، غيرَ أنّ عينيَّ أغمضتا جفنيهما من شدّة النّعاس الّذي غشيني. نمتُ عميقا إلى أن أحسستُ بميلين تربتُ على كتفي لتوقظني، حلّ الفجرُ سريعا! حتّى أنّي لم أحظَ بالراحة على الإطلاق، يبدو الأمرُ كأنّي لم أنمْ إلا ساعة من الزمنْ، فتحتُ عينيّ على ساعة الحائط الّتي تشير إلى الثّانية ليلا، ثمّ استطعتُ سماعَها وهي تقول:

-أبي مريض، يحتاج إلى الذّهاب إلى المستوصفْ.

كانتْ قلقة جدّا، يبدو أنّ الآلام اشتدّت بعمّي وأصابَهُ الإسهال.

-إنّه تسمم بالتّأكيد.

قلتُها وأنا أرتدي ملابسي وأتحسّس جيبَ سروالي باحثا عن مفاتيح السيّارة.

-أخبريني ماذا تناولَ خلالَ اليوم؟

-ما أكلناهُ فحسب! عدا قطعة صغيرة من لحم الدّجاج تبقّت في الثّلاجة.

-هي السّبب بالتّأكيد، لا تقلقي سيكون بخير.

ساعدنا عمّي على الوصول إلى السيّارة ثمّ انطلقنا جميعنا إلى أن وصلنا إلى المستوصفْ بالاعتماد على توجيهات زوجتي وخالتي، كانتا قلقتين جدّا، أمّا أنا فكنتُ هادئا لأنّي شاهدتُ مرارا أشخاصا يتعرّضون لهذا بمن فيهم أنا، الأمر مؤلم لكن فور خضوعِه للعناية الطّبّية سيتحسّن فورا، أدخلناه على عجلٍ إلى غرفة الطبيبة المناوبة الّتي شخّصت حاله بعدَ أسئلة روتينيّة ثمّ وَصفتْ له علاجا مناسبا خضع له في الغرفة المجاورة.

ذهبتُ للجلوس في قاعة الانتظار بينما تركتهما بجانبِه ريثما يتحسّن. هذا المكانُ من أسوءِ الأماكنِ الّتي يزورُها المرء، خاصّة إذا كانتْ له ذكرياتٌ مؤلمة فيه، أمّا عنّي فقد كنتُ متخما بها، لقد كنتُ هنا ذاتَ يوم وهنا لفظ والدي آخرَ أنفاسِه، طلبَ منّي الاقتراب منه ثمّ همسَ بصوتٍ وهنٍ: أمّك وأختاك... اعتنِ بهما، أمّا عن أخيك فقدْ سامحتُه... لم أخبرهُ بذلكَ يوما، لعلّي خشيتُ في البداية أنْ يعودَ إلى الأعمال الطّائشة لو علمَ أنّ أبي تجاوز عنهُ قبلَ رحيلِه، كانَ أخي حينها لا يزالُ خلفَ القضبان.

أبي لم يتركْ لنا مالا ولا عقّارات غيرَهذا البيتِ الّذي بناهُ حينَ كانَ لا يزالُ بخير، لطالما قالَ لنا: تركتُ لكم دعوة الخير.

تقول والدتي أنّ من يحصلُ عليها فإنّ حياتَه ستكون أسهل، لكن للتوّ بدأتْ حياتي تتعقّد بعدَ رحيلِه. مضتْ عدّة شهورٍ منذ ذلك، بدتِ الحياة مكانا ممكنا للعيشِ فيه من جديد، فقد بدأتُ الدّراسة بعد حصولي على البكالوريا وخرج أخي من السّجن وبدأ العمل بعدَ أن خلفني في الكشكِ، بينما بدأتُ عملا جديدا في سوق الجمعة، على الأقلّ نعرفُ الآن أنّه لا يسرقُ متجرا ما، في تلك الأثناء كانَتْ تفصلني حوالي سنتين عن التعرّف على ميلين.

أيّامهَا صار لي كثير من الأصدقاء، عرفتُ الكثير من البنات حتّى أنّي أحببتُ إحداهنّ وصرنا حبيبين، كانَ كلّ شيء على ما يرام، أمضينا السّنة معا، كانتْ مليئة بالذّكريات الجميلة.

أحيانا حينَ تتذوّق اللّقمة تستمتع بها لدرجة أنّك تظنّ أنّ هذه اللّحظة لن تنتهي، لعلَّ ظنّك أنّها حينَ تنتهي ستكونُ قد شبعتَ ولن تعودَ ذات أهميّة بالنّسبة لك هو ما يجعلُكَ مستمتِعا، لكنْ ماذا إنْ لم تستطعْ أن تُشبِعكْ؟ حينَها ستتحوّل إلى أمرٍ تريدُه بشدّة أكبر وقد لا تحصلُ عليه مجدّدا وقد يؤذيك بذكراه لأمدٍ طويل.

بدتْ مجنونةً بي، تقبّلتني كما أنا، كانتْ بسيطة جدّا، أذكرُ أنّها دعتني ذاتَ يومٍ لأكل البيتزا، كانتْ تملك في محفظتِها مئتي دينار فقط وحينَ جلسنا إلى المائدة وجدْنا أنّ أرخصَ أنواعِ البيتزا ثمنُها مئتا دينار! كانت تحتوي على صلصة وثلاث أو أربع حبّات زيتون فقط، طلبناها وبدتْ سعيدة جدّا حتّى أنّها جلستْ بقربي بدلَ أن تقابلني، لذلك كنتُ سعيدا ومندَهشا حينَها.

بعدَ سنة من علاقتنا كانَ عليها أن تكتشفني بشكل أعمق، لذلك دعوتُها إلى زيارة البيتِ، كنتُ مريضا بشكل خفيف أيّامها أو هذا ما بدا لي،

زيارَتُها للبيت واضطّلاعها على أحوالنا كانتْ المنعرَج الّذي جعلَها تستفيق، هل هذا حقّا ما تريده؟ كانتْ تفكّر بمثاليّة وانجرفتْ خلف الشغفِ وعنفوان الحبّ، لكن هل تستطيع تحمّلَ هذا؟ بعدَ ذلَك بدأتُ أشعرُ بالشّفقة في نظراتِها قبلَ أن تتعوّد على كوني مجرّد محطّم آخر في هذه الدّنيا، هنالكَ الكثيرون مثلي، إنّها قسمةُ القدر ولا يمكنُ عملُ شيء حيالَ ذلك. في نهاية السّنة كانتْ قد تحوّلتْ فعلا إلى شخص آخر لا أعرفه، حتّى أنّها تصنّعتِ الأسباب لتخاصمني ثم التخلّي عنّي نهائيا ما سرّع في تدهورِ حالتي.

أمضيتُ الصّيفَ أداري الحزنَ الّذي يسيطر عليّ، كانَ الفراغُ أكبرَ من أنْ يملأهُ أيّ شيء حاولتُ فعلَه وكانَ النّومُ أخفّ من أن يغيّبني عن الواقع القذر الّذي لا مفرّ لي منه، كنتُ أتمنّى لو باستطاعتي وضعُ حدّ لحياتي، تساقطَ معظمُ شعري وهزل جسدي، كلّ ما كنتُ أقوم به هو العمل لتوفير المال، كدحتُ كالمملوك من أجل عائلتي ومن أجلها كذلك، ساعدَني هذا على البقاء حيّا إلى غاية عودتنا إلى مقاعدِ الدّراسة.

مظهري الجديد لم يُساعد في دعمِ الأصدقاء لي، بل جعلَهمْ يتفرّقونَ الواحدَ تلوَ الآخر عنّي، أمّا الفاجعة فهي حينَ عِلمي أنّ حبيبتي اتّخذتْ حبيبا

جديدا، كنتُ الأوّل في حياتِها لكنْ ما الّذي جعلني أظنّ أنّي سأكون الأخير؟ مِنَ البيِّن أنها اكتشفتْ أنّها تستحقّ أفضل وأنّ حياتها من الممكن أن تكونَ أجمل، فهو يدلّلها ويشتري لها ما تشاء، حتى أنّ صديقي حكى لي عن دخولِها في الصّيف إلى متجرِه أين ابتاع لها كلّ ما وقعتْ يداها عليه... المال لا يشتري السّعادة؟ لمَ تبدو سعيدة جدّا إذن؟ المال يشتري السّعادة والسّعداءَ أيضا، لقد قال أنّهما دخلا متجرَهُ في "الصّيف!" إذا الأمرُ بدأ أبكر ممّا ظننتُه، نعمْ! لقد كانا معا حتّى قبل الموعدِ الذي أظنّه.

شهاداتُ أصدقائي أكّدت لي لاحقا أنها كانتْ تلاطفه ويلاطفها بل ويتعانقان منذ أن كانتْ لا تزال مرتبطة بي... اللّعنة! لمَ أنا آخر من يعلمْ؟ الجميع كانَ يعلمُ إلا أنا؟ كيفَ كنتُ أبدو حينَ أمشي بقربِها؟ لا بدّ أنّ الجميع كانَ يضحك ويشير إليّ من دبر: انظروا إلى الأبله!

أحيانا يتواطأ الجميع في قتلِك، يتآمرُ الجميعُ ضدّك وتسأل نفسك: ماذا فعلتُ لهم؟ لمَ يتلذّذون بالانتقام منّي؟ الحقيقة أنّك لم تفعلْ شيئا لهمْ لكنّك ارتكبتَ الكثير في حقّ نفسك بمجرّدِ كونكَ غبيّا وساذجا ولأنّك توقّعت الكثير! آه نعم تذكّرت! أنا معتادٌ على الحزن ولا يحقّ لي أن أسعدَ كالآخرين،

يومَها بدأتُ الشّفقة على نفسي حقّا ولم يعدْ بوسعي ارتداء قناعِ الثّقة ذاك، لا شيء يجعلُكَ بائسا بقدر الاقتناع بأنّك بائسٌ حقّا ولمْ تُخلقْ لتسعد. هِمتُ في الشّارعِ كلّ يومٍ، لا وجهَة لي أقصدُها لذلك كلّ الأماكنُ وجهتي لعلّ القدرَ يتعمّد إيهامَنا بالعشوائية والصّدف ليُموِّه خطّته الحقيقيّة، فبينما كنتُ أتيه في كلّ صوب، التقيتُ بفتاةٍ كنتُ أعرفُها، لم تجمعنا صداقة ولا أيّ شيء لكنّها كانت صديقة صديقتي المفضّلة قبل أن تغيّر رقمَ هاتفها وتختفي سادّة كلّ المنافذ للوصول إليها، رأتني وكنتُ أبدو كالطّفل الّذي أفلتتهُ يد أمّه فضلّ عنها، سألتني عن حالي وحالي يتكلّم عن نفسه، رغم ذلك أجبت: بخير... الحمدلله.

حينها طلبتُ منها ممازحا أن تشتري لي حبّة "مقرود"، ذلك لأنّنا كنّا واقفَين قرب محلّ الحلوى، على الفور دخلتْ واشترتْ لي واحدة بلْ واشترتْ لي حبّة من نوع آخر إضافة إلى الأولى، قدّمتها لي وحينَها اغرورقتْ عينانا بالدّموع، شعرتُ أنّه لازال هنالك من يفكّر بي، هذه الغريبة الّتي لا تدينُ لي بشيء مستعدّة لمساندتي، أنا لم أسألها بعدُ عن اسمها حتّى! أخبرتني في وقتٍ لاحقٍ عن سبب رغبتِها في البكاء وأخبرتني أنّها عندَ النّظر إليّ شعرتْ أن الجميعَ تخلّوا عنّي وتركوني وحيدا حين احتجتُ إليهم.

خيانة حبيبتي لي كانتْ الضّربة الّتي قصمت ظهري ودخلتُ بعدَ أيّام منها إلى المستشفى. أيّامها كان الخبرُ السّعيد الوحيد الّذي سمعتُه هو حصولي على معدّل كبير خلال الفصل الأوّل، لكنْ من الواضح أنّه لن يكونَ لذلك معنى، فحالتي تغدو أخطر شيئا فشيئا.

حاولَ الأطبّاء وبذلوا كلّ ما في وسعِهِمْ، لأوّل مرّة منذُ مدّة شعرتُ أني سعيد ومرتاح تماما، ربّما لأنّ حياتي صارت على المحكّ ولم يعدْ لديّ ما أخسَرُه، كنتُ في سكراتِ المرض أنانيّا، فعائلتي على مقربة منّي على ضفّة الحياة تحاولُ انتشالي من الموت وتتمسّك بي بقوّة، كانتْ أمّي تحاولُ أن تبتسمَ رغمَ الكآبة التي تلوّن خلفيّة وجهها، تكذبُ عليّ أو ربّما هي تكذبُ على نفسها بما تحدّثها به أمنياتها حين تقول لي:ستخرج عمّا قريب من المستشفى... كنتُ أقول لنفسي وأنا أتذكّر احتضار الرّسول في حضور ابنتِه فاطمة : كفاكِ يا أمّي أعلمُ أنّها النّهاية... لا حزنَ على ابنِكِ بعدَ اليوم... كنتُ أرجو الذّهابَ إلى مكانٍ أفضل، مكانٍ لا حسد ولا غيبة ولا أجساد فانية فيه.

خسِرتْ عائلتي خلال تلكَ الأسابيع كلّ مدّخراتِها وكَبُرَ ذلكَ في نفسي، كانَ الفقرُ قبيحا جدّا ووقِحا، جرّدنا من الطعام واللّباس والأصدقاء والأحبّة،

جرّدنا من كرامتنا، حتّى أنّ والدتي ترجّت الطّبيب ليساعدني ويفعل ما بوسعِه، لمَ نحتاج لطلب حقوقِنا؟ لم علينا أن نتوسّل إلى الآخرين لتأدية واجبِهم؟ لم علينا شكرُهمْ لتأدية ما عليهم؟ الفقر وقِح والحياة ظالمة، لم يكنْ لأحد أن يقنعني أنّ الدّنيا لا تزال بخير، لعلّ الخير يتجنّبنا كما فعلَ النّاس، الجيران والأعمام والأخوال والأصدقاء... كلّهم تركونا لنلقى حتفنا رويدا، إذا عدتُ للحياة من جديد فسيكونُ ذلك لتخييب أملهم!

خلالَ الأيّام الّتي تلتها زارني كثيرٌ من الغرباء، حتّى أنّه صارَ لي أصدقاءٌ جُـددْ كانوا يعلمونَ أنّه ليسَ باستطاعتي تقديم أيّ شيء لهم، هم هنا لأنّهم يريدون بشدّة تقديم كلّ شيء ممكن لي.

من بين الزّائرين تلكَ الآنسة الّتي اشترت لي "المقرود"، زارتني بانتظام محضرة معها المكسّرات في كلّ مرّة حتّى أنّي أصبحتُ أدعوها بالاسم الّذي لازمها طويلا بعد خروجي "بيسطاشة"، بدأ الإيمان بالبشريّة يضيء من جديد في صدري، لعلّ اللهّ أراد أن يطهّرني بهذا المرض من الذّنوب ولكنْ كذلك من هذه العوالق الّتي كانتْ تعيش حولي وتتغذّى على ما أعطيه لها من أمل وعزيمة

ونجاح وإيجابيّة ولا دورَ لها في حياتي غيرَ ذلك، من يدري؟! توالتِ البشارات حينَ علمتُ بالرّؤيا الّتي رأتْها والدتي، جلستْ عندي بعدَ أن قبّلتني وقالت:

-أجدادكَ يسلّمون عليك!

-أجدادي؟ من؟ كلّهم موتى!

-نعمْ، لقد زاروني في المنام وأرادوا أن تذهب معهم!

في بلدتي الكلّ يعلمُ معنى هذا، إذا أخذ الميتُ شخصا ما معه، فذلك يعني أنّه قد حضرهُ الأجل وسيموتُ قريبا، لكن ما الّذي يسعِدُ أمّي في الأمر؟ سألتها:

- وبعد؟

-لكنّهم في اللّحظة الأخيرة قرّروا تركَكَ معنا.

علمتُ حينَها أنّ شفائي قد قرب موعدُه، في هذه المرّة أيضا كنتُ سعيدا بالشّفاء سعادتي بالموتِ قبلَها، كلا الخيارين يبدو جيّدا، فقد تخطّيتُ أحزانَ الماضي وسأعيش لأسعِد أمي وإخوتي وأكونَ عونا لهم على تصاريف هذه الدّنيا.

كانتْ فرحتي بالخروج من المستشفى كبيرة وصارت أكبر حين استطعتُ الحصولَ على معدّلٍ أهّلني للانتقال إلى السّنة المقبلة، بمساندة بعض الصّحب وملازمة صديقتي "بيصطاشة " ومجموعتها لي. انتقلتُ إلى السّنة المقبلة... السّنة الّتي جمعتني برفيقة عمري.

بينما خطفتني الذكريات إليها، كان عمّي يغموراسن قد أصبح أحسن حـالا لذلك عدنا رويدا إلى المنزل بعد أن اطمأننّا على حاله. بعد دقائق من الصمت تكلم أخيرا في منتصف الطريق قائلا:

-الدجاج بن الكلب، لقد غدر بي...

كسرت كلماته الصمتَ وأصابتنا بهستيريا من الضّحك، أجبتُه بعدها:

-دجاجة أم كلب يا عمي؟

بعد أن خفتَ صوتُ ضحكاتِنا، أعاد عمّي تشكيل ملامحِه وغلبتْ عليها مسحةٌ من الجدّية ثم قال:

-لو قلتُ ذلك عن إنسان لما بدا أمرا غريبا، هكذا يحتقر البشر بعضهم للأسف.

لا يكفّ عن إبهاري! كانَ بإمكانِه المزاحُ وإلقاء الحكم طوال الوقت ولم يكنْ ليبدوَ مجرّدَ عجوز ثرثارٍ ونكِد... على عكس رحلة الذّهاب، كانت الطّريق لدى عودتنا محفوفة بالمتعة والهدوء، كانَ النّسيمُ أقرب إلى البرودة، لا يوجد على الدّرب سوانا، كنتُ كالعادة أشَدَّهم إعجابا وانبهارا بما يحدث. في تلك الأثناء قرّرتُ أن أبدأ جولاتي ذاتَ يومٍ مع ميلين، سنسافر لنزور كلّ مكانٍ ممكن في المستقبل.

أمضيتُ حياتي محاولا أن أشبهَ الآخرين، سعيتُ للحصول على بيت وزوجة ومال وصالونٍ عصريّ و... تمكّنتُ من ذلك، في هذهِ الأثناء حينَ يصبِحُ الجميعُ متشابهين تحين فرصتك لتكونَ مختلِفا عنهمْ من جديد، لكن بمحضِ إرادتِك بدلَ أن تكونَ مرغما على ذلك، فعندما تخبر نفسَك أنّ المشيَ أفضل من ركوبِ سيّارة فارهة على الدّوام فأنتَ لا تصدّق نفسكَ من الأساس، لذلك تسعى لامتلاكِ واحدة ثمّ تقرّر تركها مركونة أغلبَ الوقت والمشي على قدميك، الآن فقط يمكنك إقناعُ الجميع بفلسفتك! ففي معظم الأحوال لا يمكنُكَ جعلهم يصدّقون كلاما أنتَ نفسُكَ لا تصدّقه. وصلنا إلى البيتِ وذهبَ كلٌّ منّا مطمَئنّا إلى مضجعِه. تقلّبتُ في مضجعي لدقائق عدّة...

-أنتَ أيضا؟

يبدو أنّي لستُ الوحيدَ الّذي لا يستطيع النّوم.

-لم أستطعْ النومَ مجدّدا بعد استفاقتي.

-هل أحضّر لك شيئا ما حبيبي؟

-لا عليك حبيبتي... في الواقع هنالِكَ سؤالٍ يجول في خاطري...

-لَماذا أرادَ أبي حضورك لتسمَع قصّته؟ أظنّ هذا سؤالكْ!

-تماما!

-سيتعيّن عليكَ اكتشاف الأمرِ بنفسِك! أنتَ ذكيّ بما يكفي... أعلم.

-إذن أنتِ تعرفينَ القصّة!

-ربّما نسيتُ بعض تفاصيلِها، لكنْ على العمومِ... نعمْ.

لمْ أشأْ أن أسألها مزيدا من الأسئلة عن الأمر، فعلتُ ذلكَ من أجلي فالأمرُ بدا تحديّا مثيرا للحماس بالنسبة لي، عليّ اكتشاف الأمر بمفردي، الشّيء المؤكّد الوحيد هو أنّ مغزى القصّة يتعلّق بميلين. دردشْنا بعد ذلك طويلا إلى أنْ غِبنا عن الوعي.

مضى اليومُ التّالي عاديّا كسابقيه، كانَ شُغلي فيه انتظارُ اللّيل، غيرَ أنّه لم يخلُ من الأحداث الجديدة، فبعدَ تناوُلِنا الغذاء، أحضرت خالتي ماتيّا موقِدا صغيرا وإبريقًا وبعضَ أوراق الشّاي. جلسَتْ على الأرضْ وأوقدت النّار وسط دهشَتِنا، كانتْ تعدّ الشّاي كما وصفتُ لها ذاك اليوم خطوةً خطوة.

كانتْ تبدو كتلميذة مجتهدة حريصة على ألّا يفوتَها أيّ شيء، بينَما كنتُ كالأستاذِ المستعدِّ لالتماس الأعذار لها لأنّها محاوَلتُها الأولى، هي لا تعلَمُ أنّي في الدّيّار أعَدُّ من أسوء الأشخاص الّذين يُعِدّون الشّاي.

لم تنسَ أن تطبُخهُ على أهدئ نارٍ ممكنة، أنقصتْ قليلا من الماء حينَ أوشَك على الغليان وكانتْ تتذوّقه بين الفينة والأخرى لتتحقّق من شدّة تركيزه، فعلتْ كلّ ذلك بصبر كبير وهو الصّفة الّتي لا أملِكُها.

كانَ طعمُه أفضَل من أيّ شاي أعددتُه يوما، لكنّي احتفظتُ بالسّرّ لنفسي بالتّأكيد، لا أريدُ أن تسجّل عليّ أهدافا خارجَ ملعبي مستعملة أسلوبي. كانتْ لفتة جميلة منْها، أثنيتُ عليها كثيرا وشكرتُها على مبادَرتِها الطّيبة، بينَما ضحكَ عمّي وقال:

- ايهي... رجعتِ صحراويّة "يا سيدي"!

في اللّيل وداخل دار الخابية كانَ عمّي قد أخذَ موقعَه أمام الشّعلة بعدَ أن اطمأنّ الجميعُ على حالِه، الشّبابُ كلّهم مُصغون في لهف، حينَها واصل سردَ الحكاية.

الفصل

السّادس

دخَل أڤمَد إلى القرية الّتي يسكُنها الحكيم، كلّ أملِه أن يجِدَ الإجابة هنا، حسبَ ما قيلَ له وما التقطَهُ من هنا ومن هناك فإنّه منْ لمْ يجدْ جوابا في هذه الأرض فلن يجدَه أبدا في غيرها، لا يهمّ ما يُقالُ الآن ما دام بيده أن يتحقّق بنفسِه، فليسَ من المجدي أن يسألَ شخصٌ عن طعمِ الموتِ وحبلُ المشنقة يطوّقُ عُنقَه.

بدى الجميعُ في هذه القرية كئيبا وغير مبالٍ، مشى بينَهم ولم يكلّفْ أيٌّ منهم نفسَه عناءَ إلقاء نظرة على هذا الوافد الغريب، قضى اليومَ هائما في هذه الأرضِ الغريبة ولماّ بدأت شمس اليوم بالغروب، أدركَ أنّ عليهِ إيجادَ مكانٍ للمبيت، فهذه أرضٌ غريبة عنه ولا يأمنُ على نفسه أن ينامَ في العراء.

لن يكونَ من الصّائب السّؤالُ عن حكيم القرية فقد يستهدِفهُ أحدهم أو يظنّ به سوءً، بدلَ ذلك كانَ يسألُ كلّ من يلتقيه عن مكانٍ للمبيت ريثما يطلع النّهار مجدّدا، لسوءِ حظّه رفضَ الجميعُ مساعدتَه وما أن غربت الشّمس حتّى فرّ الجميعُ فجأة وتعلّقوا بأسطح وجدران منازِلهِم.

حينها هبّتْ ريحٌ قويّة كادتْ تقتلعُه من مكانِه لو لا قوّتِه وثباتِه وفي لحظة ما تشكّلت زوبعة رملية واتّجهت إليه فإذا بها تتشكّل على هيئة عفريتٍ عظيمِ

الخِلقة طولُه خمسون ذراعا في السّماء، له ثمانية أذرع وقدمانِ عظيمتان، عيناهُ تتّقدانِ نارا... إنّه واحدٌ من العفاريت السّبع العظمى ويدعى العفريتَ "أبانوخ" خادم الرّياح، كانَ يبدو مغتاظا لأنّ أقْمَد صمدَ أمامَ زوبَعتِه.

خاطَبَه بصوتٍ هزّ المكانَ كالرّعد:

-من أنت أيّها الغريب؟

-أنا أقْمَد من قرية الأفاعي، جئتُ بحثا عن حكيم القرية.

-ستبيتُ في بيتي سبعَ ليالٍ، إن بقيتَ حيّا أخذتُكَ إليه.

-وإن لم أنجح؟

-لعنتُ روحكَ وحوّلت جسدَك إلى غبار أطعمُ به زوابعي.

لم يكنْ أمام أقْمَد خيارٌ سوى الموافقة، من سوءِ حظّه التقى بخادمِ الرّياح ولو أنّه التقى بعفاريتَ أخرى لربّما أخذتْهُ إلى الحكيم مقابلَ خدمات بسيطة، مع ذلكَ عليه الحذر، فالعفاريت عادة ما تكونُ كاذبة ومخادعة.

فورَ موافقة أقْمَد طار به العفريتُ إلى بيتٍ بعيدٍ معلّق بالسّحاب بينَ السّماء والأرض أينَ سيتحدّد مصيرُه، كانَ واثِقا بالنّجاة، توالِي الأحداثَ الجيّدة يعطينا ثقة أكبرَ بوجودُ المزيد منها، حينَها علينا الحذرُ من خيبةِ الأمل،

فقد تعصِفُ بتفاؤلِنا وظنونا إلى الأبد... تركَهُ هناك ثلاثة أيّام حتّى يجوع، بعدها في كلّ ليلة كانَ يدخُلُ العفريتُ "أبانوخ" الغرفة ويضَعُ أمَام أقمَد خيارين: لغز أم أكل؟ كانَ أقمَد في كلّ مرّة يختار الأكل من شدّة جوعِه المتفاقمِ بوتيرة عالية وحينها يُعيدُ العفريتُ اليومَ إلى أوّلِه وتنمحي ذاكرة أقمَد.

أمضى شهرا على هذه الحال، من شبه المستحيل التغلّب على عفريتٍ في هذا المكان المسحور، أينَ يخضعُ لأمره عقربُ السّاعة في دقّاته. العفاريتُ كائنات مخادعة، حيلةٌ كهذه ستُبقي أقمَد في بيتِ العفريت معلّقا بين الزّمان والمكان إلى الأبد.

في اليومِ الأوّل من الشّهر الثّاني دخلَ العفريتُ غرفة أقمَد وأخطأ بترك البابِ مفتوحا، حينها تسرّب بعض الضّوء إلى الغرفة ورأى أقمَد عظامَ جسده قد برَزتْ، حينَها تفطّنَ لأمرٍ ما، أدركَ أنّ الوقتَ الّذي لبثَه هنا يفوقُ ثلاثة أيّام بكثير، علمَ أنّ الاختبار القادم يخفي في ثناياه خدعة أبقتهُ هنا كلّ هذا الوقت، رغمَ أنّه لا يتذكّر نوعَ هذا الاختبار، كانَ سيموتُ ويتحوّلُ إلى غبار ويصبحُ طعاما للزّوابع.

لم يُعرْ أبانوخ الضّوء الّذي أضاء من خلفِ الباب تلكَ الأهمّيّة وكالعادة طلبَ منه الاختيار: سؤال أم أكل، وضعَ أڤمَد يدَهُ خلفَ ظهره وأحدث في جلده جرحا ثمّ غافلَ العفريتَ وكتبَ على الأرض خلفهُ بخطّ رديء "سؤال"، لقد كتبَ الجوابَ الثّاني الذي لن يختارَه اليوم وفي حالة أخطأ الآن سيصيبُ غدا على الأرجح! في اليوم الموالي تحسّسَ أڤمَد حرارة تنبعث من الأرض، الضّوء منعدم ولا مصدر للحرارة هنا غيرَ جسدِه وهذه البقع على الأرض، تحسّسها بلسانه وأدركَ أنّه دمُهُ يلطّخُ الأرض، بالكاد استطاعَ قراءتها "سؤال"، لم يتذكّر متى حدثَ هذا أو من فعلَه، فقد مسحَ العفريتُ ذاكرتَه كما في كلّ ليلة، لكنّه عرف أنّ هنالك ما تريد هذه الحروف إخبارَه به، هي تحمِلُ سرّا ما، قدراتُ الأفاعي الّتي يملِكُها دفعتْ حظّه إلى حدودِه القصوى، لن يكونَ الحظّ بجانِبِه دائما.

حينَ دخل أبانوخ من جديد تفاجأ بأڤمَد يختارُ السّؤالَ هذه المرّة، حينها قدّم له الطّعام فأكلَ منهُ حتّى استعاد كلّ قوّته. لكنّ اختيارَه السّؤال لم يكنْ النّهاية، بل كانَ انتقالا إلى التحدّي التّالي فحسب. نظرَ أڤمَد إلى العفريت وسأله:

-حسنا، ما هو السّؤال؟

قهقه أبانوخ بصوتٍ اهتزّ له البيت وقال:

-عجبا من جرأتك! بقيتْ لديك ستّة أيّام لتفكّر في الجواب وإن انقضى الأجل دونَ أن تجده قتلتك، وإذا وجدتَ جوابا أخذتكَ إلى مرادكَ وكنتُ في خدمتِكَ في المستقبلِ لمرّة واحدة في حياتك متى طلبتني.

كانت كلمات العفريتِ تحمِلُ كثيرا من الخوف والإغراء، يحتاجُ أڨمَد إلى كلّ الحُلفاء والأسلحة الممكنة خلال مساره، لا يدري المرء متى يحتاج إلى أحدها. واصل العفريتُ قائلا:

-أمّا السّؤال فهو إيجاد الشّيء الّذي يخيفني.

هل من المعقول هذا؟ عفريتٌ بمثلِ قوّته يخاف؟ يتعلّم أڨمَد الكثير اليوم! كم هذا غريب! وضعَه هذا السّؤالُ في حيرة عظيمة، فكّر طيلة الأيّام السّتّة التّالية، كانتْ تزورهُ العفاريت متمثّلة في إناثٍ جميلةٍ أحيانا وفي أحيانَ أخرى تتمثّل له في صورة أشخاص يحبّهم حتّى تشوّشَ فكره، لم تنجح في ظلّ تركيزه لكنّها استطاعت الحدّ من كفاءته في التّفكير.

بحلول الدّقيقة الأخيرة من اليوم السّادس تذكّر شيئا ما... لقاءَهُ الأوّل بأبانوخ! كانَ مغتاظا ومنزعِجا جدّا لأنّ الزّوبعة لم تحرّكه من مكانِه، ما هو أكثرُ شيء يُعجِزُ الرّياح؟ دخلَ العفريتُ غرفة أقْمَد مستعدّا لقتلِه فهو معتادٌ على ذلك لأن لا أحد نجحَ قبلَه في هذا الاختبار.

-هل وجدتَ الجواب؟

-نعم... أنتَ تخافُ من الجِبال!

فوجئ بهذا الجوابَ وظلّ واقفا دونَ حراك، في حقيقة الأمر، لم يكن أبانوخ سوى عفريتٍ كئيب، عاش آلاف السّنين فعَل خلالَها كلّ ما يريد والآنَ شعرَ بالملل، العفاريتُ ليستْ آلهة، ذاتَ يومٍ حلّ أبانوخ بهذه القرية ولما رأى أهل القرية خائفين منه شعرَ أنّ الخوفَ سيكونُ شعورا جيّدا، سيخلّصه من الملل الذي يستوطنه، لكنّه لم يعرفْ ممّا يخاف، هو لا يخشى من أيّ عفريتٍ آخر ولعّهُ هو الأقوى بينَها، حاولَ كثيرا أنْ يكتشِفَ الخوفَ لكنّه فشل، لعلّ هذا الغريبَ وجدَ أخيرا الجواب! حمَلَ العفريتُ أقْمَد على كفّه وطارَ به إلى الجبل وهناكَ وضعَهُ على الأرض ثمّ قال أثبتْ لي ذلك وإلا قتلتُك الآن!

....

في قرية المثقاب، كانَ البعوضة توشوشت يعاني من الخيبة، جُرعةُ الدّم النقيّ الّتي أخذها من أقمَد لم تمكّنهُ من الطّيرانَ بعيدا، لم يعدْ بإمكانِه الحصولُ على قطرة أخرى من هذا الدّم النّادر. قبلَ غروبِ شمس اليوم جاءهُ رسولٌ من النّاسك الأبيض: الأفعى أقمَد يطلبُ منكَ اللّحاق به إلى قرية الحكيم الّذي يملكُ كلّ الأجوبة! ويطلبُ منكَ إحضار سمّان، فإذا وصلتَ إليه قل له: صاحبُ الدّين يدعوكَ لسدادِه.

يبدو أنّ هذا ما طلبَهُ أقمَد من النّاسك الصّادق حينَ همسَ في أذنِه قبل مغادرته متوجّها إلى قرية الحكيم! ليلتَها، نامَ توشوشت قليلا ومع أوّل شعاع للفجر، انطلقَ بسرعة البرق بفضل دمِ الأفاعي الّذي جعلَه أقوى وأسرع وطلبَ رؤية سمّان عندَ وصولِه إلى قرية الشّارب وأبلغَهُ برسالة أقمَد، فهِمَ القطّ سمّان الرّسالة ورافقَه للقاء أقمَد، لم يكنْ توشوشت حقّا مهتمّا لأمر أيٍّ منـهما لكنّها كانت فرصة لا تعوّض بالنّسبة له، فهو يحتاجُ بشدّة إلى كمّية أكبر من دم الأفاعي، كما أنّ المهمّة لن تكونَ صعبة في ظلّ سماح قرية النّاسك الأبيض بمرور البعوض دونَ عرقلة ولا اختبارات. كلاهما لم يكن يدري سببَ طلبِ أقمَد المفاجئ لحضورِهما.

الجزءُ الثّاني

هنا أصبحتْ شعلة عمّي يغموراسن جمرا آذنة بنهاية سهرة اليوم، عاد الكلّ إلى منزله بعدَ ليلة مليئة بالتّشويق، الأمرُ يزدادُ غرابة وغموضا، كنتُ

أتساءلُ دوما ما مغزى القصّة؟ لمْ يطلب عمّي حضوري لمجرّد أن يرويَ لي قصّة شعبية بالتأكيد!

عدنا إلى البيت، الرّيحُ باردة اليوم، استقبلتني ميلين غاضبة لعدم ارتدائي معطفا أو جلّابة كأبيها، ابتسمتُ وأنا أتذكّر مجدّدا أيّام الجامعة قبيلَ تخرّجنا بفترة وجيزة، أيّامها كانتْ ميلين تدلّلني وتحرصُ على إرضائي، تتمسّكُ بيدي بلامبالاة وتحرصُ على أن أغلقَ معطفي في الأيّام الباردة. يقَعُ الرّجل بسهولة في حبّ المرأة الّتي تنظرُ إليه كأنّه الرّجل الوحيد وتعامِلُه كطفلٍ مدلّل.

مع اقترابِ مناقشة مذكّرات تخرّجنا كنتُ أنظرُ إليها وأشعرُ أنّ الوقتَ ينازعني إيّاها، كما أنّي كنتُ قلقا جدّا بشأن الأمر الآخر، هل ستتقبّلني أمْ أنّها سترحَلُ مبتعدةً بعدَ أن تشفِقَ على أوضاع عائلتي المزرية؟ حبيبتي السّابقة كانتْ تقولُ أنّ المال غيرُ مهمّ، أيّامَها كانتْ مجرّد طفلةٍ نضجتْ فجأة حينَ رأتْ الفقرَ الذي أعيش فيه، ميلين تبدو ناضجة وأكثرَ صِدقا، هل يُمكِنُ لهذا البريق الّذي في عينيها أن يأفلْ؟ وهل سيخمد شغفها بي حينَ تعلمُ من أنا حقّا؟ أعني أني صادقٌ معها كلّ الصّدق لكنْ أحتاجُ لأن أعرفَ موقفَها من الأشياء الّتي لا

أقولُها، من الأشياء الّتي لم أخترها لنفسي، لكنّي وجدتُ نفسي داخِلَها سلفا، أخشى كذلكَ من نفسي، لم يعدْ باستطاعتي توقّع ردّات فعلي، أفاجئ نفسي باستمرار بشكلٍ غريب ولستُ واثقا بشأن الأشياء الّتي تزعجني، أشبِهُ آلةً فقدَ صاحبُها تعريفَها، فهو يكبسُ الأزرار معتمِدا على ما يظنّه صحيحا، لكنّه ليسَ متأكّدا ممّا سيحدث تاليا.

دخَلتْ إلى متجر الجامعة، اشترتْ مشروبين غازيين وحبّة حلوى لي، قسمتُها إلى نصفين وأعطيتُها النّصفَ الثّاني رغمَ عِلمي بعدمِ رغبتِها فيه.

- كلّا حبيبي... كُلْها كلَّها.

-وأنتِ؟

-لا رغبةَ لي فيها.

-مع ذلك ستقبلينَها.

-لمَ؟

-أريدُ أن نتقاسمَ كلّ شيء قدر الإمكان، السعادة... الحزن... كلّ شيء!

ابتسمتْ وتناولتْ القطعة براحتِها الرّقيقة وقضمتْ جزءا منها ثمّ قالتْ ضاحكةً:

-اعع... ذوقُها فظيع للغاية.

كنتُ أوافِقُها الرّأي، بدَتْ جميلة من الخارج لكن لمْ يكنْ الأمرُ كذلك في واقِعِها هي تشبِهُ أناقتي الخادعة، نظرتُ إلى الحلوى بين أصابعي متأمّلا مدى تشابهنا...

-مع ذلك أحببتُها لأنّكَ أعطيتَني إيّاها!

جعلتني كلماتُها أبتسِم لكنْ لم تبلغْ بي الفرحَ الّذي من المفترض أن يعتريني لسماعِ كلماتِها الّتي تتقاطرُ منها الرومنسيّة وكأنّها شهد عسلٍ، حزّه حدّ السّكّين قبلَ ثوانٍ.

-هل هنالك ما يشغلُ بالكَ حبيبي؟

هممتُ بقوليَ المعتاد "لا شيء" لكنّي ظننتُ أنّ الوقتَ مناسبٌ لطرح الموضوع.

-ميلين... هل ترغبين في نقل علاقتنا إلى المستوى التّالي؟

كانتْ مستغربة جدًا من طرحي المفاجئ، كأنّها تقولُ أيّ مستوى تالٍ يقصد؟ هل يقصد الزّواج؟ قالتْ بعدَ ثوانٍ من الصّمت:

-بالتّأكيد...لكن ماذا تقصد بالمستوى التّالي؟

-همم... في الواقع كنتُ... كنتُ...

-كنتَ ماذا؟

-كنتُ أفكّر في أن تزوري منزلي لتتعرّفي على أمّي وتتعرّف عليك.

-كيفَ ذلك... أقصد لا يبدو الأمرُ لائقا، بأيّ صفة أزورُها؟

-لا تقلقي بهذا الشّأن، لديّ فكرة.

نظرتْ إليّ في انتظار أن أكمل:

-ستزورينَها مع أصدقائنا، كواحدةٍ منهم!

لم يكن إيجاد الفكرة صعبا عليّ، ربّما ساعدَتْني خبرتي مع محبوبتي السّابقة.

- وهل أخبرتَهمْ بهذا؟

نظرتُ إليها مبتسما بمكر ثمّ غافلتُها ودغدغتُها وهي تشهقُ ضاحكة وتتلوّى في كل الاتجاهات متفلّتة من أصابعي وقلت:

-أنتِ من سيفعل!

تجادلنا بحُمقِنا وخفّة دمينا المعهودة لعدّة دقائق بعد أن أفلتتْ من بينِ يـديّ، لكنّها استسلمتْ أمامَ عنادي في النّهاية. فتحتُ جيبَ محفظتي وأخرجتُ منهُ قميصا قديما لرضيع، وناولتُها إيّاه، تأمّلتهُ قليلا... من الواضِح أنّه عتيق، كما أنّ هنالِك شرخا ناحية الرّأس، بعدها سألتني بذكاء لم أعهدهُ منها:

-أظنّه لك؟

أومأتُ لها بالإيجاب، حينَها انفجرتْ ضاحكة وقالت:

-لا بدّ أنّ رأسكَ كانَ ضخما يا غليظ الرّأس.

في الحقيقة لم تخطئ، ففي ذاك السِّنّ كانَ حجمُ رأسي يفوقُ جسدي بحيثُ يبدوانِ غيرَ متناسبيْن، ضحكتُ كذلك لضحكِها.

-لا تزالُ طفلا لم تكبرْ كثيرا.

- ما دمتِ بجانبي سأظلّ كذلكِ، سأحبّك بقلب طفل دائما.

كانتْ مجموعتُنا كالمعتاد جالسة في أحد مقاعدِ الجامعة في انتظار وصولنا. الآن عليّ المخاطرة بهيبتي وبحبّنا أنا وميلين وبصداقتي مع هؤلاء

الرّائعين، رغمَ علمي أنّ رحيلَهمْ سيكونُ أفضلَ إن لم يتقبّلوني بعدَ رؤية وضعي، إلّا أنّي كنتُ لأفضّلَ بقاءَهم لوقتٍ أطول ريثما أستعيدُ نفسي تماما، لم تكن السّنين الماضيّة سهلة عليّ وبقائي وحيدا من جديد قد يعرّضني لشذوذ نفسي قد لا يبرئ مجدّدا، أحيانا على الأسدِ الجريحِ أن يمشيَ مع القطيع ريثما يستعيد قوّتَه ويجد أرضا تأويه وتخلو له ليحكمَها، الشجاعُ هو شخصٌ يتغلّبُ على مخاوفِه في الغالب، لكنّها تهزِمُه أحيانا وحينَ تفعَلُ ذلك لا يُجبِرُ أحدا، لذلكَ يظنّ النّاس أنّه لا يخاف مطلقا ولا ينهزم، من أجْلِ هذا لا تخجَل بضعفِك ولا تخشَ الهزيمة لأنّ الهزيمة الحقيقيّة هي الانهزام من الدّاخل، حينَ يسيطر عليك شعور أنّها النّهاية ولن تفوزَ لاحِقا مهما حاولتَ، في حقيقة الأمر أوشكتُ على ذلكَ مرّات عديدة، لكن كنتُ أرى "آمال" صديقتي الّتي تعمَلُ بالمكتبة مبتسمة طوال الوقت، حتّى أنّ المكتبة كانت تبدو أكثرَ إشراقا في مناوبَتِها، خلال السّنوات الأخيرة فقدَتْ أحبّ النّاس إليها وعاودتْها إصابة الطفولة بحيث حدثَ اعوجاج في عمودِها الفقري واحتاجت مبلغا ضخما لعلاجه في الخارج، حياتُها لم تكنْ أسعدَ من حياتي، لكنّها حاولتْ دوما أن تجعلَ من يراها يستلهمُ منها الأمل والقوّة للوقوف مجدّدا، ليسَ كلامي مبالغة

حينَ أخبركَ أنّها ألهَمتني لرسمِ أوّل جداريّة في حياتي على جدار غرفتي، رسمْتُ نافذةً كنايةً عن الأمل وعلى حافّتها نبتةٌ خضراء... حياةٌ جديدة، بالقرب منها يوجدُ فنجان قهوة ولوح شكلاطة عليه وجهٌ مبتسمٌ يُخرجُ لسانَه متلذّذا بالطّعم، لطالما أحبّت القهوة بالشّكلاطة.

كانت سعيدة جدّا بها حينَ رأتْها، تمنّيتُ أن يكونَ حافزا لها، أن يعنيَ لها ذلك شيئا ويمنحها مزيدا من الأمل وينعِشَ روحَها في هذه الأيّام الحرجة من حياتِها.

لا رجوعَ إلى الخلفِ الآنَ، ستأتي ميلين والمجموعة لزيارة البيت وليحدثْ ما يحدثْ، اقترحَتْ ميلين الأمرَ عليهمْ ورحّبوا بالفكرة، وضعتُ رهاني وسنرى النتيجة يومَ غد.

بعدها ذهبتُ مع صديقي لزيارة أحد أساتذة الجامعة المستجدّين، أخبرني صديقي أنّه سيساعِدنا لإيجاد البرمجيّات التي نحتاجها والغريبُ في الأمرِ أنّ هذا الأستاذ يسكنُ بالقربِ من حيّنا رغمَ أنّي لم أرَهُ من قبل، على كلّ حال كانَ أمرا جيّدا بالنّسبة لي وسيكونُ من السّهل عليّ التّواصل معه كلّما احتجتُ ذلك.

أمضيتُ تلكَ اللّيلة متحمّسا للغد متوجّسا من خباياه ومفاجآته، لم يغمضْ لي جفن، وضعتُ رأسي على الوسادة ثمّ نزعتُها ثم قلبتُها، يبدو للرّائي أنّ الخللَ فيها لكنّ الخللَ في رأسي، استطعتُ تصوّرَ كلّ ما سيحدُث، وضعتُ كلّ الاحتمالات الممكنة، القدَرُ بارعٌ في مخالفة توقّعاتنا، لذلك توقّعتُ الأسوءَ لأشعرَ بلذّة النّصر، فإن وافَقَني فزتُ عليه وإن خالفني حصلتُ على مرادي. أقبلَ الصّباحُ بطيّا كأنّ خيوطَهُ غيرُ متعجّلة في القدوم، ضحكتُ ساخرا وهمستُ لنفسي: أمتأكّد أن الضوء أسرعُ شيء في الوجودِ يا أينشتاين؟

طولَ حياتي طرحتُ الأسئلة الّتي ليسَ لها جواب، ربّما لأنّ الإجابات تخيّبني عادة أو لأنّ كلّ الإجابات ستكونُ حينَها مقبولة، لا ضيرَ في أنْ نسأل أناسا لا يجيبون بل ويمكننا أن نجيبَ نيابة عنهمْ ما دمنا لا نفعَلُ ذلكَ بصوتٍ مرتفِعْ، فالسّرّ والعلنُ وحدَهما ما يميّزنا عن المجنونِ الّذي يناقِشُ نفسَه طوال الوقت.

ارتديتُ ملابِسي وشربتُ قهوة بالحليب الدّافئ كالمعتاد ثمّ خرجتُ للقائهم وإحضارهم. خلال طريق عودَتِنا كنتُ حريصا على تذكّرهم الطريقَ

إلى المنزل، لا يوجدُ سببٌ محددٌّ لِفعليَ ذلك، هم لن يزوروني مجدّدا لأنّه لا يوجدُ سببٌ يدفَعُهم لذلك، ربّما كانتْ لديّ أوهامي فيما يتعلّق بهذا الأمر.

سلكتُ بهمْ طريقا بمحاذاة الطبيعة الخالية من المساكِنْ، لا أدري إن استمتعوا بها لكنّي فعلتُ جدّا. يحبّ الإنسانَ مشاركة أشيائه وقد يجد في ذلك متعة أكبر من الّتي يجدها في حصولِه على هذه الأشياء بالذّات وإلّا لماذا تكون البيتزا أقلّ لذّة حينَما نتناوَلُها وحيدين رغمَ كلّ أسبابِ اللذّة المتوفّرة؟

كنتُ أستدير خلفي بانتظام وأتفحّصُ أعينُهم، إنّه النّوع من الأصدقاء الّذي وددتُ دوما أن أحظى به، النّوع الّذي أتمكّن معه من الاستمتاع سويّا.

وصلنا إلى البيتِ، دخلتُ أوّلا وأخبرتُ أمّي بوصولهمْ، هيّأتُ لهم الطّريقَ للدّخول إلى الصالون مرورا بالفناء، كانت الجدرانُ مكشوفة تحتاج إلى تغطية بالإسمنت والطّلاء، توجَدُ حنفيّة وحيدة في الفناء وقربَها صهريجٌ حديديّ يُستعمَلُ للغسيل، نِصْفُ الفناء مبلّط والبقيّة مجرّد مشروع لم يكتمل، دخلنا بعدها إلى الرّواق المؤدّي إلى غرفة الجلوس، كانَ أحسنَ بقليل، فالجدرانُ مغطّاة بالإسمنت ومبيّضة بالجير حتّى لا يبدوَ الجوّ كئيبا مع وجودِ بعض اللّوحات الهاوية الّتي ترسُمها أختي الصغرى معلّقة هنا وهناك، طوال مسارنا

القصير إلى الصّالون، نظرتُ إلى الأمام فحسب، كنتُ أخشى أن أنظرَ إليهم وأنْ أرى في عيونهم ما يخيّبني أو يزعجني، تركتهم في الصّالون وأعلمتُ أمّي بحضورهم، أعطيتُهمْ فرصة لتعديلِ ملامِح الدّهشة الّتي قد تكون تملّكتهُمْ، لا بدّ أنّهم متفاجئون، أخذتُ كلّ احتياطاتي.

بعدها عدتُ وكانوا يضحكون ويمرحون كالمعتاد، لم يبدُ أيّ شيء على وجوههم، كانَ ذلك مثاليّا بالنّسبة لي. دخلتْ أمّي حاملة صينيّة الشّاي والحلوى، سلّموا عليها وسألتْ عن أحوالِهم، دردشنا قليلا ثمّ انصرفنا وعُدنا إلى الجامعة أينَ قضينا بقيّة اليوم. لم نتكلّم عن الزّيارة على الإطلاق، كأنّها كانتْ مجرّد حدثٍ جيّد وهذا ما كنتُ أتمنّاه، فتّشتُ في عيونهم وفي عيونِ ميلين عن أيّ بريقٍ غريب وعن أيّ شعورٍ مبهم أو تغيّر طفيف، لكنّي لم أجد شيئا، بإمكاني اليومَ النّوم ملئ الجفون، تخلّصتُ من مخاوفي أخيرا!

في اليومِ الموالي أحضرتْ ميلين مصحفا وطلبتْ منّي أن أعطيه هديّة لوالدتي.

-لو أحضرتِ لوحَ شكلاطة لكانَ أفضل.

مازحتُها... ضربتني على كتفي مبتسمة بغنج. قمتُ بشُكرِها لأنّ ذلكَ كانَ لطيفا أقصد الهديّة والضربة معا. كعادتنا مررْنا بمتجرِ الجامعة، سأشتري لها مشروبَها الغازيّ المفضّل...

-لا داعي لذلك حبيبي.

-لماذا؟

-أعاني من انتفاخ وبعض الألم في معدتي.

-لا بأس عليك، هل أرافقك إلى الإقامة ريثما تتحسّنين؟

- سأكونُ بخير، سأبقى جانبِك.

لوهلة تساءلتُ لمَ تُخبرني أنّها ستبقى بجانبي؟ هل كانَ ذلكَ ضروريّا؟ لوهلة قصيرة فقط ثمّ تجاهلتُ ذلكَ.

-حسنا...

مضتْ بضعةُ أيّام، كنّا جميعا نحرزُ تقدّما في إنجازِ مذكّرات تخرجّنا، كانَ عليّ يومَها الذّهاب إلى الأستاذ المستجدّ لعلّه جهّز البرمجيّات الّتي أحتاجُها في مشروعي، أمضيتُ الوقتَ في الجامعة مع الأصدقاء ريثما يحلّ الموعِدُ مساءً، كنتُ منزَعِجا جدّا، لاحظتُ أنّ ميلين تتجنّبُ أن أشتري لها أيّ شيء، ليسَ

الأمر مجرّد مصادفة، تفعَلُ هذا منذ ذاك اليوم... يوم الزّيارة، أستطيعُ تمييزَ نظرة الشّفقة من بين ألفِ نظرة، أصدقائي يلحّون عليّ بالسّؤال:

-إن احتجتَ أيّ شيء ستجدني هنا...

ذاك اليوم قرّرتُ الإجابة، كنتُ على الأعصاب، أخفيتُ الأمر طويلا.

-ماذا أحتاجُ مثلا؟

-لا أدري... أيّ شيء...

-هل أبدو لك مثيرا للشّفقة؟

-لا... لم أقصد هذا...

-ماذا تريد إعطائي نقودا؟ ملابسا؟

تكلّمَتْ أُخرى:

- أحمد ليس...

-لا...لا... أنا أفهم جيّدا ما تفعلونه...

تعلّقت ميلين بذراعي لتهدّئني، ابتعدتُ عنها ونظرتُ إليها بغضب وحزن معا

-هذه النّظرة في عينيكِ... رأيتُها سابقا!

لعلّ الشفقة لم تكنْ تزعجني حقّا، لكنّ ارتباطها بحادثة مؤلمة لي في الماضي، جعلها أمرا جللا بالنّسبة لي، مصطلح الشّفقة مرادف للهجر والتخلّي، لا بدّ أنّها في لاوعيِي صارتْ تمهيدا للفراق والحزن من جديد. انصرفتُ صامّا آذاني عنهم وابتعدتُ فحسب، كانتْ عينايَ ممتلئتين بالعبَرات الغاضبة، كثيرا ما يشعرُ الآخرون بظلمِنا لهمْ على الرّغم من أنّنا لم نخطئ في شيء، هؤلاء لهم عُقَدُهم الّتي فعلَ الزّمنُ بها ما فعل، هم يعيشون على حرف، مستعدّون للانهيار، كلّ ما يحتاجُه الأمرُ كلمة سرّ! كلمة سرّ تغيّر مزاجَهم إلى الاتجاه المعاكس.

عدتُ إلى غرفتي واستلقيتُ في أريح وضعيّاتي لأغري النّومَ للقدوم للفراش، كان متمنّعا ومكتفيا منّي، لعلّه وجدَ ضالّته عندَ آخرين أكثرَ إغراءً.

حدّقتُ في السّقف، لوّنتُه وزخرفتُه بِعِدّة طبوع، كلّ ما كنتُ أحتاجُ إليه هو المال لجعل تصوّراتي واقعا جميلا، "المال... المال... المال... أفف"، استسلمتُ مُطلِقا تنهيدة طويلة ثمّ نهضتُ استعدادا للذّهاب إلى الأستاذ، خرجتُ من الباب وصادفتُ جاري، ألقيتُ عليه التحيّة وصادف أن كانَ اتّجاهه يوافق اتّجاهي، لذلك مشينا معا ومع اقترابي من بيت الأستاذ اكتشفنا

أنّنا ذاهبان لملاقاة نفس الشّخص. طرقْنا الباب في انتظار أن يفتَحَ أحدُهم.

سألني جاري:

-منذ متى تعرفه؟

-منذُ مدّة وجيزة فقط وأنت؟

-منذ زمن طويل، إنّه ابن المعلّمة فلانة، تتذكّرها؟

كنتُ مصدوما لذلك، أليست المعلّمة الّتي أذلّتني وأذلّت أخي؟ أليستْ هذه نفسها الّتي حاولتْ تحطيمَنا؟ صادفَ ذلكَ فتحَهُ الباب، لكمتُه بقوّة على وجهه لا أدري كيفَ، غضبي وتوتّري وحزني وضغوطات الأيّام كلها تجمّعت في قبضتي، لم أستفق إلّا بعدَ رؤيته على الأرض، حينَها فقط أدركتُ ما حدث، لم يفهمْ جاري ما يحدثْ، وقعَ عليه يتحسّسُ نبضَه، كنتُ أتساءل: هل هي النّهاية؟ هل مات؟ كلّ شيء حدَث بسببها... تلكَ المعلّمة الوحش!

حينَ تعذّب جنديّا محبوسا فقد يَسعى لتدميركَ حين يحصل على سلاحِه مجدّدا. الحمدلله لقد أفاقَ، كانَ في البيتِ وحيدا، هل أمّه حيّة أم رحلت؟ لمَ أفكّر في هذا الآن؟ لا أدري... أشعرُ بالضّياع، كمّية الأندرينالين في دمي تكفي لريّ هذه الأشجار، رحتُ أجري، لمْ أهرب لكن احتجتُ لتفريغ هذه الطّاقة

الّتي ستفجّر قلبي، أخذتُ اتّجاهًا ورحتُ أجري فحسب، جريتُ لدقائق طويلة، تجاوزتُ المناطق المأهولة وتواريتُ خلف الهضبة، توقّفتُ أخيرا عن الرّكض، عند وصولي إلى الوادي لم أكن وحيدا! كان هنالكَ شابّان ثملان يدخّنان سيجارة وعلبُ النّبيذ متناثرة بقربِهما.

-هاي أنت أيها الحقير!

هل يقصدني؟ ماذا يريد منّي؟

-ألم تسمعْ؟ تعالَ إلى هنا!

تكلّم الثّاني أيضا:

-ألم تسمع أيها *** تعال إلى هنا!

انهالا عليّ بالشّتائم القذرة، لم يكونا في كاملِ وعييْهما، لكنّ ذلك لم يكنْ ليشكّل فرقا بالنّسبة لي في حالتي تلك! اقتربتُ منهُما وانهلتُ عليهما بالرّكلات، لم تكن حالَتُهما تسمَحُ بردّها، أخذتُ منهما السّيجارة وابتعدتُ إلى الطرف الآخر من الوادي تاركا إيّاهما غارقين في إصاباتِهما وشتائمهما.

أشعرَني ضربُهما بكثير من الرّاحة، من الغريبِ كيفَ يتحوّل المرء من شخص مثقّف وملتزم إلى منحرفٍ وسارق وربّما قاتل في غضون ساعة

واحدة! لا بدّ أنّ الشرطة تبحثُ عنّي الآن، قُضيَ عليّ! اتّصلتُ بأمي أخبرتُها أنّي سأسافر لبضعة أيّام لأحضر السّلعة الّتي أتاجر بها، لم تشكّ فهي تدري أنّ أعمالي التّجارية تتطلّب التنقّل، لا أريدُ أن تعتقلني الشّرطة أمام الجميع، سأسلّم نفسي فورَ علمي بتقديمِهم الشّكوى.

نظرَ أحمدُ إليّ قائلا:

-هنالك عند طرف الوادي كانتْ سيجارتي الأولى، قصّة السّجائر الّتي لم تنتهِ إلى الآن يا صديقي.

قالها وهو يشعِلُ آخرَ سيجارة في العلبة ثمّ نظرَ إليّ من جديدٍ وقال:

- أتعلم؟ هذه ليست آخر سيجارة في العلبة فحسب، بل يفترض بهذه العلبة أن تكونَ الأخيرة.

-قرّرتَ التخلّي عن التّدخين إذن؟

-الطفل الّذي تنتظرهُ ميلين من قرّر هذا!

-أسعدني الخبر وقمتُ بتهنئته، بعدها ضحكتُ قائلا:

-تنتظره ميلين؟ وتقول عنّي لا أجيد الحديث عن الفتيات!

قلتُ هذا لأنّي أدركُ دِقّته في اختيار مصطلحاتِه، نظرَ إليّ مبتسما ساخرا بلامبالاة ثمّ نظرَ إلى الزهرة المغمورة في كأس المياه وقال:

-لمَ قطفتَ هذه الزّهرة رغمَ علمكَ أنّ ذلك سيقتلُها؟

-ستموتُ في أيّ حال، كما أنّ ذلكَ كان بطلب منك.

-لكنّي لم أجبرك، أليس كذلك؟

-لا... فيما أعتقد.

-افعل ما تراهُ مناسِبا لك، لم تعدْ لديّ كثير من النّصائح أسديها إليك.

كانَ يتصرّف بغرابة، هذه هي طبيعتُه، حينَ يتكلّم أحمد عليك الإنصاتُ جيدا لما يقوله، الحديثُ معه ليسَ مناسبا لكارهي الألغاز... واصلَ حديثَه:

-رغمَ أنّي من طلبَ قطفَها هي تظنّ أنّي من يحاولُ إنقاذها بغمرِها في كأس الماء. أليسَ كذلك؟

-في الوقع لا أحسبُها تظنّ شيئا.

-يعجبني تفكيرك! أخبرني... لو كانَ بإمكانِها أن تختار، هل كانتْ ستبقى متوارية خلف أعشاب الحديقة وتعمّر طويلا، أمْ تراها ستفضّل أن تختصرَ عُمرَها هنا لإسعاد أحدِهم بجمالِها وعبيرِها؟

-يعتَمِدُ الامرُ على ما تراه الزهرة.

-تماما! ماذا لو كنتَ أنتَ الزهرة، ما الّذي ستختاره؟

-سأفضّل الإثنين معا... أنْ أكونَ مغروسا في التّربة لكن على مرأى من الجميع.

نظرَ أحمدُ إليّ كأنّه يسترجع شيئا ما، بدا مأخوذ الوعي إلى بُعدٍ آخر.

-أنتَ جميلٌ يا صديقي، أنتَ حرٌّ بالفطرة!

-ما سبب قولكَ هذا؟

-حصرتُكَ في خيارين وحلّقتَ باحثا عن خيارٍ على مقاسِك!

كانَ مؤمنا جدّا بما يقولُه لدرجة جعلني أومنُ به أيضا، يمكنُ حتّى للكاذبِ أن يمرّر كذبتَهُ إن تحلّى بهذا القدرِ من الإيمان. واصلَ قائلا:

-أظنّ أنّ الزهرة بعد تأديتِها دورَها سترحلُ بسرور، السّافلة! كم هي محظوظة.

-وأنتَ محظوظٌ يا صديقي، لديك زوجة تحبّك وطفلٌ تنتظرانه في شوق.

-كلا يا صديقي لسنا ننتظرُه.

أخذ "جبدة" طويلة توهّج على إثرها طرفُ السيجارة، رمى سيجارتَهُ الأخيرة وداسَها بقدمهِ العارية، ليسَ غريبا أنّ هذه الأمورُ التّافهة لم تعُدْ تؤذيه، إنّها مجرّد نار في النّهاية! نفخَ في الهواء الدّخان الذي في صدره وقال:

- أنا مصابٌ بالدّاء الخبيثِ وقد لا أعمّر طويلا.

تغيّرتْ ملامحي لكنّي عاودتُ تشكيلَها قبلَ أن يتطلّع في وجهي من جديد، قلتُ بنبرة مليئة بالحسرة والمواساة:

-شفاكَ الله.

امتنعتُ عن طرحِ مزيد من الأسئلة بخصوص هذا الأخير. اتّكأ أحمد من جديد ثم واصل سردِ الأحداث:

دخّنتُ سيجارتي الأولى على طرف الوادي، بعدها دخّنتُ بدونِ انقطاع لثلاثة أيّام متتالية، أغلقتُ هاتفي وضِعتُ في كلّ مكان، كنتُ أنتقِمُ من نفسي، من حياتي من أصدقائي، من ميلين، من معلّمتي، من المجتمع ومن الجميع، أنا الآنَ على حقيقتي في المكانِ الّذي أنتمي إليه، لا تهمّني نظراتُ هؤلاء، هم يحتقرونني وأنا كذلك، أظنّنا متعادلين، تبّا لهم! كنتُ مرتاحا كمنْ يرتدي ثوبا فضفاضا بعدَ يومٍ من ارتداء الملابسِ الضيّقة والكعبِ العالي. الفقر والتّعاسة،

ربّما هذا هو النّوع من الأثواب الّذي يليق بي. نهايةَ اليومِ الثّالث فتحتُ هاتفي من جديد، كمٌّ كبير من الرّسائل وردَني وها هو ذا أخي يتّصل قبلَ حتّى أنْ أفتحَ إحداها.

-ألو...

-أينَ أنتَ؟ الكلّ يبحثُ عنك!

بالتّأكيد سيبحثون عنّي، فقد اعتديتُ على شخص ولا أدري ماذا حدثَ له بعدَها، لا بأس سأسلّم نفسي بعد قليل.

-أنا في البلاد سآتي لاحقا.

-فلان ابن المعلّمة أخبرني بما حصل وجاء يبحثُ عنك، أصدقاؤك وزميلكُ في مشروع التخرّج... الكلّ يسألون عنك، أينَ أنت؟

نعم! بالتّأكيد يعرف أخي ابن المعلّمة... ما دامَ جاري هو الآخر يعرفهُ، فقد درسا معا!

-ابن المعلّمة... ماذا قال؟

-يريدُ التحدّث إليك.

-أ لم يبلّغ الشّرطة عنّي؟

-ولا حتّى أمّي، يريد التحدّث إليكَ فحسب.

لا بدّ أنّه يريد المال مقابلَ عدم التّبليغ، الحقير لنْ يحصُلَ على شيء منّي أنا مفلسْ تماما، فليفعل ما يشاء، لم أعد آبهُ لحياتي. عدتُ إلى المنزل ودخلتُ دونَ إحداث جلبة، غيّرتُ ملابسي، لم يخلُ اليومُ من العتاب والمحاضرات. بعدها ذهبتُ إلى بيتِ الأستاذ وأنا لا أدري بأيّ وجهٍ أقابِلُه، لو كنتُ أعرفُ نواياه لربّما سهُل عليّ الاختيار. طرقتُ البابَ، بعدَ ثوانٍ فتَح وحينَ وجدَ أنّه أنا من يطرق الباب قال:

-هل يمكنني إرخاء دفاعي؟

أجبتُه ساخرا:

-هاها مضحكٌ جدا... دونَ مقدّمات، كم تريدُ بالمقابل؟

-مقابل ماذا؟

-دعنا من الألاعيب، كم تريدُ مقابلَ عدم التّبليغ عنّي؟ هيّا فلنفرغ من الأمر بسرعة!

كنتُ أتكلّم بثقة كبيرة متجاهلا حقيقة أنّي مفلسٌ تماما وسأقضي شهورا لجمع أيّ مبلغ قد يطلبه.

-هلّا دخلتَ لنناقشَ الأمر؟

دخلتُ أخطو بكبرياءٍ شديد، لا أريدُ أن يرى منّي أيّ ضعف، هذا سيفسدُ عليه فرحته بانتصارِه وتفوّقه الجليّين لكلينا.

-أردتُ الحديث معك، لأعرف سبب ما فعلتَه، أنا لن أرفعَ قضيّة ضدّك ولا أريد منكَ شيئا، لكن بالمقابل أريد أن أعرف سببَ ما فعلتَه، سألتُ الجميع عنك ولست شخصا عنيفا ولا سيّئا، كما أنّ أخاك صديق قديم لي...

بدا لي صادقا لذلك قرّرت الحديث، ربّما هو حقّا لا يريد شيئا منّي، رويتُ له قصّتنا مع والدتِه وما فعَلتْ بنا حينَ كنّا أطفالا ومدى الضّغط الّذي كانَ عليَّ يومَ قمتُ بلكمِه. فاجأني كثيرا ببكائه، بل وفاجأني بطلب الصّفح منّي نيابة عن والدَتِه الرّاحلة، كانَ موقفا غريبا بالنّسبة لي، لم أعهد الحديثَ إلى هذا النّوع من البـشر، كانَ يتحلّى بالحلمِ والطّيبة، تعجّلتُ كثيرا، عاقبتُ الشّخصَ الخطأ، كانَ المسدّسُ موجّها صوبَ رأسي، لكنّه أبى أن يضغط الزّناد، كانتْ حياتي رهينة بينَ يديه وقرّر أن يمنحني فرصة لأعود إليها وتعودَ إليّ. من يومِها لم أنسَه، صرتُ أعتبرُه من الأشخاص الّذين لهم فضلٌ كبيرٌ عليّ حتّى غدوت من أنا، بثّ داخلي الأملَ مجدّدا، كنتُ مدينا له لكنّي لم أسامحْ أمّهُ يوما.

في هاتفي عشراتُ الرّسائل من ميلين والاتصالات الّتي وردتني أثناء غلقي الهاتف، لحسن الحظّ أنّ زميلي في مشروع التخرّجّ لم يقف مكتوفَ اليدين، لقد أنهى تقريبا معظم العمل، بقيَتْ اللّمسات الأخيرة فحسب، لا بدّ من أنّه في قمّة الغضب، لا بأس سأعوِّض عن هذا بتقديمٍ أسطوريّ يوم العرض. تلكَ اللّيلة صعدتُ إلى سطح المنزل، أنا والصّمت وظلام اللّيل وأنفاسي المسترسلة الباحثة عن الطّمأنينة، تتباطأ وتيرتُها محاولَة أن تهدأ، لم أعدْ أعرفُ من أنا، أفسدتُ كثيرا من الأشياء الّتي عملتُ عليها بجهد خلال وقتٍ قصير، كانتْ لديّ فرصة للاحتفاظ بميلين وإقناعِها بأنّي جميلٌ رغمَ الفقر، لكن الآن... أعطيتُها فرصة لتنسحِب وجعلتُ الأمرَ أسهلَ حتّى!

عاملتُ رفاقي بلؤم رغمَ أنّهم كانوا يحاولون مساعدتي والترفّق بي. إنّها أشبَهُ بجلسة اعتراف، أنا المجرمُ والقسّ والقاضي، أوّل خطوة لحلّ المشكلة هي الاعتراف بوجودها والشّعور بها وإلا كيفَ يتقبّل الواحد منّا تناول الأدوية إن لمْ يدركْ وجودَ المرضِ المستوجبِ لها؟

حينَ أكونُ في هذا المكانِ المقدّس بالنّسبة لي، يختفي ذاك الحجاب الرّفيع بيني وبينَ المجنون، لأنّي أتحدّث غالبا بصوتٍ مسموع، لمَ يتأوّه الجريحُ المتألّم إن

كانَ إخراجُ الأصواتِ من جوفِهِ لا يشكّلُ فرقا؟ أحيانا لا نسمَعُ الأصواتَ الّتي داخلَنا إلّا بعدَ أن تلامسَ آذاننا من الخارج، إنّ الحديثَ إلى النّفس لهو أمرٌ مريح!

بعد حوالي ساعتينِ من محاورة الصّمت أقنَعَني حديثُه، تحضُرني هنا بضع كلماتٍ من كتابِك "كيد الرّجال" والتي قلتَ فيها:" الفراغ والصمتُ وحدهما يختصران كلّ الكلمات الراقية والمنحطّة والرّغبات النقية والماجنة والشرّ والطيبة التي تسكنني ولمْ أبح بها... لأني غبي لا يجيد الكلام أو ذكيّ يجيد الصّمت".

نمتُ ليلَتها خاليَ البال، اختفتْ تلكَ الأصوات الّتي كانتْ تصرخُ داخلي وفتحتُ عينيّ صباحا بعدَ أن أيقظني العصفورُ المتسلّل عبر النافذة إلى غرفتي، حطّ على الإطار المثبّت في الجدار وراحَ يغرّدُ بين الفينة والأخرى كأنّه في مهمّة لإيقاظي بهدوء، استبشرتُ به ورُحتُ أقلّد صوتَه كأنّي أحاوِره، الجميل في الأمر أنّه كانَ يردّ، شعرتُ أنّنا نديرُ حوارا شيّقا، أحدُنا على الأقلّ لم يفهم منهُ شيئا.

قمتُ من فراشي فورَ مغادَرتِه، أنهيتُ الرّوتينَ الصّباحيّ وكنتُ داخلَ أسوار الجامعة خلال الأربعينَ دقيقة التّالية. لم أتجرّأ على الاتصال بأحد حتّى أني أبقيتُ الجوّال مغلقا أغلبَ الأوقاتِ منذ عودتي إلى المنزل، لا أجيدُ طلبَ الصّفح والاعتذار، الإحراج عند لقائي المجموعة سيكونُ أمرا لا مفرّ من مجابهته.

وصلتُ باكرا وجلستُ وحيدا على أحد المقاعِد، فجأة غيّرتُ رأيي وذهبتُ إلى باب الإقامة، قرّرتُ مواجهة ميلين على انفراد، لستُ قويّا كفاية للنّظر في عيونهم جميعا بينما تلومُني.

لم يطلْ الأمر كثيرا وها هي الحسناءُ الّتي أسرتني تخرجُ مطرقةً رأسها كالعادة منتبِهة إلى درجات السّلم الصغير، بعدَ خطوتينِ رفعتْ ناظريْها وسطعتْ فيهما الشّمس الصّباحية فتلألأتا مثل بحيرة من العسلِ الصافي، كنتُ متورّطا بها مثل أيّ وقتٍ مضى، كانتْ رفقة صديقتنا كنزة والّتي لمحتني أوّلا وهمستْ لميلين بشيء ما، نظَرتْ من حولها باحثة ثمّ... ثمّ رأتني.

سارتْ بخطواتٍ أسرعَ، قبلَ أن تتحوّل إلى هرولة نحوي وعلى الفور ارتمتْ بينَ أحضاني:

-آسفة لم أقصد... اشتقتُ إليك...

"التفاجئ" هذا المصطلح لا يصفُ شعوري حينَها ولا حتّى "الذّهول" بإمكانه ذلك، أينَ أضعُ خطابي الّذي أعددتُه كي أعتذرَ منها؟ أينَ ستذهبُ الكلماتُ الّتي لن أقولَها؟ هي تعتذرُ منّي فعلا! حضنتُها بقوّة، اشتقتُ جدّا لها، كيفَ كانتْ حياتي قبلَ قليلٍ دونَها؟ الموقفُ هذا أشبهُ بالجزءِ الثّاني من المشهد السّابق في المكان نفسه، حينَ قرّرَتِ الرّحيل ذاك اليوم ومنعتُها بكلّ قوّتي. لبثتْ بينَ ذراعيَ ما شاء لها الشّوق، أبقتْ رأسهَا مغمورا بينَ ثنايا ثيابي ريثما تجفّ الدموع، لطالما شبّهت الدموعَ بقطراتِ شمعةٍ تهوي حينَ تشتعِلُ بفتيلِها نيرانُ الشوق أو الحزن.

-أ لم أقل لكِ لا تبكي؟ أ رأيتِ أفسدتِ كحل عينيك!

كانتْ تبكي تارة وتضحك أخرى وتدريجيّا امتزجا وشكّلا ابتسامة غيرَ مستقرّة.

-أينَ كنتْ؟ قلقتُ عليكَ جدّا، لمَ لمْ تردّ على اتّصالاتي؟

حاصرتني بالأسئلة، كنتُ أشبَه بطفلٍ ضاعَ من أمِّه ثمّ وجدتهُ مجدّدا وفور عثورِها عليه توقّفت عن البكاء لتضربَه معاقبةً إيّاه على فعلتِه. أجبتُ بكلمة واحدة مختصرا كلّ ما مررتُ به.

-آسف!

عانقتني مرّة أخيرة، يبدو أنّها قبلتْ اعتذاري. وضَعتُ قبلةً على جبينِها وسِرنا معا إلى لقاء الرّفاق كما نفعَلُ دائما، آملا أنّ لا شيء تغيّر من طرفِهم.

كانتْ أيّاما رائعةً ولا تزال ذكراها كذلك، عدتُ إلى الواقِع بعدَ أن خطفتني الذّكرياتُ إليها، ميلين الغاضبة منّي لأنّي لمْ أرتدِ ثيابا ثخينة، حضّرت لي مشروبا دافئا من الأعشاب وطلبت منّي شربَه حتّى لا أمرض، بعدَها نِمنا مستبشرين بغد جميلٍ.

كثيرا ما كانَ تفكيري في قصّة أقمَد والشّوقُ لسماع بقيّة القصّة يبقيني يقظا لوقتٍ طويلٍ قبلَ أن يأخذني النّعاس، لكنْ ليسَ اليوم، فجُلّ ما أريدُه الآن هو الإغفاء بعمق كما كنتُ أفعل أيّام الطّفولة.

جاء الصّباحُ حاملا باقة من البشائر، النّسيم هُنا يرطّب الأنفاسَ والرّوح، رائحة الأشجار والورود تعودُ بي إلى ذكريات لم أعِشها، لكنّها

وجدَت طريقَها إلى داخلي بطريقَةٍ ما، حينَما نحلُمُ بشيء ما بشدّة وتواصل، فإنّنا نعيشُهُ كلّ يومٍ في خيالنا وتطلّعاتنا، فيندسُّ في ذكرياتنا وحينَ نسترجِعُهُ يبدو حقيقيّا كأيّ واحدة منها، هذا يشبِهُ قطعة اللّفتِ الّتي خادعتْ خالتي ماتيّا خلالَ العشاء واشتبهتْ بقطعة البطاطا.

في اللّيل... أخذَ عمّي يغموراسن مقعَدهُ من المجلسِ وقال مداعبا:

-من يشعرُ بالنّعاس؟

طبعا لم يعتَرِف أحدٌ بذلك... قال ضاحكا يكاد يقهقه:

-يا لكم من خوّافين!

ثم واصلَ يتحدّثُ بعدما أضاف بعض الحطب إلى الشّعلة لتصبِحَ أكبر من المعتاد:

-سنسهرُ أطولَ من المعتاد اليوم، يمكنُكم الانسحاب قبل فوات الأوان.

امتلأ المجلسُ بالضّحكات، الجميعُ يشعُرُ بالحماس، لا يهمّ إن سهرنا إلى طلوع الشّمس. بدأ عمّي يغموراسن يحكي مواصلا سردَ فصول الحكاية.

الفصل السّابع

بينَما كانَ يحملُ البعوضة توشوشت القطَّ سمّان صاحبَ المزمار السّحري مخترقا بِه الغابة المظلمة وأرضَ الجنّ، كانتْ السّاحرة العظمى تراقبُ كلّ ما يحدث من خلال الفواصلِ الزّمكانية، تقولُ الأساطير أنّ قدرَتَها تكمُنُ في سرّ اكتَشَفتْهُ لا يعلَمُهُ غيرُها، حيثُ أنّها تستطيع الانتقال بسرعة فوتون الضّوء وبمقدورِها تجزئة أيّ شيء إلى جزيئات صغيرة تعادل أصغرَ طول ممكن "طولَ بلانك"!

بهذا أصبحتْ رؤيتُها لكلّ شيء مختلفة تماما، فالزّمن الّذي يحكم الآخرين، ليسَ بالنّسبة لها سوى قطع متراصة تنتقل بينها كيفَ تشاء، لذلكَ كانَ من المفاجئ إشاعةُ اختطافِها، يظنّ البعضُ أنّها حقّا اختُطفَتْ بينما يرى آخرونَ أنّها تعمّدت نشرَ الخبرِ لهدفٍ لا يعلَمُه غيرُها، في حينِ يكذّب الأغلبيّة بوجُودها. السّاحرة العظمى "أريناس" لها نقطة ضُعفٍ واحدة وفي جهلٍ منها بذلك، كانَ هنالكَ من يعرفُها.

لم تكنْ راضية على تقدّم توشوشت السّريع، لقدْ بلَغ سرعة لم يبلُغها أحد من سكّان قبيلتهِ من قبل، سريعٌ كالصّوت ورشيق كالسّهم في اختراق أجزاء الهواء لذلك قامتْ بحركةٍ من جفنِها بتمديد الزّمن دونَما شعورٍ منهما، السّاحرة

أريناس غامضة، ما سرّ اهتمامِها المفاجئ بتوشوشت وسمّان؟ وما الّذي تضمِرُه لهما؟ وما علاقة ذلك بالنّبوءة؟ هي الوحيدة الّتي تعرفُ الإجابة!

....

وقفَ العفريتُ أبانوخ والأفعى-أو بالأحرى التّنّين-أڤمَد على سفحِ الجـبل، صرخَ فيه العفريت: أثبت ذلك!

أڤمَد نفسُهُ لا يعرفُ كيفَ يثبتُ أنّ الجبلَ يخيفُه، كما أنّ العفريتَ لا يبدو متأثّرا ولا خائفا، شعرَ أڤمَد أنّها النّهاية، تمكّن من هزيمة العجوز السوداء "بومبيه" وهزمَ الجنّ ومَرّ عبرَ أرضِهمْ بسلام، كما استطاعَ إقناعَ النّاسك الصّادق بتركِه يمرّ لكنْ هذا مختلفٌ تماما! إنّه عفريتٌ طولُه خمسونَ قدما! والرّيح تأتمرُ بأمرِه، لو شاءَ فعلا لحوّلَه إلى غبار أو أمرَها أن ترميَهُ في أرض لا عودةَ منها. حينَها فعّل أڤمَد الرّهانَ الوحيدَ المتوفّر لديه، رفعَ رأسَه وصاح في العفريتِ بكلّ ثقة:

-اعصف بأقوى رياحك على الجبل!

- احبس أنفاسكَ لدقيقة وإيّاكَ أن تشهق!

حمَلَ أبانوخ أقمَد ووضعَهُ تحتَ جفنٍ من جفنيه، ثمّ سحبَ برئتيهِ الجبّارتين الهواء سحبة خنقتْ الطيور والأشجار وكلّ شيء حيّ من حولِه، ثم زفرَ من جديدٍ زفرة اقتلَعتْ كلّ شيء أمامه، عمّ الغبارُ الأجواء ولم يعدْ باستطاعته رؤية أيّ شيء، شكّلت الرّمال المتطايرة سحابة أمطرت يومين متتالين، بينَما بقيَ أقمَد مختبئا داخل جفنِه منتعِشا بالنّيران السّوداءِ الحارقة الملتهبة داخله، استنشقَ دخانَها بما يكفي وحينَ نفثَ النّار بعدها، تحوّلتْ النيرانُ الّتي ينفُثها إلى اللّون الأسـوَد، أصبحَ الآن أقوى من ذي قبل والفضلُ يعودُ إلى العجوز "بومبيه"، لو استطاعَ أنْ يمتلكَ أجنحة لأصبحَ الأقوى من بينِ كلّ التّنانين، لكنّ القوّة لا تهمّه الآن وليستْ مُرادَه، يكفي أن يجدَ جوابا ويبرَّ الوعدَ الّذي قطعَهُ للنّاسك الصّادق كي يعودَ إلى قريتِه.

انقضى يومان، العاصفة كانتْ هائلة بحيثُ لم تُبقِ شيئا أمامها، لم تُبقِ شيئا غير الجبل! وفي اليومَ الثّالث بدا أبانوخ اقوى العفاريت السّبعة وسيدُها على الإطلاق -كما يدّعي-مذهولا، لم يحدثْ هذا من قبل... بلْ حدثَ مرّة واحدة منذ زمنٍ بعيدٍ جدّا لكنْ من يتذكّر ذلك؟

شعرَ أبانوخ بالقلق المشوبِ بالتحدّي، حينَها قرّر أن يقدّم أقوى ما لديه "نفخة الهلاك"! لم يشهدها أحدٌ من قبل لأنّ كلّ من شاهدوها لم يوفّقوا لبلوغ نهايتِها أحياء، من المحال أنْ يخسَرَ أبانوخ التحدّي أمام تنّين ضعيف! هذا كلّ ما كانَ يسمَعُهُ داخلَه.

استعدّ هذه المرّة وتنفّس البخار من السّحاب والغبار من الأرض والأوراق من الأشجار الميّتة والرّمال من الصحاري الجافّة... ثمّ نفخَ بكلّ ما لديه...غرقتْ المنطقة في الظّلام الدّامس والعواصف، مرّ يوم ثم يومان... وبعد سبعة أيّام متتالية من الزّوابع والعواصف، انكشفَ الظّلام وعادَ الهدوء وسط الخراب.

تغيّرتْ ملامِحُ العفريت الجبّار أبانوخ وبدلَ أن يشعُرَ بالخوف، شعر بالغضب... الكثير من الغضب، لم يتحرّكْ الجبل من مكانه! حينئذ أخرج التّنينَ أڤمَد من جفنِه ووضعَهُ على الأرضِ مقرِّرا سحقَه تحت قدمِه الضّخمة.

فجأة سمِعا ضحكة اهتزّ لها ما بينَ المشرقِ والمغرب، ضحكة جعلتِ الأرض تهتزّ وتربو وبعدَ أنْ خمَدت بدأتِ الحياةُ تدِبّ في كلّ شيء دمّرَهُ العفريت من جديد. أسعدَ ذلك أڤمَد وجَعَلَهُ يستبشر، لكن بالنّسبة لأبانوخ

فقد سكنَ القلقُ ملامِحَ وجهِه فقطّب حاجبيه وراحَ يصرُخ كالمجنونِ بنبرة مهتزّة غاضبة:

-من أنتَ؟ أظهر نفسك!

ارتفَعَ الجبلُ وأصبحَ أضخمَ ممّا كانَ عليه وفتُحَ باب فيه يدعوهُ للدّخول، دونَ انتظار ولا تردّد دخلَ أڨمَد جوفَ الجبلِ عبرَ الباب، كانَ العفريتُ مطالَبا بإظهار شجاعتِه أمام التّنّين الصغير، لذلك دخلَ هو الآخر إلى هناك.

رغمَ عظمتِه وقوّته العظيمة لم يكن قادرا على إبصارِ الطّريق ولا معرفة الاتجاهات عند تفرّع الطّرق، لأوّل مرّة أحسَّ أنّه عاجز! شعرَ بالإذلال الشّديد خاصّة حينَ رأى أڨمَد يقودُه بكلّ ثقة وهدوء، طبعا فأڨمَد يتحسّس الحرارة بالثّقوب الّتي على رأسه ويلتقطُ الرّوائح من أميال بواسطة لسانِه. تعلّم العفريتُ الدّرس، قد تمتلِكُ كلّ شيء تريدُه إلّا الشّيء الّذي تحتاجهُ فعلا، مهما بلغَ بك الغنى ستفتقِرُ إلى أحدٍ ما أو شيء ما، هو الآنَ يواجِهُ أمرا أكبرَ منهُ، أقوى وأعظم!

استطاعَ أقمَد أن يأكُلَ بعضَ الجرذانِ الّتي وجدَها تسكنُ جوفَ الجبل، انتعشتْ قوّتُه أكثر شيئا فشيئا، برزتْ أسنانُه وأصبحَ قادرا على قضمِ أيِّ شيء بفضلها! بعدَ ساعاتٍ من التوغّل والخوضِ في الممرّات، تراءى لهُما ضوءٌ في آخر الممرّ فتتبّعاهُ بحذر شديد وترقّب إلى أن وصلا إلى حجرة مغلقة، يجلسُ فيها شخصٌ ينبعِثُ منهُ هذا الشّعاع.

-أهلا أهلا بأخي...

ارتعدَ العفريت أبانوخ العظيم لأول مرّة في حياتِه، يبدو أنّه يعرفُ صاحبَ الصوتِ جيّدا وأنّ لهما ماضيا حافلا.

-أنت؟ كيف؟

ضحكَ العفريتُ الماردُ "أغولِيد" خادمُ الأرواح ووليّ عهد عرش التّنانين السّبعِ الكبرى وقال:

-لقدْ عدتُ بفضل الغيظِ والشّعور بالغدرِ، ساعدَتني الأرواحُ الّتي خدمتُها دوما والآن َعدتُ كروحٍ لا تُقهر!

تعودُ القصّة إلى الماضي، حيثُ وُجدَ على الأرض العليا العفريتُ الأوّل "مواي"، كانَ طيّبا وذا قوّة لا تُقهر، كانتْ مهمّتُه خدمة الحياة على الأرض

ورأى أنّ توزيعَ قوّتِهِ وجُهدِه سيعطي نتيجة أفضل، لذلكَ ابتكَر في نفسِه الشّهوات ثمّ قضى ألفَ سنة يتزاوجُ فيها مع كلّ شيء ممكن، الأشجار والزّهور والبشر والزواحف والثديّات والجماد...

بعدَ ألفِ سنةٍ أخرى كانَ على الأرض عددٌ كبير من العفاريت: عفاريت السماء، عفاريت النّار، عفاريت الرّياح... حينهَا قرّرَ أن يختارَ لها من يحكُمُها قبلَ اندثارِه وتوريثِ قوّته فاختارَ منها عفريت الرياح أبانوخ وعفريتَ الماء حمّو-قيو وعفريتَ الأرواح "أغولِيد" وكانَ عدَدُها سبعة، عُرفتْ بعدَها بين المخلوقات باسم العفاريت السّبع العظيمة.

جمَعَهمْ ذاتَ يومٍ وقضى سنةً ينظُرُ فيها إليهم بعيونِه الأربعةِ النّافذة: عينُ الحقيقة التي تسبرُ الصّدق والعينُ المحجوبة الّتي تسبِر الرّوح وعينُ الابتلاء الّتي تسبرُ الثّبات والعزيمة والعينُ السّوداء الّتي تكشِفُ بذورَ الشّر الخفيّة.

وقَع اختيارُه على أغولِيد خادم الأرواح ليكونَ حاكما على رأسِهم ليأتمِروا بأمرِه، هذا حتّى لا تعمّ الفوضى، ثمّ اندثَر وتحوّل إلى تمثال بأرض القيامة، معطيا إياهم قدُراتِهم الخارقة وجبروتَهم. أمضوا القرنَ الأوّل يبكونَ

حزينين على أبيهم حتّى تشكّلت من دموعِهم سبعُ محيطات، ثمّ قضوا قرنا آخر مزهوّينَ بقواهم سعيدينَ بها.

خلالَ ذلك تغيّرت الأرضُ بسببِ أفعالِهم فماتت العديدُ من المخلوقات وظهرت أخرى وانفصلتْ أراضي والتقتْ أخرى. على رأس القرنِ وقفَ أغولِيد شامخا من وسطِ العالمِ بعدَ أن جلسَ على عرشِهِ طيلة السنواتِ المئتين الماضية، فرأى الخرابَ الّذي يسيرُ إليهِ العالم، لذلكَ دعا إخوَتَهُ وجمَعَهُمْ ليذكّرهم بوصيّة أبيهِم وسببِ إعطائه إيّاهم هذه القوى الّتي يتمتّعون بها ويفعلونَ بها ما يشاؤون، حضرَ الجميعُ إلّا أبانوخ فلم يكنْ كلامُ أخيهِ يعنيه حسبَ ظنّه، فالقوّة تعني السّلطة والحرّيّة ومن المستحيلِ إقنَاعُهُ بغير هذ الكلام.

كانَ بإمكانِ الإخوة حبسُهُ أو فعلُ أيّ شيء لإيقافِه، لكنّ قانونَ مملكة العفاريت تمنَعُ قتالَ الإخوة ومَن يفعَل ذلك يصْبِحُ ملعونا مطرودا. أبانوخ الّذي لا يؤمِنُ بالقوانين طلبَ من أخيه التّنازلَ عن العرشِ لصالحِه، طبعا فهو الأقوى بينهم في منظورِه الخاصّ! لذلك تحدّى أخاهُ في نزالٍ إلى الموت، كانَ أغولِيد طيّبا حليما ورفَض نزال أخيه أو أن يبسط يدهُ إليه ليؤذيَه، حاوَل معَهُ

كثيرا ليستفزّه ويُخرجَهُ عن هدوئه وحكمَتِه، لكن هيهات، فهو وريثُ عرش العفاريت ووَريثُ الحكمَة الدّافقة الّتي منحَهُ إيّاها والدُه قبل تحوله، لعلّها أعظمُ قوّة حصل عليها عفريتٌ يوما، فلا شيء يحكمُ العفاريتَ سوى الولاءُ لقائدها وطاعَتُه، فإن كانَ حكيما عاشتْ المخلوقات بسلام، لذلكَ اختفى الشّرّ منذ بضعة سنوات أي منذُ أن جلسَ أغولِيد على عرشِه لمراقبة الجميع.

بعدَ أن فشِلَ أبانوخ في استفزازه وبعدَ أن صبرَ سبعينَ سنة على هذا الحال، قرّر قتلَه، لذلكَ انتظرَ رمشة عينِه الّتي تكونُ كلّ خمسينَ سنة وتدومُ عشرين جزءا من الثّانية وقامَ بطعنِهِ بفكّ الأرض السّفلى بعدَ أن سرَقَهُ من غرفة ودائع المملكة الّتي كانَ من المفترَضِ أن يكونَ حارسا عليها إنّه الفكُّ المعدُّ ليقتلُ مرّة واحدة فقط ثمّ يختفي، كانَتْ تحتفظُ به مملكة العفاريت كاحتياط في حالة مواجهة عدوّ عظيم من أكوانٍ وعوالمَ أخرى.

عندئذ اندثَرَ الفكّ وأصابتْ أبانوخ لعنةُ أخيه قبلَ أن يرحَل، فشُرّد من المملكة إلى الأبد وأصبحَ ضائعا بلا مؤنسٍ ولا شُغلٍ واستوطنَ أرضَ الهجناء، من يومِها تفرّق شملُ العفاريت العظيمة على غرار كلّ العفاريت الأخرى وفرَّ كلٌّ منها إلى مكانٍ ما سواءً في كونِها أو في أكوانٍ غريبة عنها ولأنّ أغولِيد كانَ

طيبا معها، قامتِ الأرواحُ بتغذية روحِه وتشكيلِه من جديدٍ على الأرض، لذلكَ كانتْ تصنَعُ الجبالَ لتخفيَه داخِلها حينَ تقومُ بتغذية روحِه حتّى لا تعمى بوهجها بقيّة المخلوقات أثناء ذلك، من حينِها أصبحت الأرضُ مليئة بالجبال.

اليومَ يعرفُهُ سكّانُ أرض الحممِ المصهورة داخل الأرض باسم "عفريت الجبال"، لم يتبقَّ الكثيرُ كي يعودَ إلى عرشه والآن سيرى ما سيفعَلُه بأخيه الغادر الّذي يرتجِف كطفلٍ مذعورٍ الآن.

....

السّاحرة العظمى!

يظنّ الكثيرونَ أنّها مجرّد خرافة، لكنّها حقيقيّة كأيٍّ منْهم، قامَ سكّان العالمِ العلويّ باختطافِها، بالنّسبة لهم هي أحد أملاكِهم، هي نفسُها لمْ تكنْ تؤمنُ أنّ هنالكَ من بإمكانِهِ فعلُ هذا بها، هي الرّشيقة ذاتُ الإدراكِ الواسع والسّاحرة ذاتُ السّرّ الأوحد.

لقدْ تعرّضت للغدر كحال كثيرين غيرها، حدث هذا حينَ أُعجبَ بها عفريتُ البحار "حمّو-قيّو"، جهّز لها موكبا من مئة عفريت وأحضرَ لها الطّلّعَ

الشّهيّ لتشبع والشّمعَ الطّريّ لتتوسّده والحرير الخالص لتتدثّر به، كانَتْ فتيّة وخارقة الجمال، لم تكنْ حينها قد غاصتْ في عالم السّحر ولا اكتشفتْ السّرّ الّذي احتفظتْ به لنفسِها في وقتٍ لاحق، قبِلتْ هداياه كي لا يغتاظ، كما أنّ هداياهُ القيّمة ستكونُ مفيدة لسكّان مملكتِها المجتهدين والمجدّين في العمل. لكنّ حمّو-قيّو اعتبَرَ قُبولها الهدايا موافقة منها على تقرّبه وتغزّله بها.

على عكسِها لم يكنْ لديهِ مانِعٌ من اختلاط الأنواعِ والأجناس، فقدْ فعلَ ذلكَ والدُه العفريت مواي منذ ملايين السّنين. كانَ يفكّرُ في تحويلها إلى خالدة بطريقة ما أو أن يتحوّلَ إلى فانٍ من أجلها، لا شيء مهمٌّ بقدرِ عيشِهما كزوجين.

لم تكن أريناس غبيّة لتخفى عليها رغباتُه الّتي لا تكادُ تخفى على أحد، تهرّبت منهُ زمنا طويلا، لكنّ إصرارَهُ اضطرّها ذاتَ يومٍ لمصارَحتِه ورفضِه جملةً وتفصيلا. حزنَ العفريتُ العاشق واغتاظ لذلك غيظا شديدا وتوعّدها وشعبَها بالانتقام... كانَ جادّا في ذلك. أريناس ليستْ ملكةً تقليديّة لمملكتِها، فكلُّ الأعمالِ تُدارِ بمباركتِها، بدونِها سيتوقّف الإنتاج وتدخلُ المملكة في ركود لا مخرجَ منه وهذا ما حصَل بعدَ اختطافِها بمؤامرة من العفريت العاشق.

الحبّ يجعَلُ بعض الطّيبين أنذالا بقدر ما يصلِحُ بعض الأنذال، لقدْ راقَبَها منذُ طفولَتِها، لم يستطِع اكتشافَ سرّها الّذي جعلَها أعظم ساحرة على الإطلاق، لكنّه فهمَ حدودَ سِحرِها، هي كنقطة حبرٍ على ورقة، في نظرِها العالم هو الورقة فحسب لذلكَ قدرَتُها لم تتعدَّ الحيزَ المندرجَ في إدراكِها. أبرمَ العفريتُ اتّفاقا مع سكّان العالم العلوي لأخذها وتركَ المملكة تعيشُ في خراب، أمّا عنْهُ فمن المعلومِ أنّ العفاريت خالدة، لذلكَ حُزنُها يدومُ طويلا وقد يستغرق مئات السّنين ليزول، لذلكَ انصرفَ إلى أعماقِ إحدى البحيرات ونامَ عميقا كي يتجاوزَ محنَتَه.

بفضلِ قُدراتِها وعلاقتِها القويّة بالعرّاف، استطاعتْ أريناس معرفة أنّ كارثة ما ستحلّ على العالم، لذلك أسرّت نبوءتَها إلى الأزهار الّتي وعدْتها بإخبارِها للجميع كي يكونوا على حذر. أوفتْ الأزهار بوعدِها وغنّتْ نبوءة الكارثة الّتي ستنهي العالم بصوتٍ ملائكي خافتٍ كلّ ليلة لمدّة ثلاث ليالٍ متتالية ولمّا لمْ يسمَعها أحد قالت لها الأشجار:

-دعيني أغنّي!

ردّدت الأشجار هي الأخرى النّبوءة بصوتٍ جهير، غيرَ أنّ الجميعَ ظنّ أنّه الحفيف نفسُه المعتادُ الّذي تصدِرُه حينَ تُلاعِبُ أوراقُها النّسيم وهكذا تردّدت النبوءة بين الأشجار والأزهار والسّنابل والأعشاب، لكنّ لم يفهم أحدٌ ما تقولُه، عندئذ صرختْ أريناس في الفواصِل بين قطعِ الزّمن، فتردّدت النبوءة في أحلامِ الكائنات بضع ليالٍ ثمّ اختفتْ، قليلونَ من رأوها وسمعوها، لكنّه تمّ تكذيبُهم من طرفِ الجميع وقالوا عنها أضغاث أحلام، لذلكَ صارتْ النّبوءة مجرّد خرافة آمنَ بها البعض وكذّبها البعْضُ الآخر.

كانتْ أريناس تراقِبُ الأرض الوسطى المسمّاة "أرض الهجناء"، تستطيعُ من هنا رؤية كلّ ما يدور فيها، شغلتْ نفسَها أيضا بجمعِ ما أمكَنَها من المعلومات حولَ أرضِ مُختطفِيها، استطاعتْ معرفة الطُرُقَ والممرّات العلوية والسّفلية، كوّنت خريطة وبقيتْ تنتظِرُ بصبرٍ ظهورَ المنقذ.

....

سكّان الأرض العليا، قليلونَ من رأوهُم والمعلومات عنهمْ شحيحة، يُقالُ أنّهم يراقبونَ كلّ شيء من مكانٍ ما بالأعلى، مهما رفع سكّانُ أرض الهجناء رؤوسَهم فيستحيلُ أن يروا شيئا، هنالِكَ حجابٌ ما يمنَعُ الرّؤية وحاجزٌ فشَلَ

أمهرُ الطّيّارينَ في اختراقه، يشَاعُ أنّ بعوضة استطاعتْ ذلك ذات يوم، لكن تمّ القضاء عليها وإرجاعُها داخِلَه أينَ لفظتْ آخر أنفاسِها. الأرضُ العليا لا تختلِفُ طبيعَتُها عن أرض الهجناء، فهناكَ أشجار وسماء وسُحب وماء وحيواناتٌ كثيرة لكنّ الإشاعات تقول أنّ سكّانها المعروفين بـ "المربّين" أذكياءٌ جدّا على عكسِ الأنواعِ الأخرى الّتي يحكُمُونَها، فهي تطيعُهم وتأتمِرُ بأوامِرهم دونَما تفكير ولا نقاش.

الكائنات الوحيدة الّتي تضاهي المربّين في قدراتِهم هي الجنّ والعفاريت، رغمَ هذا فاللّقاء بينهم نادرٌ جدّا، لم يكونوا على وفاقٍ دائما، لكن كثيرا ما حاولَ أحدُهُم التسلّط والتحكّم في الآخر، لذلك التقاؤهم غيرُ محبّب، هم يعرفونَ عن بعضِهِم الكثير. المربّون كائنات شرّيرة، كانوا سبب فسادِ العالم، منذ حطّوا على أرضِهم دفَعَهُم الفضول ومحاولة الفهم إلى تجريبِ أيّ شيء يجيب على أسئلتِهم واستفهاماتِهِمْ، عبثوا بكلّ شيء وخرّبوه عن قصد أو عن غير قصد.

كما تقولُ الإشاعات أنّ المربّين هم من بنى أرضَ الهجناء وما سكّانُها إلّا من صُنعِهم. أصولُ أرض الهجناء في الأساس هي كائنات أضخم منهم، قامَ

المربّون باستنساخِها وأحدثوا ثورة، حينَها كانتْ النّتيجةُ مخلوقاتٍ مشوّهة لكنّها عاقلة وذات ملامح مشابهة للمربّين أنفُسِهم، العبثُ بالطّبيعة لا يمرُّ بسلام، ذاتَ يومٍ سيجلبونَ الخرابَ لهذا الكون! أخطرُ أمرٍ هو استعمالُهم للسّحر الأسودُ الّذي مكّنَهم من نقلِ عقول أفرادٍ من عالِمِهمْ إلى عالم الهجناء، العبثُ بقوى الطّبيعة خطير جدّا، رفّة واحد من جناحِ فراشة قد تخلقُ إعصارا في مكانٍ آخر. أخيرًا استطاعوا نقلَ عقلِ مربّية ساحرة إلى أحدِ الهجناء، يومَها وُلدتْ العظيمة أريناس والمفاجأة أنّها تفوّقت على سابِقتِها بحيثُ أمكَنها اكتشاف أسرار كثيرة ولولا أنّهم وضعُوها أسيرة وغمرُوا قدميْها في محلول الملح الّذي ثبّط معظَم قدراتِها، لوجدتْ بسحرِها طريقة للفرار وإنْ كانَ سِحرها ضعيف الأثر في أرضِهم.

....

أبانوخ الّذي بحث طويلا عن الخوفِ، يقفُ الآن نادما بعدَ أن وجَدَه، علينا الحذَرُ من الأشياء الّتي نتمنّاها، فاتَ الأوانُ الآنَ، لم يعُد أخوه "أغولِيد" مجرّد عفريت بل هو الآنَ روحٌ لا مادّيّة بقوّة العفاريت وسلطة الأرواح، لا

شيء يُمكِنُه إيقافُه على ما يبدو، سيعاقِبُ أخاه شرّ عقابٍ ولن يستطيعَ أيٌّ كانَ محاسَبَتَه أو ردعَه. نظر أبانوخ إلى أڤمَد وقال:

-يُمكنُك المغادرة الآنَ أيّها التّنّين، لقد قمتَ بما عليك، سآمر رياحي بإعادتك إلى القرية عندَ بوّابة العرّاف.

-وأنتَ؟

-سأتعرّض إلى العقابِ الّذي أستحقّه...

عندَ النّهاية يبدو الجميع طيّبين، يحاولونَ التّكفيرَ عن سنواتٍ خلال دقيقة من الزّمن، أحيانا تكونُ التّوبة صادقة وأحيانا أخرى تكونُ مجرّد خيارٍ أخير لو كُتبَ لصاحبِها حياة أطول، سيُفسِدُها بعبَثِه من جديد. فكّرَ أڤمَد قليلا ثم خاطب روحَ العفريت أغولِيد:

-أودّ طلبَ شيء ما منكَ يا سيّدي.

- يا لجرأتك! ماذا تريد؟

-أتمنّى منكَ أن تعفوَ عن السيّد أبانوخ.

ضحكَ أغولِيد حتّى ارتجفَ الكهف، في الواقع كان معجبا بشجاعة وجرأة وطيبة أڤمَد.

- وما الّذي ستقدّمُه لي بالمقابل؟

فكّر أقمَد متسائلا: ما الّذي يريدُهُ خالدٌ من فان؟ هو يمتلِكُ كلّ ما يريد ويمكنُه الحصولُ على ما يريدُ ممّن يريد، بعضَ لحظاتٍ اهتدى إلى أمر ما: ما الّذي أملِكُه ولا تملِكُه الأرواحُ والعفاريت؟ اهتدى إلى فكرة...

-سأعطيكَ دقيقة من الزّمن!

-تعطيني دقيقة؟

-نعم...

لم يكنْ أقمَد متأكّدا من شيء، لكن بدا له ذلك صوابا، كانَ أبانوخ متعجّبا جدّا ممّا يحدث، لمْ يرَ تصرّفا مماثلا خلال ملايين السّنين الّتي عاشَها، سأل بِحيرة:

-لمَ؟ لمَ تفعلُ هذا من أجلي؟

-لأنّك عفريتٌ طيبٌ ضلّ الطريق، كلّنا نحتاجُ إلى فرصة ثانية فلا تُفسِدها!

يا لحكمة أقمَد رغمَ عمره الصغير، ما فائدة أن تعيش يوما إضافيّا إن كنتَ لا تتعلّم فيه شيئا جديد؟ فهمَ أبانوخ الأمر، لقد كانَ أعمى البصيرة،

أحيانا يظنُّ المرءُ أنّ كلّ شيء بخير وأنّه لم يتعرّض للعقاب رغمَ غيِّهِ وجُوره، لكنّ بصيرتَه العمياء هي أكبرُ عقاب ينزل به، ذاكَ بأنّ صاحبَه يستفيقُ عندَ النّهاية بعد فوات الأوان.

-شكرا أيّها التّنّين، لقدْ علّمتني الكثير.

-هنالكَ سببٌ آخر لإنقاذك.

-ما هو؟

-أنتَ تدينُ لي بخدمة مرّة واحدة خلال حياتي، تتذكّر؟

ضحكَ العفريتُ وقال:

-كم أنتَ ماكرٌ أيها الّصغير!

أعطى العفريتُ أقمَد حبّةَ الغبار السِّحريّة وطلبَ منهُ ابتلاعها، وبعدَ أن فعل ذلك قال له:

-يمكنني الآن سماعك أينما كنت، نادني وستوصلُ الزوابعُ إليّ نداءك!

حينَها تكلّم أغولِيد:

-وأنا سأعيدُ لك الدّقيقة الّتي أخذتُها تقديرا لقوّتك وطيبتك.

شكرهُما أقمَد جزيلَ الشّكر ثمّ إنّ العفريتَ العظيم أبانوخ نفخَ نفخة أثارتِ الرّياحَ في الكهف ثمّ أمرها أن تأخذ التّنّينَ أقمَد إلى الثّقبِ الدّوديّ، أينَ يجلسُ العرّاف خارجَ حدود الزّمن في اللّامكان. هالة عظيمة تحيط بالباب، حتّى أنّ الأشياء بقربِه تبدو كأنّها تنسحقُ ببساطة، جاذبيتُه هائلة. توجّه إليه حارسُ البوّابة بكلامه:

-لا يهمّني من أنتَ وما تريدُهُ من العرّاف لكنّك لن تتمكّن من المرور بمفردك.

-وما السبيل إلى ذلك؟

-تحتاجُ إلى طاقة السّاحرة السّالبة لفتحِ البوّابة.

-وأينَ أجدُ السّاحرة؟

-لقد اختطَفَها سكّانُ العالم العلوي.

يا لها من مصيبة! هل انتهت الأحلام الجميلة؟

شجرة التّين

انطفأت الشعلة، انتهتْ سهرة اليوم، خلافَ المرّاتِ السّابقة هذه المرّة كنتُ مندهشا، لم تكنْ غرابة الأحداث وكمّ الخيال في القصّة من فعلا ذلك، بل كلّ تلك الاصطلاحات العلمية والأحداث المشتقّة من نظريّات فيزيائية حقيقية، كنتُ أظنّ أنّ عمّي يغموراسن شخصٌ أمّيّ، كيفَ له أن يذكر أثرَ الفراشة وسرعة الضوء وطول بلانك والطاقة السّالبة وارتباطها بالبوّابات الدّودية وتفسير الزّمن على أنّه قطع متراصّة كما هو الحال في فيزياء الكمّ؟ لم يَطلْ أمدُ دهشتي بعدَ أن أخبرتني ميلين لدى عودتنا إلى المنزل أنّ عمّي يغموراسن كانَ أستاذ فيزياء في الجامعة!

كلّ هذا التّواضع لا يكونُ إلّا من كبير! شلّ التعجّبُ تعابيري وشعرتُ بخجلٍ شديد وأنا أسترجعُ كلَّ ما قلْتُه، لعلّني أخطأت في كلامي أمام عمّي "الدّكتور يغموراسن"، الأجدرُ بالمرء مراقبةُ كلماتِه أمام الجميعِ كما لو كانوا كلّهم علماء وذوي شأن، هذا دليل على العشوائية والفوضى اللّتين تغرق فيهما ألسنتنا ولو راقبنا أنفسَنا لوفّرنا على العالم معظم الكلام المليء بالحماقات.

أيّام الجامعة كنتُ بارعا في الحديث حتّى أنّي استطعتُ خطفَ قلب حبيبتي ميلين من بين الجميع، مررنا بكثير من الصّعوبات، أخطأنا كثيرا وصمدَ حبّنا رغمَ كلّ شيء. بعدها حانَ وقتُ مناقشة مذكّرات التخرّج، تحصّلنا كلّنا على علامات جيّدة. كانتْ ملابسي قُبيل المناقشة أنيقة جدّا، نظرتُ إلى المدرّجات أين كانَ جميعُ المدعوّين جالسين، نظرتُ إلى عائلتي إلى أصدقائي وإلى ميلين ثمّ أسرعتُ بالذّهاب إلى أحدِ الأقسام المجاورة وغيّرتُ ملابسي، ارتديت ملابسي المعتادة حينها فقط شعرتُ أنّي أنّا. لما عدت... بدتْ عليهم الدّهشة والاستغراب، نظرتُ إلى حبيبتي ميلين وكانتْ تبتسِمُ لي كأنها تقول: أساندك أيّا كان ما تفكّر به"، حينَئذ لم يعدْ لديّ تردّد في خياري بل وصرتُ أكثرَ ثقة من قبل، لا يهمّ كم هي صغيرة ابتسامتها، إنّها أكبرُ من أن يراها الجميع، لم يدرك أحدٌ أثرَها عليّ، هي صغيرة لكنْ مهمّة بقدر الحصاةِ الّتي أدخلَت زور السّجن، غير أنّها حرّرتني على عكسِه. يحتاجُ المرء إلى مجتمَعٍ يعيقُهُ ليفشل بينما يكفيه شخص واحدٌ يدعمُه لينجح، لكن ما هي فرصة العثور على هذا الشخص؟

انتهى كلّ شيء... سيعود الجميعُ للدّيار وستبدأ رحلة البحثِ عن عمل محترم. اليومَ تتوجّه ميلين لديارها، ستخبِرُ أهلها أنّي أريد خطبَتَها، ليس الأمر بالهيّن عليها، إنّه بمثابة إخلاف وعد وضرب الأعراف بالجدار، آمل أن تتحطّم هذه الأعراف حينَذاك.

وقفتُ عند باب الإقامة، هذا المكان الّذي صار عرّابا للأحزان والآمال، انتظرتُ خروجَها كما في المرّات السّابقة، المرّة الأخيرة هي مجرّد مرّة أخرى، ما الّذي يجعلُها مختلفة عن البقيّة؟ إنّها أشبَهُ بالشّربة الأخيرة من العصير البارد اللّذيذ ومن اللّقمة الأخيرة من وجبة شهيّة بينما لا نزال ظمئين نتضوّر جوعا.

حاولتُ الشّعورَ أنّ هذا اللّقاء ليسَ إلّا لقاءً آخَرا وإن لم يكنْ كذلك، غيرَ أنّ السماء أفسدتْ خططي، كانتْ زخّات المطر تهيّئ السّرحَ ليُشابه تراجيديا الأفلام والمسلسلات، تركتُ المطر يغمر وجهي، فقد تغلبني الدّموع ومن الواضحِ أنّي لستُ أقطّع البصل.

رفعتُ رأسي أنظر إلى ذاك الجوّ المهيب، الغيوم رماديّة والشمسُ تستدلّ على موقِعها بلطخة كبيرة فاتحة، الطّيور تحلّق في كلّ مكان وأوراق الأشجار الجافّة ترسو على بحيرات المياه... أقبلتْ ميلين، كنتُ أتفحّص وجهها ويبدو

أنّها كانتْ تقوم بالأمر نفسه، بهجة اللّقاء ومرارة الفراق يقال أنّ الدّنيا مثل مفاتيح البيانو، لا يمكن العزف عليه باستعمال المفاتيح البيضاء فقط، الدنيا خليط من الأبيض والأسود، سألتُها حين أضحتْ أمامي:

-لمَ؟

-لمَ ماذا؟

-لمَ لمْ نُخلَقْ طائريْن؟ حينَها سنكونُ معا دونَ شروط ولا قيود.

-ربّما اصطاد أحدَنا أحدُ الأطفال فتنتهي حكايَتُنا.

كانتْ تمازحني باكية، طريقَتُها في المزاح! لا... ليستْ طريقَتَها، إنها طريقتي! عندئذ فهمتُ إلى أيّ مدى كانَ تأثّرنا ببعضنا، كنتُ أنظرُ إليها بعينين مندهشتين، كأني اكتشفتُ أمرا جديدا، لو يطولُ الأمرُ قليلا فحسب! لو نحصل على بضعة أيام أخرى قرب بعضنا! أجبتُها مبتَسِما:

-كما أنّ عمرَ الطّيور قصير ولن نحصلَ على كثير من الوقتِ سويّا!

-كما أنّنا سنصير في الآخرة ترابا ولن نكونَ رفيقين في الجنّة!

ضحكتُ معجبا بمجاراتِها لي وقلت:

-نعم، لذلك علينا العمل على إصلاح الكثير من الأمور لنصل إلى هناك.

أظنّ أنّ كلينا قرّر داخلَه الاستقامة منذ تلكَ اللّحظة، عناقٌ أخير فحسب ثم نستقيم، كانَت فكرةُ الحياة الأبديّة برفقتِها قد تملّكتنا تماما وتمكّنت منّا، صارتْ في لحظة أقصى طموحاتنا، لعلّي تخيّلتُ هذا... لكنّ عينيها كانتا تشبهان عينيّ جدّا حينئذ، استطعتُ الشّعورَ بها والتّفكير مثلها، ميلين... توأمُ روحي.

ركبتِ الحافلة، ها هي ذي تنطلق مبتعدة، ألقتْ إليّ المنديل الّذي كانتْ تجفّف به دموعَها، بعد كلّ شيء؟ بعدَ كلّ الذّكريات الّتي أهدتني إيّاها، لا تزال تريد إهدائي ذكرى إضافية؟ كنتُ أتساءل دوما ما فائدة دينار إضافي فوق مليون دينار؟ حينَ تحبّ شخصا بعمق، ستودّ إعطاءَه كلّ ما يحتاجُه، بل كلَّ ما تحتاجُه أنتَ عبرَه! ستفعلُ كلّ شيء من أجلِه لأنّ ذلك يسعدكَ أنت، سيصبحُ الألم والتعب لذّة في سبيلِه، ستغدو اللّحظة أهمّ معه، لن تدَعَها تذهب دونَ فعلِ كلّ ما يمكنكَ فعلُه من أجلِه محاولا تقييدَها ضمن الذّكريات، حتّى وإنْ

كانَ ذلكَ بإلقاء منديلٍ عبر نافذة الحافلة إلى الشّخص الّذي تحبّه، مؤمنا أنّ دموعَك عليه ستعني له الكثير.

يذكّرني هذا بمقتطف من كتابك حينَ قلت:غريبٌ أنّ الذين يساعدون الآخرين، عادة ما يريدونه حقّا هو مساعدة أنفسهم، باحثين عن ذاك الرّضا الذي يولّده إسعاد شخص ما أو بحثا عن ملأ الفراغ الذين يسكن أرواحهم والوقت الذي يستنزف إيجابيتهم، كأن تنقذ حياة عصفور لتستمتع بغنائه أو تصلح البرّاد في بيتك كي تنعم بماء بارد.

أتّفق معك! البشر لا يحصدونَ سعادَتَهُم إلّا بزرعِها لتزهرَ في صدرِ شخص آخر.

توقّفَ أحمد عن الحديثِ بعدَ أن عاوَدهُ السّعال وقطعَ أنفاسَه. بعدَ أن هدأ سعاله خفض رأسَه ليستريح وأنفاسُه المتسارعة بدأت تبطئ من وتيرتِها، كانَ ينظرُ إلى علبة السّجائر الفارغة، محبوبته الّتي تكاد تقتله، يبدو مشتاقا إليها. قلت له حينَها:

-لا عليكَ يمكنُكَ الارتياح وسنكملُ لاحقا.

-لا بأس، سأكمل الآن... أنا بخير.

كنتُ أنظرُ إليه وأرى شخـصا يُحتَضر، شخصا مليئا بالتّجارب والذّكريات شخصا من المفترض أن يبدأ حياتَهُ الآن بعدما تزوّد لها بكثير من الخبرة والحكمة.

-أتشفق عليّ؟

-ماذا؟

فاجأني سؤاله المباغت...

-سألتُكَ هل تشفقُ عليّ؟

-لا أدري ما هو شعوري، لكنّه يتضمّن الشّفقة بالتّأكيد.

-يجدرُ بك ذلك!

قالها ضاحكا، كنّا ننظرُ إلى بعضِنا، فهمت! لم يكنْ ذلكَ سوى تلميحٍ لا يوجدُ سوانا في هذه الغرفة ليفهمَه، عندئذ تذكّرت الأحبّة وتوثيق اللّحظات وكونَ اللّحظات الأخيرة مختلفة، سألتُه:

-أتسمَحُ بأن أسردَ قصّتك وقصّة ميلين وعمّي يغموراسن وأڤمَد يوما ما؟

-دعِ العالم يسمع! دع العالمَ يسمعُ يا صديقي، الّذين يذكرُهم العالم لا يموتون.

كانَ ذلك تلميحا آخر قبل أن يعتدلَ ويواصلَ سردَ الأحداث:

بعدَ ساعات طويلة من النّوم ومن السّفر بالنّسبة لميلين، وصلَتْ إلى ديارِها واتّصلتْ بي، قالتْ:

-وصلتُ إلى الدّيار... واشتقتُ إلى الوطن!

الغارقون في التّجريد يعلمونَ أنّ الأشياء تتقمّص بعضَها... قد يكونُ الوطن إنسانا...

-والوطنُ يحنّ إليك...

-سأنام الآن.

-حسنا إلى اللّقاء.

-لا تقطع الاتصال... ابقَ قربي إلى أن أنام.

رغمَ أنّها تنامُ كلّ ليلةٍ بعيدةً عنّي، إلّا أنّي أشعر بها اليومَ أبعد من المعتاد.

عمّا قريب ستحدّث أمّها عنّي، عليها النّوم جيّدا لترتيب أفكارها. صباحَ اليومِ الموالي، كنتُ هادئا جدّا، أترقّب ما سيحدثُ هناك على بعد مئات

الكيلومترات، لم أفعل شيئا يذكر، لم أقم بشيء سوى التّفكير، انتصفَ النّهار وراسلتني ميلين وكتبتْ:" أمي ترفض رفضا قاطعا"، شعرتُ بالوهَنِ في ركبتيّ، لم أكنْ مصدّقا لذلك رغمَ توقّعي له. اتصلتُ بها مرّة تلو مرّة تلو مَرّة... هي لا تجيب، ما الّذي حدث لها؟ الأمر مقلقٌ جدّا، لا يسعني القيام ولا الجلوس ولا المشي ولا فعل أيّ شيء معتاد.

بعدَ سويْعات وضّبتُ حقيبتي لأسافر، لم يعدْ بوسعي التفكير والتحمّل أكثر... فجأة ها هو ذا الهاتف يرنّ، إنّها هي... ميلين:

-ألو... ميلين!؟

-أمّي رفضت...

كانتْ تبكي بحرقة شديدة، تشهق حتّى تكادُ تنقطع أنفاسُها ثم تقول كلمات بالكاد أفهمها.

-ماذا نفعل؟ أحمد...

-لا عليك حبيبتي... سنجدُ حلّا...

تكلّمنا لدقائق طويلة ولم تحملْ لنا أيّ جديد، كنّا نعيد ما نقولُه فحسب، أواسيها وأنا بحاجة ماسّة لمن يواسيني. في نهاية اليومِ كانَ رأسي محمّلا بكلّ

تلك الذّكريات الّتي لا أودّ خسارتَها وببكاء ميلين وبالتفكير فيما سأفعله تاليا، لا أستطيع النّوم، أتقلّب يمينا وشمالا وألتفّ حول الوسادة و... حقيبتي الموضّبة هناك في ركن الغرفة، تريدُ قولَ شيء ما، تشعرُ بالمللْ... تشعر بالأمل، تريد المقامرة، تريدُ المغادرة، تظنّ أنّي لم أوظّبها عبثا، تنتظرُ لحظةَ حملِها إلى صندوقِ الحافلة، لكنّي كنتُ أحملُ مفاجأة لها هذه المرّة، قمتُ من مضجعي وعكفتُ على حصّالتي الّتي بها كلّ مدّخراتي فكسرتُها، نظرتُ إلى الحقيبة وقلت لها مبتَسِما رافعا حاجبيّ:

-أبشري ستركبينَ الطّائرة!

مع حلول الصّباح أخبرتُ أمّي أنّي مسافر من أجل أمور تخصّ الأعمال، كانتْ قلقة لأنّ موعدَ مسابقة التّوظيف الّتي شاركتُ فيها اقترب، طمأنتُها بعودتي في الموعد ثم ودّعتُها وانصرفت. كانتِ الإجراءات كثيرة وجديدة بالنّسبة لي، فأنا لم أركب الطائرة قبل ذاك، أنا الآن أشبَهُ بالبحّار الّذي ألقى نفسَهُ في اللّجج المجهولة أقصى العالم، من أجلِ كنزٍ لا يعرفُ مكانَهُ حقّا، كلّ ما لديهِ هو أوصافٌ مختلفة وخريطة تقريبيّة يستدلّ بها.

حلّقتْ بنا الطّائرة فوقَ السّحاب، كانت ارتجاجاتُها مخيفة، لكنْ بعدَ بضعة منها يعتاد المرء ولا يلقي لها بالا، كنتُ أشعرُ أنّي اقتربتُ من الجنّة قليلا، أنا لا أعلمُ حتّى إن كانتْ الجنّة في الأعلى حقّا كما علمونا في صِغرنا لكنّي قطعا أعلمُ أنّي في الاتّجاه الصّحيح إلى بيتِها.

بعدَ وقتٍ قصيرٍ كنتُ في العاصمة ولم يهنأ لي بالٌ حتّى ركبتُ من جديدٍ متوجّها إلى تيزي-وزو، كانَ كلّ ذلكَ بسيطا مقارنةً ببحثي عن طريقة الوصول إلى قرية آث-سعيد. أخيرا وصلتُ إليها مع غروب الشّمس، اتّصلتُ بميلين:

-ميلين أنا هنا... أتيتُ من أجلك!

-هنا أين؟

-في القرية... قريتكم!

-هل جننت؟ ما الّذي تفكّر فيه؟

-أريدُ خطبتك من والدك.

-لا... لا ليس الوقتَ المناسب.

-الوقتُ المناسب لا يأتي أبدا، علينا أن نتكيّف ونناسبَه فحسب.

استغرقتُ وقتا طويلا لإقناعِها، لم تكنْ مستعدّة لما يحدث، في الحقيقة تعمّدتُ ألّا أخبرَها بقدومي، لأنّها ومن معرفتي بها ستثبّطني عنه، ميلين من النّوع الّذي عليك وضعُه أمام الأمر الواقِع تماما كما في أوّل مرّة... في الأخير اقتنَعتْ بكلامي.

كنتُ هذه المرّة كأقمَد الّذي يقحمُ نفسَهُ في مواقفَ لا يعلَمُ كيفَ يخرجُ منها ومع ذلك يقرر المخاطرة في كلّ مرّة. انطفأ هاتفي، نسيتُ إحضار الشّاحن وذلكَ قبلَ أن آخذَ عنوانَ بيتِ ميلين، الهموم لا تأتي فرادى، اللّيل قدْ حلّ والمالُ الّذي معي أنفقتُه في السّفر وليسَ لديّ مأوى. بحثتُ عن مكانٍ مضاء خوفا مما يوجدُ في الشّارع، لا أعرف شيئا عن هذا المكان، ليلَتَها بتُّ في مكانٍ منعزلٍ عنْ أيّ آدميّ، كنتُ أسمَعُ نباحَ الكلابِ في كلّ مكانٍ لذلك لم يغمضْ لي جفن، آنَستْني تراتيل الجنادب أوّل اللّيل تطمئنني، بعدَها كنتُ شبه مستيقظ كالسّكران أفكّر في أمور عشوائيّة.

مع أذان الفجر، حنت جفوني على عينيّ ولم أستيقظ إلى على ضياء الصّبح، لأوّل مرّة أستقبِلُهُ بهذه الحفاوة والسّرور، قمتُ من زاويتي أتمشّى في الأرجاء، وجدتُ أشجارا من الواضحِ أنّها ليست ملكا لأحد، دنوتُ من

إحداها وقطفتُ حبّة تين منها، حينَها صاحَ بي أحدُهم، لم أفهمْ لهجَته لكن من الواضِحِ أنّه لم يكنْ راضيا وهو على الأرجح مالك هذه الأشجار، قلتُ له مشفِقا من وضعي:

-كنتُ أحسبُ أنّ الأشجار ليست ملكا لأيّ كان...

حينَها غيّر لهجَتُه مع استيعابه أنّي لستُ من المنطقة ولا أجيد لغته:

-أنا مالك الأشجار وهذا التّينُ ليسَ جيدا، اذهب إلى أشجاري الّتي هناك وكُل منها.

أشار بسبّابته إلى أشجار على بعد مترات من مكان وقوفنا، وقفتُ أنظرُ إليه متفاجئا، رقّ قلبي وأحسستُ بالدّموع تدغدغ أنفي متجمّعة تحت جفني، سرعانَما تمالكتُ نفسي وقلتُ له:

-أعتذر لم أقصد التعدّي على أشجارك.

هممتُ بالمغادرة بعدَ أن شكرتُه، لكنّه صاح بي مجدّدا:

-طلبتُ منكَ الأكلَ من الأشجار الجيدة هناك وإن لم تفعل سأتقدّم بشكوى ضدّك.

سقطتْ منْ عيني قطرات من الدّموع وطفقت أمسحها بثوبي وأنا أجدُ هذا العطفَ والطيبة الّذين افتقدتُهما كثيرا خلال حياتي، هل من المعقولِ أن نجدَ لنا وطنا في الغربة؟ هل يمكِنُ للبردِ أن يمنحنا الدّفء؟ نعم! إن كانَ يغشانا بردٌ أعظم منه قبل لقائِه. توجّهتُ إلى الأشجار حينَ كلّمني من جديد:

-كما أنّي أريدُ أن أراكَ تأتي إلى هنا كلّ يومٍ وتأكلَ ما دمتَ في القرية!

-شكرا سيّدي...

لم أملكِ الكلمات الّتي تؤدّي الشّكر، لذلك اكتفيتُ بما قُلتُه، أكلتُ من الثّمار حتّى شبعت، بعدها سألتُه عن بيت ميلين، الجميعُ هنا يتعارفون، دلّني بكلّ كرمٍ على موقِعِه، قصدتُ بيتَها فورا ومعَ اقترابي منْهُ بدأتْ قدمايَ تخذلانني، كنتُ أحاولُ تخيّلَ شكلِ أبيها وكنتُ أتساءل إن كانَ لطيفا أم عصبيّا، اخترتُ كلماتي بعناية قبلَ أن أطرقَ البابَ، خرجَ رجلٌ حادّ العينين وبشوش الوجهِ وبلمحةٍ واحدة أدركَ أنّي لستُ من المنطقة، تبعثرت كلماتي الّتي صففتُها ورُحتُ أتكلّمُ كأني طفلٌ في السّنة الأولى يحاولُ قراءة نصّ أدبي.

-السلام عليكم... أبحث عن عمّي يغموراسن...

-وعليكم السلام... أنا هو.

-قطعتُ ما يفوق ألف كيلومتر وأحتاجُ إلى الحديثِ إليكَ في أمرٍ خاص.

-تفضّل إلى الدّاخل إذن... مرحبا.

كانَ يتصرّف بهدوء تامّ ومن المؤكّد أنّه علمَ بالموضوع من مكان قدومي، أحضرَ بعض العصير وجلسَ يستمعُ إليّ، أخبرتُه أنّي أودّ طلبَ يد ابنتِه ميلين وأني زميلٌ لها في الدّراسة.

-وما هو عملك؟

-لم أبدأ العمل بعد يا عمّي، لكنّي حريص على ذلك.

-وهل تستطيعُ أن توفّر لها حياة كريمة وما تحتاجُه؟

كانَ عليّ قولُ "نعم" حتّى وإن لم أكن متأكّدا من الأمر، ميلين تعلمُ وضعي وتعلَمُ أنّي سأكدحُ من أجلها لو تطلّب الأمر ذلك، استمَعَ إليّ عمّي يغموراسن بكلّ اهتمام، في النّهاية عدّل جلسَتَهُ ليعطيني الخاتمة:

-في الحقيقة يا بنيّ تبدو إنسانا طيّبا وخلوقا، لكن يؤسِفُني إخبارك أنّ ميلين ستتزوّج ابن خالتِها.

شعرتُ باحتقانٍ في رقبتي وتورّمٍ في وجهي، كنتُ أعرفُ ما أنا مقبلٌ عليه لكنَّ ملاقاتَهُ أمرٌ مختلف.

-لكنْ يا عمّي اسألها لعلّ لها رأيا آخرا!

-يا بنيّ لا أريد أن أضيّع وقتك ولا وقتنا، القرار نهائيّ لا رجعة فيه!

ضاقت بي الأرض بما رَحُبتْ، خرجتُ من البيتِ كالمتشرّد لا أعرف إلى أينَ أتّجه كنتُ أمشي فحسب، هل يُعقلُ أنّها النّهاية؟ جلستُ بأوّل مقهى صادفني وطلبتُ فنجانَ قهوة، كانَ عليّ إشعال سيجارة لتهدِّئ من روعي قليلا، لحسنِ حظّي وجدتُ لدى صاحب المقهى شاحنا للهاتف، اتّصلتُ بميلين، كنتُ أعلَمُ مسبقا ما ستقُولُه، ستتمنّى لي أن أسعد مع غيرِها، ستقولُ أنّنا بذلنا كلّ ما بوسعِنا لكنّه "المكتوب..."

وضعتُ الهاتفَ على أذني:

-ألو... ميلين.

-أحمد... أرجوك لا تتخلّى عنّي.

انفتحتْ عينايَ الممتلئتان بالدّموعِ، كنتُ متأثّرا جدّا بهذا الطّلب، ميلين أشجعُ منّي، لم أتجرّأ يوما على طلبِ المساعدة رغمَ ضُعفي، كلّنا نحتاجُ إلى

شخص ما يمدّ لنا يده ليسحبَنا من الوحل، لقدْ وعدتُها سابقا، لن أتخلّى عنها مهما حصل.

-لن أفعل! أعدك...

ضحكنا بعدها بهستيريّة، هذا الحبّ سرّ بيننا، يعطينا الأملَ والقوّة لتجاوز الإحراج والضّعف والعثرات، ستكون الأمور على ما يرام.

ذهبتُ إلى البستان مجدّدا وأكلتُ من ثماره ثمّ استقللتُ الحافلة عائدا إلى البيت بالدّنانير الّتي احتفظتُ بها لذلك، أينَ كان خبرٌ سعيدٌ ينتظِرُني هناك.

كانتِ الأحداثُ الّتي بعدَها حاسمة في مستقبلِنا، لولاها ما ارتبطنا وما كنتُ حظيتُ بشرَفِ لقاء عمّي يغموراسن ومجالَسَته قربَ شعلة الغيلان.

استغرقتُ بضع ساعاتٍ لأتكيّف مع نظرتي لعمّي على أنّه أستاذٌ ودكتور وليسَ مجرّد شعبيّ بسيط، احتجتُ إلى نومِ ليلةٍ كاملة وفي الصّباح شعرتُ أنّ كلّ شيء هو كما اعتدتُه. انتظرتُ اللّيلَ كما أفعلُ كلّ يومٍ بشوقٍ كبير، أصبحتْ قصّتُهُ أجملَ من أيٍّ من أحداث اليومِ في هذه القرية الآسرة، ما قصّة السّاحرة العظمى والعفاريت وسكّان العالم العلوي؟ حلّ اللّيل وبدأ عمّي يغموراسن بسردِ بقيّة الأحداثِ مجدّدا...

الفصل الثّامن

بينَما كانَ زور في أرض العمالقة يستعدُّ لمواجهة الحكمِ بالموت، كان أقْمَد يقف أمام بوّابة العرّاف عاجزا عن فتحِها أو ولوجِها، السّاحرة أريناس وحدَها يُمكنُها ذلك، لكنّها مختطَفة في مكانٍ ما في الأرضِ العُليا بسبب مكيدة العفريت حمّو-قيّو. لا يكفّ المرء عن التّساؤل: كيف من الممكن أن ترتَبطَ أقدارُ هذه المخلوقات المختلفة معا؟

في هذه اللّحظة وصلَ البعوضة توشوشت حاملا القطّ سمّان على ظهره، فرحَ أقْمَد كثيرا برؤيَتِهما وبعدَ التحيّة الحارّة، جلسَ يقصُّ عليهِما ما حدث له وكلّ الغرائب الّتي صادفَها، حينَها اتّسعت أعين توشوشت وقال:

-أنا... أنا سأحمِلُكَ إلى هناك.

تفاجأ أقْمَد من حماسة توشوشت واستعداده للمخاطرة من أجله، لكنّه سرعانَما فهم سبب ذلك بعدَ أن قصّ عليه توشوشت بدورِه قصّة جدّه الّذي وصلَ إلى الأرض العليا وكيف أنّه يسعى إلى أن يردّ اعتبار جدّه وعائلته في قريته. بدوره سمّان كانَ مدينا جدّا لأقْمَد، لذلك قرّر مرافقتَه إلى أيّ مكانٍ يذهبُ إليه.

كانتْ لتشوشت دراية واسِعةٌ بطريقةِ الوصول إلى العالم العلويّ ومن أجلِ ذلك عليهم الذّهابُ إلى أرض السّاحرة أريناس أينَ يوجد الممرّ المؤدّي إلى هناك. بشربة من دمِ أقمَد دبّت قوّة هائلة في عروق توشوشت وفي الحين حملَهم إلى أرض السّاحرة المجاورة بسرعة الصّوت. هنالك في أرض النّحل لم يجدوا التّرحيب، كانَ ذلكَ متوقّعا فالكلّ الآن عدوّ محتملْ.

منذُ اختفاء النّحلة الملكة وأمور المملكة في فوضى عظيمة، انقضّت الحارسات عليهم تريدُ إهلاكَهم، كانَ بإمكان التّنين أقمَد النفخُ عليها بنيرانِه السّوداء الأسطورية والقضاء عليها في لحظة، لكنّه لم يأتِ من أجل هذا، كلّ ما يريدُه هو معرفة مكان الممرّ المؤدّي إلى الأرض العليا، حينَها التقَم سُمّان مزمارَه السّحريّ ونفخَ فيه ألحانا كونيّة جعلتْ الحارسات يهدأن.

كانَ الذّكر المستشار يراقِبُ من بعيد ما يحدُث وحينَ رأى قدرة سمّان وهدوء البقيّة أدركَ أنّ هؤلاء هم أشخاصٌ غير عاديّين، توجّه إليهم:

-من أنتم وما الّذي أتى بكم إلى هنا؟

-أنا أقمَد من أرض الأفاعي وهاذان مساعداي، أريدُ أن أعرفَ مكان الممرّ المؤدّي إلى الأرض العليا لأنقذَ الملكة أريناس.

-وما السّبب الذي يجعلك تريد إنقاذها؟

روى له أڤمَد قصّته، كانَ المستشار يشعُر بالارتياح لفكرة تصديق أڤمَد، لكنّه في الوقت نفسه كانَ حذِرا جدّا.

-سنختبر صدقَك، فإن نجحت دللناك على الممرّ!

وافقَ أڤمَد على عرضِه، حينئذ أمرَ المستشار بالرحيقِ الّذي تشتهر به القرية، عددٌ كبير من الاوعية صُفّ أمامَه ثمّ طلبَ من أڤمَد أن يشربَها كلّها! شربَ أڤمَد وعاء تلو الآخر إلى أنْ أنهاها كلّها، حينَها شعَر بفقدانِه السّيطرة على تصرّفاتِه وتفكيرِه لقد جعلَه المستشارُ يثمل!

ولما أدركَ أنّه وصلَ إلى الدّرجة الّتي يرغبُ فيها من فقدان السّيطرة، سألهُ من جديد عن سببِ قدومِهم، كانتْ إجابات أڤمَد بطيئة وأحيانا غيرَ مفهومة لكنّها كانتْ مطابقة لما قالَهُ سابقا، حينها تيقّن المستشار أنه صادقٌ في مطلَبه. دعاهم إلى المبيت تلكَ اللّيلة وأكرمَهُم بألذّ المأكولات.

مع إقبال الصّباحِ أوفى المستشارُ بوعده ودلّهمْ على الممر متمنّيا نجاحَهُم في إعادة أريناس من أجل مصلحة المملكة... مشكلة! أڤمَد غرقَ في لذّة الرّحيق ولم يعدْ يستطيعُ التوقّف، لم يحدثْ وأن شربَ أيّ كائن منه بقدر ما

فعل. حاولَ سمّان وتوشوشت معَه كثيرا لكنْ دون فائدة، لا شيء بإمكانه مساعَدتُه، كلّ شيء نابعٌ من رغبَتِه، التغيير يبدأ من الدّاخل!

مرّ شهرٌ على هذا الحال دونَ أن يتغيّر الوضع وفي إحدى اللّيالي وبينَما كانَ سُمّان مستأنسا بالعزفِ على ضوء القمر، طرقتْ بالَهُ فكرة، تذكّر الأمسيات رفقة أقمَد في الحفلات الّتي كانتْ تقام بقرية الأفاعي على ضوء القمر، التقمَ من جديد مزمارَه وعزفَ الألحانَ نفسها، حينَها بدأتِ الذّكريات تجول في عقلِ أقمَد كالسّحاب، إنّه يتذكّر شيئا ما! الكتاب المقدّس الّذي يقرأه عقبَ كلّ احتفال قبلَ النّوم:

"نار الخطيئة تأكلني وداخلها وجدت معبود الشهوات، أكلت منها ولم أستطع الرّفض وطلب منّي روحي ثمنا للمزيد، هربتُ إلى بحر الظلام وغصتُ لأجد نفسي من جديد..."

حينَها نفثَ أقمَد كرة كبيرة من النّار السّوداء واقتحمَها وشعَرَ بالدّخان يتصاعدُ من جسَده المخدَّر. بانطفاء النّيران، كان قد استعاد وعيَه أخيرا، أقمَد الّذي صحا من سكرتِه بسبب المشروب، لم يكن على ما يُرامُ تماما، إنّه يفتقدُ

شيئا ما! هنالك سبب جَعَلَهُ يخرجُ من قرية الأفاعي وأقحمَهُ في كلّ هذا، لكنّه لم يعدْ يتذكّره! ما يهمّ الآن هو إكمالُ المهمّة الّتي أتى من أجلِها.

حملَ تشوشت كلّا من سمّان وأقمَد ودخل بهم إلى الممرّ، أصبحوا أخيرا في الأرض العليا أينَ استطاع أقمَد رؤية كلّ ما يحدثُ في الأسفل رغمَ الظّلام الدّامس ورأى السّاحرة العظمى أريناس المغمورة أطرافُها في الماء المالح، استطاع التعرّف عليها بسهولة، هي تشبِهِ قومَها كثيرا، غيرَ أنّها أضخم. من حسن حظّهم أنّ قدومَهم كانَ باللّيل، مواجهةُ سكّان الأرض العليا خطيرٌ جدّا.

على الفور وبتوجيهات من أقمَد فكّوا أسرَ الساحرة وعادوا على الفور إلى أرض النّحل. كانَ الجميعُ سعيدا بهذا النّجاح، إلّا توشوشت الّذي لم يستَطعْ رؤية أيّ شيء بسبب الظّلام الدّامس، كانَ عازما على العودة مجدّدا.

-سنعود أعدك!

تفاجأ توشوشت بأقمَد وهو يعدُهُ بالعودة من أجلِه، هو يشعُرُ به كأنه أحد أفراد أسرتِه، شعَرَ أنّ صداقتَهما امتدّت عمرا بأكمَله، حينَها عاهدَ توشوشت نفسَه على مساعدتِه من أجل بلوغِ مرادِه مهما كانتِ المصاعب!

أريناس تعلمُ بقصّة أقمَد، لم تحتج لأن يشرحَ لها أيّ شيء لذلك على الفور قالت:

-نحتاجُ إلى طاقة الجنّ!

- وكيفَ نحضِرُها؟

-أحتاجُ إلى شيء مسحور!

قالت ذلك وهي تنظُرُ إلى المزمار الّذي يحمِلُهُ سمّان، لم يكنْ مستعدًّا للتخلّي عنهُ في أيّ ظرفٍ آخر، لكنّ ولاءه لأقمَد الّذي أعادَ لهُ حياتَه جعلَهُ يتقدّمُ ويضَعَهُ في أيدي السّاحرة حتّى قبلَ أن يُطلَبَ منه ذلك.

رفعتْ يديها إلى السّماء وتمتمتْ بأهازيجها السحريّة وفي الحين، بدأ الظّلام الّذي يغشى الغابة المظلمة يختفي وبدأت طاقة النّجم المضمحلّ في الغابة المظلمة تعودُ مع اختفاء المزمار السحريّ، كانَ الظّلام يتحوّلُ إلى غبارٍ ويتجمّع في شمالِ أريناس، استطاعتْ امتصاص الشّرّ الّذي أنزل اللّعنة على غابة النّاسكِ الصّادق وعادَ الأمان والوئام بها وأصبحتِ الجنّ مخلوقاتٍ طيّبة محبّة للسلام من جديد.

شعرَ أڤمَد بكثير من السّعادة والرّاحة فقد استطاعَ أن يفي بوعدِه للنّاسك الأبيض، عليه الآن التركيز على ما يأتي، لا وقت للاحتفال... بحركة منها، نقلت الساحرة الجميعَ إلى قرية العرّاف وأمام البوّابة وقفت ثمّ نفختْ عليها الغبار الأسود فسحبت البوّابة الجميعَ داخِلها على الفور! أصابَ الجميعَ دوارٌ شديد استغرقَ دقائقَ متفاوتة بينَهم ليزول.

الظّلام يعمّ المكان وصدى قطرات المياه يتردّد بانتظام، كأنّه يسقطُ من مكانٍ عالٍ، يكفي وقوفُ أيّ كانَ هنا ليشعرَ بنور الحكمَة يتدفّق إلى دواخِله، بعدَ لحظات... سمِعوا خطوات مقبلة من أحد الاتّجاهات، يمكِنُ للمرء أن يعرف أنّها لشخص عظيم من رصانَتِها وثباتِها، كانَ العرّاف يحملُ عصا تسبقُ خطواتِه، كأنّه يسبِرُ بها ما يليه، لعلّ امتلاكَه إيّاها مجرّد رمز لاستباقِه الأمور وسبرها قبلَ الإقبال عليها.

جرتْ نحوَه السّاحرة أريناس وعانقتْه.

-كيف حال ابنتي الحلوة؟

كانَ الكلّ مستغربا ممّا سمعوه، لكنْ هذا يفسّر كلّ شيء في النّهاية، يفسر كيف أنّها كانتْ وحدَها من يستطيع فتحَ البوّابة كما استطاعتْ امتلاكَ أسرار

كثيرة لا يعرِفُها غيرها، هي ابنة العرّاف إذن! نظرَ إلى أڤمَد ورفاقِه وسألَهمْ وهو يعلَمُ سببَ قدومِهم:

-ما الّذي أتى بكم إليّ؟

أجاب أڤمَد:

-جئتُ من قرية الأفاعي لـ....

في هذه اللّحظة تذكّر أڤمَد أنّه خرجَ من قريتِه لسبب ما وبحثَ عن الحكيم للسبب نفسِه، لكنّه يعجز عن التّذكّر! انهارَ وهو يحاولُ أن يبذُلَ كلّ ما بوسعِه ليتذكّر.

- لا عليك أيّها التّنين، كلّ ما يحدث كانَ مقدّرا له الحدوث.

-كيف ذلك؟

-كنتُ أنتظر قدومَكم منذ سنواتٍ طويلة وانتقلتُ هنا إلى عالمِ الضّياعِ كي أحافظَ على حياتي ريثَما تأتون.

-وماذا يقولُ قدري؟

-عليكَ الذّهابُ إلى أرض العمالقة لإنقاذ العالم من الكارثة الوشيكة.

- ولمَ عليّ إنقاذُه؟

-إنّه قدرُك الّذي سيجعلكَ تجدُ ما خرجتَ باحِثا عنه.

ودّع العرّاف ابنَتَه أريناس واأتمنَها على بقيّة أسراره وعلى أقمَد ورفاقِه ثمّ ألغى عالمَ الضّياع من الوجود، في الحين عادَ الجميعُ إلى المكانِ الّذي كانوا فيه قبل ولوج البوّابة. فجأة... شاخَ العرّاف وتساقط شعرُه وذابَ لحمُه وتحوَّل إلى عظام، تساءلَ أقمَد داخلَه: أهذا كلّ ما في الأمر؟ هل انتظرَ قدومي كلَّ هذه السّنين ليقولَ أنّي سأجدُ قدري؟، كانَ أقمَد محبطا بعض الشّيء، كما أنّه يشكّ في كونِه من سينقذُ العالم وأنّه البطل المنتظر.

بعد ذلكَ قاموا بدفن رفاة العرّاف بشكل لائقٍ في موطِنِه الأصلي "أرض النّحل" وقامتْ أريناس باستضافَتِهم لأيّام ريثَما يخفّف الحزنُ من وطأتِه على فؤادِها. بعدَ أسبوع كامل قرّرت أنّ الوقتَ حانَ لإخبارِهم بكلّ شيء، لاطلاعهم على السّرّ الأعظم لهذا العالم، عن تكوينِه وعمَلِه، كانَ العالمُ متكوّنا من أربعة عوالم جزئيّة، العالم السّفلي للشيطان أولمك الذّي تحرسُ أبوابَه العفاريت وهو أبشَعُ من أن يصفَه اللّسان، الأرض الوسطى أو أرض المستنسخين والّتي توجد بها مختلفُ القرى كقرية الأفاعي والفئران والتّنانين

والسراعيف... والأرض العليا الّتي يسكُنها البشر أو "المربّون" وأخيرا عالمُ العمالقة.

الكارثة الوشيكة ستكونُ بأرض العمالقة إثر غضبة يغضَبُها عفريتُ الماء حمّو-قيّو النّائم في أعماق البحيرة الّتي بدأت تجفّ، لكنّ الكارثة ستعمّ كلّ شيء، فأرض البشر ليستْ سوى حبّة غبار في ثقبٍ في كهفِ أحد العمالقة ويُدعى زور، هؤلاء البشر أو المربّون، عبثوا بالطّبيعة كثيرا، ربّوا الحيوانات وروّضوها ولما بلغوا بذلك حدودَهم القصوى، عملوا على العبث بها أكثر فأكثر، قاموا باستنساخِها ودمجِ خصائصها بخصائصهم وصفاتِها بصفاتِهم في كائنات بدائيّة بخليّة واحـدة فدمجوا الأفاعي والحشرات ومختلفَ الحيوانات ووضعوها في قفصٍ زجاجيّ كبير.

بعد مئات، بل آلاف التّجارب، تمكّنوا من إيجاد مخلوقات ذكيّة على شاكلتِهم لكنّها حيوانات في الوقت نفسه.

-أتقصدين أنّ عالمنا بطولِه وعرضِه ليسَ إلا قفصا زجاجيا وأنّنا مجرّد تجربة؟

-تجربة ناجحة... نعم.

- وهؤلاء المربّون يعيشون على أرضٍ تَسَعهُم بينَما ليست سوى حبّة غبار في ثقبِ جدارِ كهفِ أحدِهم؟

-تماما...

كانَ الأمرُ فوقَ تصوّرهم ولولا الغرائب الّتي رأوها وعايشوها لما صدّقوا حرفا ممّا تقولُه، إنّه الجنونُ بعينه! نهضَ أقمَد من مكانِه وسأل السّاحرة أريناس:

-ما الّذي عليّ فعله؟

- عليكَ أن تجدَ العملاقَ زور الأخرس وتعطيه القلادة ليستطيعَ الكلام.

-وكيفَ لي أن أعرفه حينَ أراه؟

-سيكون العملاقَ الوحيد المسجون، لم يتبقّ لدينا كثير من الوقتِ قبلَ إعدامِه.

-لكن... ماذا أقولُ له؟ وما هي الكارثة الّتي سنمنعُ حدوثَها وكيف؟

-لم تذكرِ النّبوءة أكثر ممّا أخبرتكم به!

كانتْ أريناس عاجزة عن التحكّم بالوقت الذي لا ينتمي إلى بُعدِها، هناكَ في أرضِ العمالقة ستكونُ مجرّد نحلةٍ مجهريّة لا حول ولا قوّة لها، لذلك سيكونُ ذهابُها معَهم وزرا عليهم. أعطتْ أريناس توشوشت خارطة للوصول إلى أرض العمالقة ثم قالتْ:

-عليكم أوّلا إقناعُ التّنانين بالانضمام إليكم، فقوّتك يا توشوشت لن تكونَ كافية لبلوغِ تلكَ الأرض البعيدة مهما تناولتَ من الدّماء الباردة!

رغبَ توشوشت بشدّة في مساعدة أقمَد، كما أنّه أراد التفوّق على جدّه وإنقاذ العالم، أرضُ المربّين لم تعد كافية بالنّسبة له، عليه الوصول إلى أبعد من ذلك!

باتَ الرّفاقُ ليلتَهم هناك وفي الصّباحِ الباكِر حملَهُم توشوشت إلى أرض التّنانين الجبّارة، هناكَ أينَ سيطلبونَ المساعدة منها لإنقاذ هذا العالم البائس!

كانَ العثور على أرضِ التّنانين سهلا بفضل مِلاحة توشوشت وسُرعتِه وحواسِ أقمَد الفائقة ونباهة سُمّان وفِراستِه الغريزيّة، طاروا عبر الأراضي الجافّة مرورا بأرضِ الينابيعِ السّاخنة إلى أن بلغوا أرض البراكين، حينها انتظروا حلولَ اللّيل.

سرّ أرض التّنانين يكمن في النّجوم، بدونها يستحيلُ الوصول إلى هناك، نظرَ سُمّان بعينيه الثّاقبتين إلى السّماء وبعد لحظات استطاعَ رؤية مجموعة "حزام الجبّار"، لقد اكتسَبَ قدرَتَه على قراءة المسارات من صيدِه سابقا للفئران، يستحيل أن يخطئ قراءتَه، بإسقاطِ النّجوم المشعّة الثّلاثة على الأرض نجدُ براكينَ الأسرة الأصلية للتّنانين، تقول الخريطة أن أكبرَ البراكينِ الثّلاثة الخامدة هو الممرّ لأرض التّنانين. لم يكنْ على الرّفاق سوى الدّخول آملين أن تكونَ الخريطة محقّة.

تتبّعوا المسالك يتقدّمُهم أڤمَد، لم يشعُر بالغربة في هذه الأرض خلافا لشعوره في الأراضي السّابقة، كأنّها امتدادٌ لقريتِه الأمّ قرية الأفاعي، هو بارعٌ في سلوك الدّروب المتشعّبة والخروجِ من المتاهات بانسيابية، كانَ الأمر أصعبَ قليلا على توشوشت وسمّان، لكن بتقدّمه لإرشادِهما أضحى كلّ شيء أسهل.

أخيرا بزغَ النّور هناكَ من ثقبٍ أعلى الجدار، كانَ المنفذَ إلى أرض التّنانين الأسطوريّة. لم تتهاون التّنانينُ معَهُمْ فور رؤيتِهم بل اعتقلَتهمْ وقادتْهُم إلى سيّد التّنانين.

-من أنتم ولماذا تكبّدتم عناء المجيء إلى هذه الأرض البعيدة؟

-أنا أڤمَد من أرض الأفاعي وهذان مساعداي توشوشت من أرض البعوض وسمّان من أرض القطط!

ثمّ قصّ عليه أڤمَد كلّ شيء بخصوص النّبوءة وما سيحصُلُ إن لم يتدخّل لإنقاذ العالم، التّنانين مخلوقات شرسة ومنغلقة، لم تكنْ تؤمِن بالخرافات والأساطير وما إلى ذلك من الأمور.

-ما قلتَهُ لا يعني لي شيئا! لكنْ لن يذهبَ قدومُكمْ سدى، ستكونونَ وجبتي على العشاء!

أدركَ أڤمَد أنّ هذه المخلوقات لا تفهمُ سوى لغة القوّة، سمّان فقدَ مزمارَه وتوشوشت غيْر بارعٍ في القتال، أمّا هو فلا يزال نصفَ تنّين بلا أجنحة ولن يكون باستطاعتِه الصّمودُ أمامَهم، كما أنّ السّاحرةَ أريناس أخبرتْه أنّه سيحتاجُ إلى الأمنية الّتي يدينُ له بها أبانوخ في أرض العمالقة، لذلك لن يستطيع إنفاقَها هنا.

رغمَ ذلكَ تحدّى أڤمَد الزّعيمَ في قتالٍ ليربَح بعضَ الوقت، لم يكنْ يعلَمُ بأنّه فعّل أحد بنود القانون الّذي يحكمُ أرض التّنانين، فبتحدّي أيٍّ كانَ للزعيم سيخوضُ معهُ قتالا إلى الموت وإن استطاعَ هزيمتَهُ سينصّبُ ملكا جديدا على

المملكة، لم يكنْ على الزّعيم سوى الموافقة مزهوّا بحجمِه وقوّته وجناحيْهِ القويّين وحدّد موعدَ القتال ليكونَ صبيحة اليومِ التالي.

كلٌّ من الثّلاثة كانَ يعلمُ أنّ فرصة أڤمَد ضئيلة في الفوز أمام هذا الوحش، حينَها أقبلَ توشوشت على أكبرِ وآخر تضحية يقومُ بها في حياته، خاطبَ أڤمَد قائلا:

-قبلَ أن ترفض اسمعني أولا... نحنُ هالكون في كلّ الأحوال، لكنّك إن امتلكتَ جناحين ستصبحُ تنّينا كاملا وبوسعِكَ هزيمتهُ!

- ما كنتُ لأرفضَ لو امتلكتُهما.

-قم بأكلي!

اندهشَ أڤمَد من طلب البعوضة توشوشت ورفضَ رفضا قاطِعا، لكنّ توشوشت كانَ مُصرّا على أنّها الطّريقة الوحيدة للنّجاة. سمّان الّذي كانَ كارها للفكرة، أقرّ أنّ طلبَ توشوشت وإن كانَ مؤلِما فهو الطّريقة الوحيدة لإكمال الدّرب وإنقاذ العالم.

-لا تنسَ أن تخبرَ قريتي أنّ جدّي كانَ محقّا وأنّي كنتُ بطلا إلى آخر لحظة.

بعدها التهمَه أقْمَد وعيناه تفيضانِ بالدّموع. بعدَ لحظات، تضاعفَ حجمُه وأصبح له جناحان عظيما الحجم. في الصّباح نازلَ أقْمَد زعيمَ التّنانين، كانَ بوسعِه أن يطيرَ مثلَه لكن برشاقة أكبر ولما نفث الزّعيمُ النّارَ من فمِه، نفثَ أقْمَد بدورِه نيرانَه السّوداء الأسطورية على جناحي الزّعيم فاحترقا تماما وسقطَ على الأرض مهزوما.

عندئذ أعلنتِ التّنانينُ ولاءها لأقْمَد واعترفَتْ به زعيما عليها وأصبحَ سيّد التّنانين على الإطلاق. كانَ فؤادُهُ لا يزال مفطورا على الطّريقة الّتي رحلَ بها رفيقُه، يبدو أنّه لم يعد بحاجة لمساعدة التّنانين، فجناحاه القويّان سيوصلانِه إلى أرضِ العمالقة بالتّأكيد. شكرَ سمّان على وفائه ومساعدَتِه وكلّفهُ بمهمّة أخيرة، طلبَ منْهُ أن يخبِرَ قرية البعوض بقصّة البطل توشوشت ووصولِه إلى الأرض العليا، ثمّ أرسَلَه في موكبٍ من التّنانين الضّخمة إلى هناك، فسكّان قرية البعوض يحتاجونَ إلى بُرهان القوّة ليصدّقوا.

سيواصِلُ أقْمَد رحلَتَهُ إلى أرضِ العمالقة وحيدا، لن يتحمّلَ رؤية شخصٍ آخر يتأذّى من أجلِه، هو الآنَ مستعدٌّ لأن يتأذّى من أجل الجميع.

ضربَ أقمَد بجناحه الجبّار فانطلَق كالسّهم إلى الأعلى وما هي إلّا مدّة حتى اخترقَ الغلافَ إلى الأرضِ العليا، ثم ضرب بجناحيه إلى أنْ أصبحَ كلّ شيءٍ مظلما، عليه الثّبات على مساره وعدم الالتفات، هنا لا يوجدُ شيء، مكانٌ فارغٌ من الفراغ، نيران أقمَد السّوداء وحْدها بإمكانها الاشتعال هنا، غيرَ أنّ حرّها كانَ ينحَرِفُ في كلّ مرّة منجذبا إلى شيء لا يراه ولا يشعر به، أدركَ أنّ ما يحيطهُ ليسَ فراغا، هنالكَ أمرٌ ما يعترضه، هو لا يطير بل هو يسبحُ في هذه المادّة المظلمة!

حينَها جعلَ ينفُخُ نيرانَهُ في كلّ مرّة ليعدّل مسارَه الافتراضي إلى المسار الحقيقي. كثيرونَ من ضاعوا وسبَحَتْ جثثُهُم إلى الأبد بعدَ أن سبحوا في مسارات حلقيّة متوهّمين أنّهم يسلكونَ خطّا مستقيما.

هناكَ أدرَك أقمَد أنّه لا شيء مقارنة بهذا الكونِ الواسع، سمِعَ الأرواحَ تكلّمه عن طريقِ القلادة الّتي حصلَ عليها من مملكة القطط، بعضُها باركَه وبعضُها كانَ يستنجدُ به وسط ذهولِه وشعوره بالغربة والغرابة، كانَ يحاولُ التركيزَ على هدفِه كي لا يضيع، فجأة أحسَ بالثقل الشّديد، ظهرَ أمامَه ثقبٌ أسودٌ عظيم، كانَ أكبر من شمس العالم العلويّ بملايير المرّات، كانَ هائلا

وجشِعا جدّا، جشع لدرجة ابتلاع كلّ شيء، الكواكب والأجرام والنّجوم وحتّى الضّوء، عبثا حاولَ أڤمَد الفرار لكنّ النّجم الميّتَ سحبَهُ داخلَه في النّهاية ولحسنِ حظّه أنّه لم يحوّله إلى كوازارات ويلقِه في الفضاء.

استفاقَ أڤمَد ليجدَ نفسَه في جحرٍ في أرضِ العمالقة، حينَها وبمجرّد فتحِه عينيْه بدأت التعويذة الّتي ألقتْها عليه السّاحرة أريناس قبل مغادرتِه تعمَلُ عـملَها أصبحَ أڤمَد أضخم ملايينَ المرّات بقدر ضخامة سكّان هذا العالم، فزِع العمالقة منْه وفرّوا هاربين ثمّ عادوا مسلّحين ورموْهُ بنبالِهم، كانتِ السّهام تصطدِمُ بجلدِه الخشن وترتدّ فورا، لم يهتمّ لأمرِهم بل راحَ يتبَعُ الخريطة باحِثا عن السّجن أينَ يقبع زور.

مشكلة النّبوءات أنّها غيرُ كاملة، تحمِلُ كلماتُها طرَفَ الحلّ ولا تَبسطه، لا أحدَ يعلَمُ ما هي الكارثة الّتي توشكُ أن تحلّ بهذا العالم، مهمّة أڤمَد الآن هي العثور على زور والحديثُ إليه آملا أن تتوضّح الأمور في الوقتِ المناسب.

بعدَ فترة وجيزة، اقتحم أڤمَد السّجن وولجَ إلى زور الّذي كانَ شجاعا متأهّبا، في البداية خالَهُ منفّذَ حكمِ الإعدام أو شيئا من هذا القبيل، الفترة الّتي قضاها محبوسا ساعدتْهُ على تقبّل قدرِه أيّا كان.

وضعَ أڤمَد يدَهُ على زور وقصّ عليه كلّ شيء ثمّ نزعَ القلادة ووضعَها على عُنُقِهِ وقال هي لك. اختلطتْ مشاعرُ زور بين السّعادة لأنّ القلادة ستمكّنُه من الحديث مع قومِه وبين الاستغراب من كلّ ما سَمِعَهُ دفعة واحدة وبينَ الحيرَة حينَ علِمَ مِنْ أڤمَد أنّهُ وحدَهُ من يعلَمُ سببَ الكارثة الوشيكة. فكّرَ زور كثيرا وتساءلَ عن الأمرِ الّذي يعرِفُهُ وحدَه دونَ غيرِه.

-البحيرة! منذُ بناء السدِّ وتراجُعِ مياهها زادتْ حدّة الهزّات، غيرَ أنّها خمدت منذ ثلاثة أيّام!

طلبَ زور من أڤمَد حملَهُ إلى القائد وهناك أخبرَهُ بكلّ شيء وبسبب محاولَتِه نزعِ الحصاة من السدّ كي تمتلئ البحيرة مجدّدا، فهمَ القائدُ أنّه كانَ محقّا وأنّ عليهِ التصرّفَ قبلَ أن تحلّ الكارثة، لكنْ قبلَ أن يقوموا من مجلِسِهم، سمعوا صيحةً مدوّية اهتزَّت لها البلاد، تجمّعتِ السّحب في السّماء وتجلّى العفريتُ حمّو-قيّو بعدَ أن استيقظ من نومِه منزعِجا، شكلُهُ مخيف بشكلٍ لا يوصف وجبروتُه لا يضاهى... سقطَ أڤمَد على ركبتيْه وأيقنَ أنّه تأخر، لم يعدْ بوسعِه إيقافُ الكارثة، حتّى أبانوخ الّذي يدينُ له بأمنية لن يكونَ قادرا على إيقاف حمّو-قيّو، فالعفاريت العظمى لا تتقاتل بينَها.

ربّما كانَ بوسعهم إيقافُ غضَبه بإحضار السّاحرة العظمى قبل أن يدخُلَ في نوبة الغضب، أمّا الآن فقد فاتَ الأوان، لقدْ أوصتْهُ بالإسراع قبلَ حدوثِ هذا، هذه المرّة... هي النّهاية! تحسّر أقمَد بينما كانَ الكلّ مرعوبين ويجرونَ للاختباء في كلّ مكان دونَ فائدة، آهٍ لو امتلكَ بعضَ الوقتِ فحسب... مجرّد دقيقة من الوقت ستكون كافية!

هنا تذكّرَ أقمَد شيئا ما... نظرَ إلى كفّه بسعادة كما لمْ ينظُرْ من قبل، تذكّر أنّه اشترى دقيقةً من الوقتِ في الغابة المظلمة! حينَها صاحَ مناديا العفريتَ أبانوخ ليحقّقَ له الأمنية الّتي يدينُ لهُ بها وطلبَ منهُ إحضار السّاحرة أريناس في الحين، لم يكدْ أقمَد ينهي طلَبَه حتّى كانتْ السّاحرة ماثلةً أمامَه، عندَئذ ضربَ براحتِه الأرضَ فعاد الزّمنُ دقيقة إلى الوراء. حينَها طلبَ من أريناس الحديثَ إلى حمّو-قيّو قبلَ استيقاظِه غاضبا.

لم يكنْ هنالِك متّسعٌ من الوقتِ للتّفكير لذلكَ نفّذت ما طلبَه منها بأقصى سرعة، الاستفاقة على صوتِ من نحبّهم يمنحُنا كثيرا من الهدوء والسّعادة، لم يختلِف الأمرُ بالنّسبة للعفريت العاشق رغمَ ماضيهما الحافل بالصّراع، طلبتْ أريناس من حمّو-قيّو فتحَ صفحةٍ جديدة والحديثَ بهدوء.

مثلَ الملك حمّان ومثلَ كلّ الذّكور في الدّنيا باختلافِ رُتَبِهم ومناصِبِهم، لا يستطيعُ العفريتُ أن يكونَ غليظا طولَ الوقتِ مع الأنثى الّتي يحبُّها ولا يستطيع ردّ طلباتِها المخفوقة بأنوثتِها الطّافحة وصوتِها النّاعم، لذلكَ ابتعدا إلى أرضٍ بعيدة أينَ تحدّثا طويلا، جعلَها تفهمُ أنّ عشقَ العفاريت أبديّ وأنّه فاتَ الأوانُ للتّراجعِ عن حبّها.

سببُ المشاكلِ في العالم هو الشّهوات الّتي تدنّسُ النّفوس، كانتْ العفاريتُ مخلوقات ودودة وطيبة، إلى أنْ تفرّقت فيها شهوة العفريتُ الأوّل مواي الّذي أوجَد في نفسِه الشّهوة من أجل خلقِ نسلِ العفاريت قبل أن يتحوّل إلى تمثال غريب في جزيرة القيامة، توصّلتِ أريناس إلى أنّ السّبيل لينساها هو بانتزاع الشّهوة منه.

حينَها طلبتْ منهُ مرافَقتَها إلى أرضِ الهجناء أينَ يمْكِنُ لسحرها أن يستعيد أثره ومفعولَه وفورَ وصُولهما إلى هناك، ألقتْ عليه تعويذة جعلتْه يفقد شهواتِه الدنيوية وبذلك لم يعدْ يشعُرُ بالحبّ الّذي نجمَ عن الافتتان بها، أخيرا... نجى العالمُ من الكارثة بفضلِ جهودِ الجميع وتضحياتهم.

قبلَ رحيلِه، طلبَ أڤمَد من زور الحفاظ على الكهفِ الّذي بثقبِه توجدُ حبّة الغبارِ الّتي يعيُش على ظهرها البشر، لأنّ أيّ تغيّر قد يعني نهايَة العوالم الوسطى أيضا.

شيء من أجلك

انطفأت النّار... هذه الشّعلة الّتي رافقتني خلال اللّيالي السّابقة، تُحتَضَرُ كلّ يوم وتموت، لكنّ روحَها تعودُ لتتجلّى في الغد، هل هذا ما يحدُثُ معنا كلّنا؟ ربّما هنالِكَ من يخلُفنا حين نندثر، يحمِلُ أحلامَنا وطباعَنا وتصرّفاتنا ومشاريعَنا، لا أريدُ أنْ أموت! أريدُ أن يشبِهَني شخصٌ ما، أن يتذكّر أقوالي، أريدُ طفلا بملامحِي وبطيبة ميلين.

يمكنُ أن نستقي حكمةً من أيّ شيء حينَ نرغبُ في ذلكَ، هذا ما تعلّمتُه من فلسفة وحكمة الأفعى أقمَد، علينا الإيمانُ بالصّواب والتّضحية من أجلِه كما فعلَ زور، كانت هاتان الشّخصيّتان أكثرَ ما شدّ انتباهي في القصّة، يا له من فكرٍ عظيم وروحٍ جميلة ونظرة عميقة! لن أحزنَ على الشّعلة اليوم وسأنتظرُ الشّعلة الّتي تحملُ إرادتَها ليلَةَ الغد.

توشوشت والتّضحية! هذا ما فعَلتْهُ ميلين من أجلي وجعَلني عاجزا عن ردّ الدّين لها ما حييت، بعدَ أن رفض أبوها خطبتي لها، عدتُ إلى البيتِ، لم أكنْ حزينا على الإطلاق، لأن تلكَ العبارة ظلّت ترنّ في رأسي فاسحة المجال

للأمل، "لا تتخلَّ عنّي"... الشّخص الوحيد الّذي من الممكنِ أن يجعلَني أبتعِدُ عنكِ هو أنتِ يا ميلين، يا لك من غبيّة! زامَنَتْ عودتي الامتحان الّذي ترشّحتُ له، اجتزتُه بكلّ أمَلْ وكانَ يومُ نجاحي عُرسا عائليّا، كنّا سعداء جدّا، أخيرا حصلتُ على وظيفة، يمكنني الآنَ الاطمئنان أكثر على عائلتي ويمكنني أن أوفّر معيشة لائقة لحبيبتي وزوجتي المستقبليّة، ميلين بدورِها كانتْ سعيدة جدّا من أجلي... بل من أجلنا، هي واثقةٌ أنّنا في النّهاية سنرتبطُ مهما يكن.

-هل حضّرتِ الحلوى بمناسبة نجاحي؟

- لمَ أحضّرها إن كنتَ بعيدا وعاجزا عن أكلِها؟

-من قالَ أنّي بعيد؟ أطلّي من الشبّاك!

-الآن؟

-نعم الآن.

-لا أستطيعُ رؤيتك!

-رؤيتي؟ من قالَ أنّي أمام بيتكم؟

-تبّا لك، يا لكَ من غبيّ.

-كنتُ أريدُ أن أسألَك عن السّماء إن كانتْ صافية فحسب!

-يوما ما... يوما ما سأخنقك يا أحمد!

....

كنتُ أتهيّأ للسّفر للمشاركة في التّكوين، نسيتُ الاتّصال بها اليوم، كما أنّ الوقتَ تأخر، لا بأس، سأكلّمُها غدا، مضى بعدَها يومٌ ثمّ يومان... هاتفُ ميلين مغلق شيء ما ينبئني أنّها ليستْ بخير، هي لا تستطيع الصّبر على الحديث معي كلَّ هذه المدّة! مع انقضاء اليوم الرابع، كانَ قلقي شديدا أكثرَ من أيّ وقتٍ مضى، قرّرتُ السّفرَ من جديد إليها، لا يوجدُ حلّ آخر، ساورتني كلّ الشّكوك والاحتمالات هل حبسوها في البيت وجرّدوها من الهاتف؟ هل هي مريضة؟ هل زوّجوها قسرا؟ جهّزتُ نفسي للسّفر، استلقيتُ أُداري هواجسي، رنّ الهاتف فالتقمتُه بكلّ تلهّف، كانَ رقمَها... الحمد لله.

-الو... ميلين.

-الو...

لا... هذا ليسَ صوتَ ميلين... ارتجَفَ قلبي وأصابَ الوهنُ قدميّ.

-من أنت؟ أينَ ميلين؟

-أنا أمّها.

-ماذا حدثَ لميلين؟ لماذا تتحدّثين من رقمِها.

لوهلةٍ نسيتُ أنّ من أحدّثُها هي أمّها، لم أكنْ أولي اعتبارا لذلك، كلّ ما كنتُ أبحثُ عنهُ كلمة تطمئنني، كلمة تعيد روحي إلى مرتَعها، المواقِفُ تقبضُ الكلفة والأخلاقَ وتذيبُ معادِنَ النّاس، لذلكَ لا عجبَ إنْ نظرَ الخلقُ لبعضِهم عراة دونَما شهوة حينَ يرونَ نارَ يومِ الحساب.

-هي بخير، هي متوعّكة قليلا، هل تستطيعُ القدوم إلى هنا؟

-وعكة؟ أرجوك أخبرني بالحقيقة، ماذا أصابَها؟

-لا تقلق يا بنيّ، مجرّد دوارٍ خفيف، هي الآن بمستشفى الولاية.

في قمّة القلق، قلتُ داخلي ساخرا: كلّ ما أعرِفُه أنّ ميلين ليست حاملا...

-سآتي في أسرع وقتٍ ممكن.

لا أذكرُ أيّ شيء بعدها سوى أنّي كنتُ أتعجّلُ النّزولَ من الحافلة الّتي ركبتُها عندَ وصولي إلى العاصمة، دخلتُ المستشفى أوزّع الأسئلة والنّظرات على كلّ من ألتقيه... أخيرا وجدتُها! كانتْ نائمة على السّرير كطفلةٍ بريئة،

بجانِبِها خالتي ماتيّا، لم تكنْ رأتني من قبل، لكنّها تعرّفتْ عليّ، سلّمتُ على رأسِها وسألتُها عمّا حدثَ ولما هي هنا.

-ما الّذي فعلتَهُ لتجعلَها تريدُك وتمتنعُ عن الطّعام من أجلك؟ ماذا رأت فيك؟

-امتنَعتْ عن الطّعام؟ الغبيّة! لم تخبرني...

كانَ يبدو على خالتي ماتيّا الحسرة وبعض الغضب اتّجاهي كما أظنّها متفاجئة من نعتي إيّاها بالغبية.

-خالتي، أريد الزّواجَ بميلين، اعدكِ أنّي سأهتمّ بها.

-لقد ناقشتُ الأمرَ معها بعد أن استفاقت، لا أدري كيف عبثَتَ بعقلِها، لكنّي أخبرتُها أنّها ستكونُ مسؤولة عن أفعالِها، القرار قرارها...

كانتْ تُبدي موافَقتَها بكلّ ما تمتلِكُه من كبرياء، في تلكَ اللّحظة تملّكتني السّعادة بحيثُ كانتْ لتكفي أمّة بأكمَلها، لكنّي لم أكنْ مصدّقا تماما، أردتُ التّأكد، أردتُ سماعَها بصريح العبارة، لا مزيدَ من الكنايات!

-إذن... خالتي هل توافقين على زواجنا؟

قالت وهي تداري ابتسامتَها من ردّة فعلي:

-نعم بعدَ أن تجدَ عملا...

مازحتُها داخلي قائلا:

-هل يمكنني غسلُ الصّحون في بيتكم؟

إذن هي لا تعلَمُ أنّي وجدتُ عملا سلفا، ستكونُ مفاجأة لها، ربّما تظنّ أنّ شرطَها سيعجزني... لا يهمّ! سأكونُ فائزا مهما كانَ الّذي تظنّه. أخيرا أنا وميلين سنتزوّج! راقبتُها وهي نائمة، انتظرتُ استفاقتَها، فتحتْ عينيْها، رأتني ولم تبدُ متفاجـئة كانتْ تتوقّع قدومي على الأرجح، ابتسَمتْ ونادتني بصوتِها النّاعم:

-أحمد!

خرجتْ خالتي ماتيّا في هذه الأثناء لتعطيَنا بعضَ الخصوصية أنا وحبيبتي ميلين لا بل أنا وخطيبتي ميلين.

-أيّتُها الغبيّة، ما الّذي فعلتِه بنفسك؟

-لم أخبركَ لأنكَ كنتَ سترفضُ وتمنعني في كلّ الأحوال.

-لا تؤذي نفسَكِ مجدّدا، أ فهمتِ؟

-أحمد... لقد قبلَ أهلي... أخيرا، استطعتُ فعلَ شيء من أجلك.

كانتْ تبكي ضاحكة، البريقُ في عينيها... وضعتُ راحَتَها فوق راحتي وقبّلتُها.

-أنتِ لا تدرينَ كلّ الأشياء الّتي فعلتِها من أجلي، منحتني الامل في الحياة، كنتُ قبلكِ مجرّد إنسان.

-وماذا تكون الآن؟

-أنا الآن إنسانٌ سعيد!

ضحكتْ كثيرا ثمّ قالتْ كلماتِها المعهودة:

-أحبّك أيّها الحجري!

-الحجرة لي تفلّقلَكْ راسك!

....

بعدها بسنة أقمنا عُرسَنا، كانتْ عائلتي سعيدة جدّا بها، كانتْ مفتاحا للخيرات والسّعادة، استطعتُ بدأ عملي بشكل جيّد واستفدتُ من أعمالٍ إضافيّة، تجاوزنا مرحلة الفقر، حتّى أنّه صارتْ لديّ سيّارة والآن أنتَظِرُ مولودي الّذي أريدُهُ أن يرثَ صفاتي، أريدُ أن أحيا من خلالِه، لا أريد أن أموت!

كانَ أحمد في هذه اللّحظة يحكي بتأثّرٍ شديد، كانَ هذا آخر تلميحٍ عن وضعِه السيّء، كأنّي أحسستُ بهِ يتمنّى أن يُسعِفَه الوقتُ لرؤية ابنِهِ قبلَ رحيله، رؤيتُه هكذا كانت مؤلمة جدّا، واصلَ كلامَهُ:

اللّيلة الثّامنة مع عمّي يغموراسن انتهتْ وإلى غاية تلكَ اللّحظة لم أكن أفهم المغزى من هذه الخرافة، تنانين وعفاريت وعرّاف وساحرة و... كانتْ ممتعة ومشوّقة لكن لم أجدْ علاقة تربِطُها بي، ما المغزى من حضوري؟ لكنّ الجواب كانَ فيما رواهُ عمّي يغموراسن في اللّيلة بعدَها، حينها توضّح كلّ شيء....

الفصل التّاسع

تمّ إنقاذُ العالمِ أخيرا، عادَ أقْمَد سالكا الطّريقَ الّتي أتى منها، وفورَ وقوفه أمام الثُّقْبِ المخفيّ داخلَ الجحر الذي خرجَ منه، عادَ إلى حجمِه السّابق، وجَه فورا ثمّ سبحَ أيّاما طويلة إلى أن وصلَ إلى الأرض العليا من جديد ثم إلى أرضِه... أرض الهجناء.

ماتَ توشوشت لكنّه ردّ الاعتبار إلى قريتِه وساعدَ في إنقاذ العالم... كلّنا سنموتُ يوما ما، لكنْ لن يذكرَنا العالمُ بالطّريقة نفسها... هذا إن ذكَرَنا أساسا.

استطاعَ زور التحدّث مع قومِه وعادَ النّور إلى قرية النّاسك وعادَ سمّان إلى عائلته وسُجنَ مغتوب ونهلَ عصارة أفعالِه، أدّى العرّافُ رسالته وعادتِ السّاحرة إلى مملكتِها. كلّ شيء يبدو بخير الآن لكن... شيء ما يشغلُ بالَ أقْمَد، ليسَ بخير على الإطلاق لم يستطعْ تذكُّرَ سبب خروجِه من قريتِه، لقد خرج منذ سنين طويلة في طلبِ شيء ما، أمرٌ كانَ من الأهمية بقدرٍ جعلَهُ يتركُ بلدَه وأهله ويخرجُ باحثا عنه.

هامَ أقْمَد طويلا في الأرض محاولا التذكّر وفي النّهاية قرّر العودةَ إلى ديارِه، قطعَ المسافة إليها في ظرفٍ وجيز، غيرَ أنّ شوقَهُ لها جعل الوقتَ يمرّ أبطأ، كانَ سعيدا جدّا بوصولِهِ ولقاءِ أهله وأحبابه مجدّدا.

لكنّه تعرّض لصدمةٍ كبيرة حينَ لم يتعرّف عليهِ أحد، بل أنّهم قاموا بمهاجمتِه وطرده، انفطَر قلبُ أقْمَد من هذه الخيانة وهذا النّكران، لم يكنْ يدري أنّ الزّمن كفيلٌ بإذابة كلّ الرّوابط التي اعتبرها ذاتَ لحظةٍ أبديّة.

قرّر الرحيل، لكنّه قبلَ ذلكَ عرّج على بحيرة القرية المسحورة، لم تتغيّر البتّة، بل ربّما ازدادتْ جمالا، غطسَ فيها أقْمَد سعيدا بملاقاتها، لعلّها الوحيدة الّتي لا تزال تحافظ على عهده ولم تنفر منهُ يوما، جلسَ قليلا عندَ حافّتِها ينظر إلى مياهها العكِرة.

بعدَ مدّة من ذلك أصبحتْ صافية وحينَها استطاعَ أن يرى صورتَهُ على صفحتِها... يا للمفاجأة! لم يستطِع التعرّف على نفسه! مضتْ سنينٌ طويلةٌ منذُ خروجِه، لأوّل مرّة منذُ ذاك اليوم هو يشاهِدُ نفسَهُ مجدّدا، لقد تغيّرَ كثيرا، أصبحَ أضخم حجما وأدكنَ لونا وأحدّ أسنانا، حينها وحينها فقط، تذكّر سببَ خروجِه من القرية ذاك اليوم، لقد خرجَ بحثا عن جوابٍ لسؤالِه الّذي طرحَه

على هذه البحيرة قبيلَ مغادرته:هل الواحدُ منّا يتغيّر؟ والآنَ وجدَ الجواب بنظرةٍ أخرى إلى البحيرة نفسِها... دونَ أن ينبسَ بكلمة، وجدَ الجوابَ الذّي كانَ يقبعُ على بُعد أمتارٍ وبضع سنوات من بيتِه... نعمْ! نحنُ نتغيّر تدريجيّا دونَ أن نشعرَ بذلك حتّى نصبِحَ أشخاصا مختلفين تماما دونَ إدراكٍ منّا.

فهمَ أقْمَد حينها أنّه لم يعدْ لهُ مكانٌ في هذه القرية، لم يعدْ واحدا منهُم، لذلك عاد أدراجَهُ إلى مملكة التّنانين، أينَ عاش ملِكا عليهم.

"وراحتْ خبّيرتي من واد لواد وأنا خلّيتها مع النّاس لجواد".

بهذه العبارة أنهى عمّي يغموراسن قصّة الأسطورة أقْمَد...

الطّعنةُ العاشرة

انتهت الحكاية! إنّها أشبهُ بالحياة، لا يمكنُكَ فهمها إلّا بوقوفك عند النّهاية مودّعا، حينها تحصُلُ على الصّورة الكاملة وبوسعِكَ أن تندمَ لاحقا، كورقة الامتحان الّتي تقضي الوقتَ تبحثُ عن إجابات تدوّنُها عليها وفي نهاية الوقت تحصلُ على كلّ الإجابات الّتي تريدُها، لكن دون ورقة! هذا دليلٌ على أنّ السّعي للحصول على مرادنا خارجَ حدودنا الزّمنيّة سيكون مضيعة للوقت، لم أكنْ أدري حينها أن وقتي بدأ ينقضي بسرعة، لكنّي تعلّمتُ الدّرس، فهمتُ ما كانَ يريدني عمّي يغموراسن أن أنتبِه إليه.

بقدرِ شوقي لنهاية القصّة كنتُ أتمنّى أن تطول، هل هذا شعوري وحدي أم أنّ الجميع يشعر مثلي؟ لعلّهم معتادونَ على ذلك عكسي، لا أدري فلعلّ التعوّد على الفراقِ يجعَلُه أسهل، لطالما شغلني هذا السؤال... هل التعرّض لطعنة خنجر تسعَ مرّات يجعَلُ الطعنة العاشرة أقلّ ألما؟ الفراقُ هو الفراقُ ولا يتعلّق ألمهُ بذاتِه بل بمن نفارِقُهم، طعنة الخنجر والسيف لن تكونا متساويتين في كلّ الأحوال!

كنتُ أنظرُ للشّعلة الّتي تكادُ تنطفئ وأتساءل بماذا تشعُرُ وهي تُحتَضر؟ بعضُ الأمور الحتميّة من الأفضل ألّا نعلَمَها، كلّ ما يمكننا فعلُه هو الدّعاء من أجل لحظة لقائها، كنتُ حزينا فحسب، من سيحمِلُ إرادة هذه النّار بعدَ اليوم؟ من سيردّد قصّتَها؟ بعدَها علمتُ أنّنا لا نعدو كوننَا جزءا من حياتِها.

بالنّسبة لها نحنُ من سنحملُ قصّتَها داخِلنا، سننقلها إلى آخرين وهكذا ستحيا إلى الأبد، قد تتذكّرك الأشياءُ الّتي لا تشبهك، قد يموتُ الإنسانُ وتتذكّره الشّجرة الّتي غرسها والجبال الّتي حفرها والطّرق الّتي عبّدها والنّفوسُ الّتي أحياها بالأمل! أشعرُ بالأمل! بريقُ الشعلة في عيوني يشبه الأمل، لم أرَ شيئا يرسُمُ الأمل في عينيّ بهذا الإتقان من قبل! كثيرٌ من الكلامَ يضجّ في صدري وبودّي أن أقولَه لِلا-أحد، تذكّرتُ تساؤل العظيم زور: أين تذهب الكلمات الّتي لا نقولُها؟ أظنّ أنّه بوسعِنا أن نكتبُها وستحصُلُ على من يقدِّرُها أو يحتاجُها يوما ما.

قبلَ مدّة شاهدتُ فلم امرأة بدّلوا طفلها لكنّها حاربت الشّرطة من أجل استرجاعه، أتذكّر كلمتها: "النّاسُ لا يتغيّرون"، كنتُ مؤمنا بذلك فور سماعي له، ربّما بسبب الظّروف الدراميّة الّتي أحاطتِ المشهد، لكن اليومَ

علّمني أقمَد شيئا مُهمّا... النّاسُ يتغيّرون دونَ شعور إلى أن يصبحوا أشخاصا مختلفين لا يشبهونَ أنفسَهم إلّا في ذكرياتِهم! وحينَ يتغيّرون يغيّرون من يحيطونَ بهمْ أو يرحلونَ إلى محيطٍ يشبِهُهُم.

بعضُنا رأى أنّ نهاية القصّة حزينة بينَما رآها آخرون سعيدة، كنتُ معترِضا على مصطلحِ "النّهاية السّعيدة"، النّهاية هي النّهاية ولا أحدَ عادَ منها ليخبِرَنا عنها، وإنْ حدثَ وعاد فلن نسمّيَها حينئذ نهاية.

طلبتْ منّي ميلين شيئا واحدا قبل ارتباطنا، طلبتْ ألّا أتغيّر، لكنّي كنتُ أشبِهُ أقمَد كلّ يومٍ أكثَرَ فأكثر ولم يكنْ بوسعها أن تراقبني وأنّا أتغيّر دونَ أن أشعر أو أستطيع التوقّف.

وطنٌ بين الظّلال

كانَ أحمد فيلسوفا حقيقيّا، يبدو وكأنّه يفكّر في كلّ شيء ولا يفوتُه شيء، من المؤسِفِ إصابَتُه الّتي تستنزفُ حيَاتَهُ سريعا، رحلَ أحمد عائدا للوطنِ صباح اليوم التّالي وبقيتُ هنا أسترجِعُ الكلمات، كانَ أثرُها عليّ واضحا، بدأتُ أدوّن قصّته وقصّة أڤمَد أيضا، أحمد لا يريدُ أنْ يُنْسى، لَمّح في كثيرٍ من الأحيانِ إلى أنّه يريد لكلماتِه أن تستمِرَّ بعدَه لتحمِلَ إرادَتَه، لكيلا يموت!

مضتْ شهور عكفتُ خلالَهَا على التّدوين، أتساءل الآن لمن أهدي أوّل نسخة من الكتاب؟ أظنّ أنّه كانَ سيرغَبُ في أنْ تقرأها زوجتُه ميلين، علّمني أحمد قبلَ رحيلِه الكثير، سأكونُ مدينا له ما حييت. في تلكَ اللّيلة ذهبتُ مجدّدا ووقفت أمام تمثال "إمري ناجي" أتأمّله، إنّه يشير إلى هناك إلى كلّ الأشياء الّتي يريدُها وهي بدورِها تريده، لم أتوقّف بدوري عن التفكير بإيمان، تذكّرتُ قولَ أحمد عن الزهرة الّتي قطفتُها بطلبٍ منه بينما تظنّ أنّه أنقذَها لأنّه وضعَها في المياه، هذا ما قدْ أفعَلُه إن استطعتُ أخيرا إقناعَ إيمان بالزّواج بي والقدوم إلى هنا، لعلّي أحبّها بالطّريقة الّتي قد تقتُلها ولن تصبِحَ نفس الشّخصِ الّذي أحبّه

بعد حين، ستتغيّر حتّى دونَ أن تدري، أظنّ أنّي فعلتُ مسبَقا ما عليّ فعلُه، تركتُ لها الاختيار، أعتقد أنّ هذا ما لمّح إليه أحمد حينَ سألني:

-ماذا لو كنتَ أنتَ الزهرة، ما الّذي ستختاره؟

قبل مغادرته قال لي يومها كلماتِه:

-في وقتٍ مضى كنتُ مستعدّا للموتِ لأنّي كنتُ أملك جوابا، أمّا الآن فقد أستجديه مقابل لحظات قصيرة.

سألته:

- وأيّ جواب هذا الّذي كنت تملكه ثمّ فقدته بطريقة ما؟

ارتدى قبّعته... خطى بضع خطواتٍ مبتعدا ثمّ استدار برأسه نصف دورة وقال:

- أين الحياة الّتي تريدُ أن تسلبَها منّي أيّها الموت؟

قالها ثمّ تلاشى بعدَ ذلك في الأفق، أين يتقاطع الخوفُ بالأمل وتصارع الأحلام الكوابيسَ إلى الأبد، هناك سيخوض هذا المارد أعتى حروبِه ضدّ الحياة... من أجل الحياة.

....

هنا مقابلَ التّمثال أنتظر، الزهرة الّتي كنتُ أنتظر تفتّحها ذاتَ يوم، وجدتُها تفتّحت لشخصٍ غيري، عليّ الآن أن أمرّ من هنا فحسب وستتفتّح بالتّأكيد زهرة ما من أجلي...

-لا تحاوِل إقناعي يا إمري! الأشياءُ الّتي تريدها تريدك بدورِها، لا عجبَ إنْ ضحّيتَ من أجلها!

صحتُ في التّمثال وكأنّه أحد أصدقائي، ثمّ انصرفتُ عنه.

قرّرتُ زيارة الوطنِ كالعادة لكنّي لن أبقى فيه، سأعود بعدَ أيّام إلى المهجر، لقدْ عانيتُ كثيرا لأحقّق ما أنا عليه الآن، سحقا للنّزوات!

خطوتُ خطواتي الأولى على أرض الوطنِ المقدّسة، أنا حتما أريدُ أن أدفنَ هنا، لكنّ العيش أمرٌ مختلف، أوّل ما فعلتُه هو التوجّه إلى العنوانِ الّذي أحتفظُ به منذ شهور.

طرقتُ الباب، فتحتْ فتاة جميلة جدّا الباب وكانتْ تحمِلُ رضيعا يرتدي قميصا ممزقا ناحية الرّأس، يبدو وكأن عمرَه لم يتجاوز بضعة أيّام، لا بدّ أنّها ميلين الّتي حدّثني عنها أحمد، شعرتُ بالخجلِ من النّظر في عينيها، سألتُها:

-أظنّك السّيدة ميلين... إن لم أكن مخطئا؟

ضحكتْ وقالت:

-لا، ميلين ابنة عمّي... سأناديها.

ذلك الحقير، لم يُخبِرني أنّ لميلين ابنة عمٍّ بهذا الجمال، خرجتْ ميلين، لمْ تكنْ تقِلّ جمالا عن الفتاة الّتي قبلَها، لم يبالِغ أحمد حينَ وصَفها بالحور العيناء، أعطيتُها الكتاب وقلتُ:

-إنّه هديّة منّي لك ولأحمد، كتابٌ أصدرتُه بعنوان أسطورة أقمَد.

أبدتْ ملامحُها الدّهشةَ من العنوان الّذي تعرفُه حقّ المعرفة وقالت:

-لم لا تنتظر عودتَه؟

-سأعودُ لاحقا، أسعدَني خبرُ شفائه وجئتُ لأهنّئكما.

-من جاء لزيارتِه؟

-قولي له صديقه... المغترب في المجر.

سعدتْ كثيرا بي وحيّتني من جديد، يبدو أنّها تعرفني تمام المعرفة من خلال حديث زوجِها أحمد.

كنتُ مسرورا جدّا لشفائه، كلانا كانَ يظنّ أنّه في أيّامِه الأخيرة، استطعتُ أن ألمحَ ابنة عمّها تطلُّ مختبئة بين الظّلال في الدّاخل. يبدو أنّي وسيمٌ بقدر محترم...

-هل يمكنني دعوة ابنة عمّك على الغذاء؟

كنتُ جريئا جدّا لأولّ مرّة في حياتي، واستطعتُ الحصولَ على موعد ولم يعدْ بوسعي تجربة "سجائر الوطن"؛ لأنّ الوطن أخبرني أنّه يمقتها لاحقا خلال موعدنا على الغذاء، سألتني ابنة عمّ ميلين يومها:

-هل من الممكنِ أن يتغيّر الحبّ العميق نحو شخصٍ ما أو يتحوّل إلى كره؟

-في الحقيقة... لا أدري، لكن قد يتغيّر الشّخص عموما دونَ أن يشعر.

ضحكتْ وقالت:

-يبدو أنّ أقمد علّمك الكثير.

-نعم! للأسف، انتهتْ قصّتهُ بعيشه مع التّنانين.

-في الواقع... القصّة لا تنتهي هنا، إن شئتَ رويتُ لكَ بقيّتها!

فاجأني بقدر ما أسعدني سماع ذلك، وافقتُ دون تردّد، وعدتني أنّها ستروي لي بقيّة الفصول خلال مواعيدنا القادمة، بعدها طلبتْ منّي قراءة شيء ما من أجلها، فتحتُ كتابي "كيد الرّجال" الّذي يحملني أينما ارتحلت... وقرأت لها:

"وبعد كل هذه السنين، ها نحن من جديد نحاول إثبات أن الأرض مسطحة... دورة كاملة عُمرها خمسون ألف سنة... نجتمع الآن عند النّهاية لنناقش البداية من جديد!"

استوقفتني هذه الكلمات... حدّقت في عينيها طويلا، هناكَ أين استطعتُ رؤية الميراث الأزليّ بين النّهاية والبداية... أبصرتُ فيهما الطّريق إلى الفردوس... كانَ طويلا ومليئا بالمنعرجات، كنت واثقا من أمرٍ واحد... وهو أنّي أريدُ سلوكَه.

"حينَ تكونُ مارّا وتتفتّح إحدى الأزهار، عليك أن تأمَلْ أنّها لك لا تقطِفها بل اسألها ماذا ستختار."

تذكّر أنّ اقتباسَ سطرٍ من كتاب سيجعله يبدو شيّقا فتأكّد من أنّك حقّا تريد السّطرَ، لا أيّ سطر آخر من هذا الكتاب!

"لكلٍّ منّا ميلين خاصّة به في النّهاية!"

البداية...